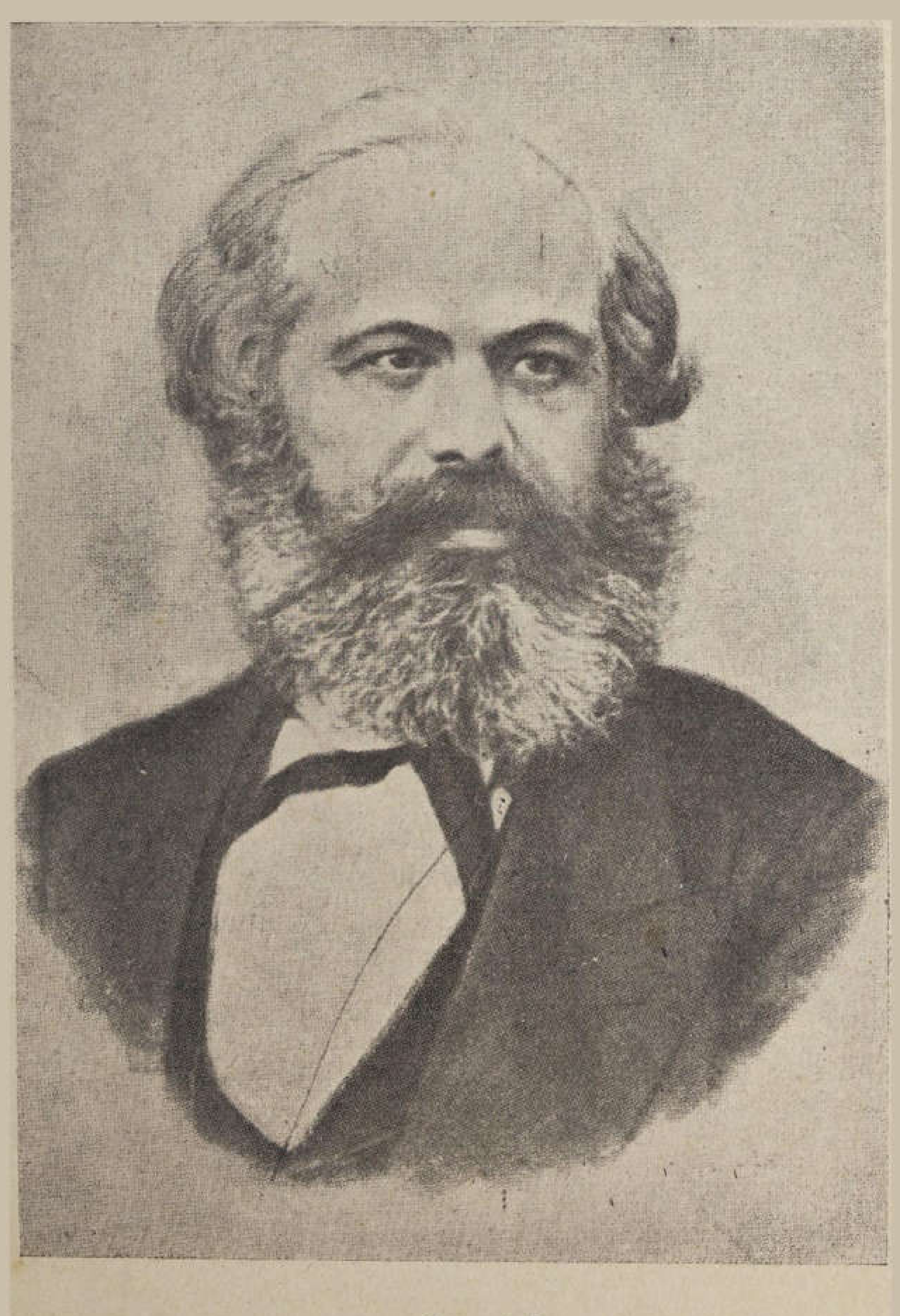
كارل ماركس

تأليف
هنري لوفافر

ترجمة
محمد عيتاني

دار بيروت
للطباعة والنشر





کارل مارکس

كارل ماركس

تأليف
هنري لوفافر

ترجمة
محمد عيتاني

دار بيروت
للطباعة والنشر

بيروت ١٩٥٤

مقدّمة

١ – أفكار خاطئة عن الماركسية

اذا اردنا ان نجد في التاريخ عقيدة هوجمت ، واحتقرت ، واضطهدت ، كما يحدث لعقيدة كارل ماركس اليوم ، فعلينا الرجوع الى ايام المسيحية الاولى ، او الى ايام الحروب الدينية، رغم ان الماركسية ليست ديناً جديداً .

واليوم تنشب معركة « ايديولوجية » فكرية عنيفة حول كارل ماركس ، هذا المفكر العظيم، وليست هذه المعركة « الايديولوجية » الا تعبيراً عن نضال سياسي عنيف ، ووجهاً من وجوه المعارك السياسية الواسعة جداً ، التي تكاد تملأ ارجاء العالم الحديث كله . فالاهواء المستعرة (اعني « المصالح ») السياسية تفسر عنف هذه المعركة واحتدامها ، وطبيعتها المترجحة بين الوحشية والغدر .

المعروف أن « علم الطبيعة » أثار ، في عهوده الاولى ، قلق السلطات الحاكمة وهاج نقمتها ، وما زال الناس جميعاً يذكرون قضية الحكم باعدام « غاليليه » لانه «زعم» ان الارض تدور... على ان هذا الحكم لم يكن غير مشهد قصير من معركه طويلة ، عنيدة ، دامية ، خاضها العلماء في سبيل حرية العقل ، وفي سبيل المعرفة العلمية . وكانت السلطات تتهم العلماء بالزندقة ، بل تتهم العلم نفسه بالزندقة ، لانه لا يفسر الاشياء كلها بأنها ارادة الله ، ولا يرد اسبابها كلها الى « العنـــاية الالهية » . وكان الصراع الفكري الايديولوجي هنا ايضاً مبطناً بصراع سياسي. فمن الذي كان يحارب علم الطبيعة الناشيء ؟ من كان يعارض موجة التقدم العلمي ؟ انهـا السلطات الحاكمة المستقرة النابعة من اصولها في القرون الوسطى ، هذه السلطات التي دحرتها الثورة الفرنسية الكبرى (١٧٨٩ – ١٧٩٣) حين نادت هذه الثورة بمبـاديء العقل والحرية .

بيد أن الحملة على علماء الفيزياء أو الكيمياء الاقدمين لم تبلغ قط من العنف بعض ما بلغته الحملة على الماركسيين، في الأزمنة الحديثة ، وفي بعض البلدان الاوروبية « الراقية » [المانيـــا الهتلرية ، مثلاً] . لماذا ؟ مـا سبب هذا العنف الجائر ؟ سببه أن وشائج الصلة بين أهداف الصراع السياسي ، واهداف العلم النـاشيء ، لم تكن ، في العصور الوسطى ، مباشرة واضحة – كما هي اليوم مباشرة واضحة . تريد الماركسية ان تكون ،

بخاصة – وهي فعلاً كذلك – علم المجتمع والتاريخ . وهذه المعرفة العلمية بحقـــائق المجتمع ، انما تنهض ، مبـاشرة ، وبلا مواربة ، ضد بعض « السلطات الحاكمة السائدة » ولا سيما تلك التي تمثل البورجوازية والرأسمالية . والماركسية تقدّم الدليل على ان سيطرة هذه السلطات تفتقر ، في المجتمع الحديث ، الى كل ما يبرر وجودها ، وأنها سوف يُستبدل بها تنظيم عضوي جديد ، يفوقها عقلانية وحرية ، ويهيمن على المجتمع بأسره . من هنا هذا الحقد الذي تثيره الدعاوة العاملة في خدمة تلك السلطات « المسيطرة » ، وتنشره ضد عقيدة تتجلى ، بكل بساطة ، علمية وحسب ؛ عقيدة تعتمد الحجج المعقولة ، والبراهين الواقعيـــة الواضحة ، وتقتصر في حديثهـا على مخاطبة العقل لتوضيح غاياتها ومنهجها .

إن الحملة الدائمة على ماركس والماركسيين تستبين ، في وجهها الماكر ، بمزاعم فظيعة ، وأكاذيب مفضوحة ، ترددهـا صحف الأحزاب « المعادية للماركسية » ويستعيدها خطباؤها بلا توقف ولا كلل ...

فمنذ عام ١٨٦٠ (يعني منذ حوالي تسعين عامـاً) وهذه المزاعم الرخيصة لا تفتأ تردد أن كارل ماركس عاش في لندن حياة يُسرٍ ورخاء ، على حساب العمال ممن كان يدعي الدفاع عنهم ؛ والواقع أن كارل ماركس عاش في لندن – كما سيرى القارىء في الصفحات الآتية – منفياً ، يعاني اوجع درجات البؤس

والفاقة ، ولكنه عاش محافظاً على كرامته منصرفاً الى عمله العلمي .

وثمة زعم حقير آخر . فنحن نعلم ان حب كارل ماركس لزوجه جيني فون وستفالن (وكانت جديرة بهذا الحب) بلغ من العمق والجمال ما يجعله خليقاً بالخلود الى جانب اشهر قصص الحب ، ان « قصة » كارل وجيني لا تقل عن سواها من قصص الهوى روعة وتأثيراً ؛ ولا شك في انه كان يفكر في جيني حين كتب هذه الكلمات (سنة ١٨٤٤ ، وكان قد بلغ السادسة والعشرين ، ولم يمض على زواجه الا شهور) :

« اذا نظرنا الى علاقة الرجل بالمرأة ، من حيث ان المرأة فريسة الرجل ، وخادم شهوته ، رأينا في هذه العلاقة انحطاطاً بالانسان ، وانحرافاً بجوهره ، الى ما لا نهاية له ، حين يعيش لأنانيته وذاته ، وحسب . لأن سر هذه العلاقة الأنانية ينكشف على نحو واضح ، في علاقة الرجل بالمرأة . ومن طبيعة هذه العلاقة نستطيع ان نتبين الى اي حد يدرك الانسان ذاته بوصفه انساناً .

« واذ كانت علاقة الرجل بالمرأة أكثر علاقات الانسان بالانسان طبيعية ، يظهر لنا الى اي حد يمكن ان يغدو السلوك الطبيعي عند الانسان ، انسانياً ، والى اي حد اصبح سلوكه الانساني طبيعياً – والى اي مدى اصبحت طبيعته

الانسانية خاصة به، ودالة عليه. كما ان هذا النوع من العلاقات، من شأنه ان يبين الى اي حد اصبحت **حاجات** الانسان ، حاجات انسانية ، والى اي حد اصبح الكائن الانساني **الآخر** L'autre ، بما هو كائن انساني ، حاجة من حاجات الفرد . »

يتمرد هنا كارل ماركس على العادات التقليدية التي تجعل من المرأة « ملكية » يتمتع بها الرجل ، وهذا يعني ان التقاليد تعتبر المرأة شيئاً غير انساني ، فكأن المرأة سلعة ، (ولا ننس ان البغاء ، يجسّد هذه الفكرة) .

وتمرد ماركس ايضاً على تلك النظرية الفجة المبتسرة التي كانت ترى ان الغاء كل نوع من انواع الالتزام والمواثيق بين الرجل والمرأة يضع حدا لجميع ما تعاني المرأة من مآس . لقد طالب ماركس بان تعامل المرأة كما يعامل الكائن الانساني الحر المسؤول ، وان تُحترم وتُحب على هذا النحو .

ولم يمنع موقف ماركس من المرأة اننا لا نزال نقرأ الى اليوم، ولا نزال نسمع ان انصار الاشتراكية العلمية (الماركسيين « الشيوعيين ») يسعون الى « إشاعة » المرأة... الى جعلها مشتركة!...

* * *

هذا على الصعيد « الادنى » ، امّا على الصعيد « الرفيع » فيعتمد خصوم الماركسية حججاً «اعظم قيمة» وان كانت خاطئة

ايضا . والحاملون المتحمسون لا يخشون التناقض في اقوالهم ولا يأبهون له . فهم احياناً يزعمون انهم يقيمون الحجة على ان الماركسية « ليست علماً » ، وانما هي – في رأيهم – مجموعة من موضوعات الدعاوة يستخدمها القادة السياسيون . او انها – في زعمهم – لا تعدو ان تكون اسطورة سياسية او وهماً ايديولوجياً نشأ في القرن التاسع عشر . واحياناً يعترفون للماركسية بطابعها العلمي ، ولكنهم يزعمون ان الحقيقة الانسانية – رغم ذلك – تبلغ من التعقد والتنوع حداً يمنعها من الخضوع لأي نوع من انواع العلم !..

« والرسميون » من علماء الاقتصاد، والتاريخ ، والاجتماع ، والتشريع، بعد ان «تجاهلوا» الماركسية عهداً طويلاً، وتركوها جانباً ، صدفوا عنها في ترفع وكبرياء ، عادوا يكرسون جهودهم في « دحض » الماركسية ، ونقضها ، والتدليل على « بطلانها » !...

ولكن الاحداث انكشفت عن صدق الحجج، بل عن صدق النبوءات الاجتماعية المستمدة من مؤلفات ماركس. ونخص منها بالذكر كل ما له علاقة بالأزمات ، والحروب ، وكل ما تعانيه المجتمعات الحديثة من حشرجة ونزع وعذاب .

ولذلك تغير ، منذ سنوات ، نهج الهجوم على الفكرة الماركسية . فاليوم لا يهتم خصوم الماركسية بالتفنيد والرد على

بعض جوانبها ، ووجوهها ، وانما يهتمون بتخطيها، انهم يريدون تخطي الماركسية ، بل تخطي ماركس ، والذهاب الى ابعد من مذهبه ، وثمة « اشتراكيون » يفوقون كارل ماركس « اشتراكية » وانسانيون اكثر منه « انسانية » ! وثمة من يريد الحرية والتقدم بأفضل مما يريدهما ماركس !... وانما ينشد خصوم الماركسية هذه الأهداف ، دون معونة ماركس !.. يعني ينشدونها ضد ماركس .

هكذا يشوش اخصام الماركسية قضية المجتمع ، ويُضللون من كان يستطيع فهم ماركس ، وقد يمنعونه من المحاولة...

ان اول قاعدة يجب ان يتمشى عليها المرء ، لكي يفهم ماركس ، لهي القاعدة التي نادى بها ديكارت ، يعني القاعدة الاولى في كل منهج علمي : « أَن يُعنى الانسان باجتناب كل نوع من انواع التسرع والاستباق » (خطاب في المنهج – الجزء الثاني) فيجب اجتناب كل المزاعم الشائعة ، والافكار المسبقة ، وحفظ النفس من التسرع في الحكم ، قبل ان يفهم الانسان ، « بوضوح كلي ، ودقة تامة » انه لم يعد ثمة اي سبب للشك في ما نحن بصدده...

ولما كانت الماركسية علما فإنها لا تخشى الطريقة العقلانية للفحص والدراسة . بل ثمة اكثر من هذا : ان الماركسية تطالب بهذه الطريقة .

والمهم ، من ناحية ثانية ، ان لا ننسى ان الماركسية تنادي

بنظرية علمية، نظرية تفسر ما يحدث حولنا ، في حياتنا اليومية؛ وهي تفسر المجتمع الانساني، والواقع الانساني، تفسيراً يستطيع كل انسان ملاحظته وفهمه . ولا يصعب فهم الماركسية على البعض الا اذا ظلوا يأخذون بأفكار وهمية سابقة ؛ فلكي نفهم الماركسية ، يجب التخلي عن بعض الاهام والافكار المسبقة التي استطاعت مخالطة تجارب كل انسان ، اجتماعية كانت ام انسانية . وهذا لا يعني التخلي عن هذه التجارب نفسها ، وانما على العكس ، يكون فهم الماركسية باستعادة هذه التجارب ، والتعمق في مظاهرها واسبابها ، وفهمها ، ورفعها الى مرتبة المعرفة .

٢ - الماركسية والوطن - الماركسية والدين

من اكبر الاخطاء التي يمكن ارتكابها عند محاولتنا تفهم الماركسية ، ان نبدأ بدراستها - عن وعي او عن غير وعي - انطلاقاً وابتداء من بعض الصيغ المحدودة ، التي اصبحت شعبية شائعة ، ويعتبرها الناس في اغلب الاحيان ملخصة للماركسية . وقد تغدو هذه الصيغ ، في بعض الاحيان، شعارات سياسية . وعندئذ يحدث ان يعمد انصار الماركسية ، في غمرة العمل السياسي ، الى الايجاز والتبسيط ، بل الى تحريف معنى هذه الصيغ .

اما خصوم الماركسية فلا يجدون اجمل من هذه المناسبة ،

وانهم لمستعدون جميعـا لاعتبار ماركس من الدعاة السياسيين الغوغائيين الذين اقتصر عملهم على نشر بعض الصيغ ؛ وماركس (في نظر هؤلاء) مجرد عن الفكر الحقيقي ، بلا عقيـدة ، ولا علم ، ولا فلسفة .

وتجب المبادرة ، قبل كل شيء، الى وضع هذه الصيغ الشهيرة في موضعهـا من الاطار الماركسي ؛ وهكذا وحسب تستعيد معناها كله ، هذا المعنى الذي يناقض ، في بعض الاحيان ، معناها الشائع المتداول...

مثلًا : كتب ماركس وانجلز في البيان الشيوعي (١٨٤٧) « ان العمال الكادحين لا وطن لهم . » وقد اراد ماركس وانجلز أن يشيرا بهـذه الكلمة الى أن الطبقة الحـاكمة - البورجوازية - ترفض الاعتراف للطبقة العـاملة بالحيز الذي تستحقه في الوطن. والبورجوازية لا يمكن أن تتخلى للبروليتاريا عن هذا الحيز نظراً لأن البورجوازية تريد السيطرة وامتلاك الوطن كأنه من ملكيتها الخاصة !

كانت هذه النظرية ، سنة ١٨٤٨ ، تتلاءم وتجربة العمال ، وتعبر عن أحد مطـالبهم الملحة . وفي هذا المعنى نفسه كتب اوغست كونت ، قبيل ذلك العهد ، « أن البروليتاريا الحديثة تخيم في الوطن ، كما يخيم البدو الرحل ، في أطراف القرى . »

فإذا أخذنا هذه الكلمة بمعزل عن اطارها ، بد لنا معناهـا

« أن العمال الكادحين لا يريدون (ولا يجب) أن يكون لديهم وطن !... ولقد فُهمت عهداً طويلاً عـــلى هذا النحو ، سواء أكان ذلك من قبل الذين يستوحون الماركسية لتحويلها شطر الفوضوية ، أم من قبل خصوم الماركسية المبتهجين بهذا « الخطأ الماركسي البين »... هذا رغم ان ماركس وانجلز اعتمدا الدقة لبيان معنى هذه الصفة ، فقالا :

« لقد أُخــذ على الشيوعيين انهم يريدون الغـــاء الوطن ، والقومية . ولكنّ العمال الكادحين ، لا وطن لهم : اذن فلا يمكن ان يؤخذ منهم مـــا ليس عندهم ! على الطبقة العاملة ان تستولي على مقاليد الحكم السياسي، وان تنظم نفسها بوصفها طبقة قومية ، فتتكون الامة منها . وعندئذ تكون الطبقة العاملة طبقة قومية ، ولكن على أساس غير بورجوازي... »

ومما يثير الفضول ان اكثر من ثلاثة ارباع القرن مرت قبل ان تتكشف هذه الكلمات– ولو لم نكن في صدد علم اجتماعي، لقلنا : هذه النبؤات – قبل ان تتكشف هذه الكلمات عن صدق عظيم ، وغنى واقعي صحيح . قال ماركس وانجلز ان على البروليتاريا الصناعية ، والشعب ، عـلى هذا المجموع من الشغيلة (في سبيل التحرر ، ودفع الكل الاجتماعي الى الامام) ان يصارع لكسب قوميته ، كما ان عليه النضـــال لكسب « الديموقراطية » (راجع البيان الشيوعي)

اذن فواجب الطبقة الصاعدة ، التقدمية ، ان لا تتأثر بمفهوم القومية البورجوازية، وان لا تتقيد بعهد الامانة لمفهوم رأسمالي، عن الوطن، وللمؤسسات التي تمثله، كما ان واجب الطبقة الصاعدة ان لا تهمل القومية . وانما عليها ان تستولي على القومية، وتنظم نفسها في امة ، ووطن ، وذلك بتجديد القومية تجديداً عميقاً . وهذا يعني تماماً عكس ما اراد خصوم ماركس وانجلز ان يُقَوِّلوهما ، حين نسبوا اليهما نفي مبدأ الوطن ، والامة ، نفياً جافياً .

ومن جهة ثانية ، يلح ماركس وانجلز في بيان هذا الواقع، وهو ان الممثلين السياسيين للطبقات التقدمية ، بتخطيهم وجهة نظر القومية البورجوازية الضيقة ، انما يتخذون موقفاً من جميع القضايا الاممية ، ويكون موقفهم، من جميع هذه القضايا ، موقفاً تقدمياً ايضاً .

والديموقراطيون الحقيقيون، الممثلون الحقيقيون للبروليتاريا، في مختلف البلدان ، سوف يجدون حتماً انهم متفقون في اعتماد سياسة عالمية عظمى تقوم على دعائم من الديموقراطية والتقدم . فبين عمال مختلف البلدان ، الذين يعون رسالتهم ومستقبلهم، لا يمكن ان يوجد اي سبب عميق دائم من اسباب النزاع ، لا لانهم يزيلون الحدود في ما بينهم، ازالة سريعة مفاجئة، سطحية، بل لانهم يطورون المبادلات المادية والفكرية بين الشعوب ،

تطويراً عظيما ، **ولا سيما انهم لا يهدفون ولا يمكن ان يهدفوا الى السيطرة على شعوب اخرى** . « ان عملاً مشتركاً تقوم به، على الاقل، الشعوب السباقة في مضمار التمدن، لهو احد الشروط في تحرر البروليتاريا ، وبمقدار ما يلغى استثمار الفرد من قِبَل فرد آخر ، يلغى ، كذلك ، استثمار امة من قبل امة اخرى. وبزوال تنازع الطبقات داخل الامة ، تزول ايضاً الضغائن المتبادلة بين الامم . » (البيان الشيوعي) .

هكذا يبين ماركس وانجلز كيف ترتبط – حتماً – قومية العمال ، بسياسة اممية واضحة محدودة ، تهدف الى تحرر الامم جميعاً ، والعمال جميعاً ، وتناضل على الصعيد العالمي ضد المضطهِدين ، امـا القومية البورجوازية ، فلا تتلاءم في الواقع وسياسة عالمية عظيمة حقاً . فالبورجوازية التي تضطهد الشعب ، في كل بلدان العالم ، وتستثير الصراع ضدهـا ، تنقسم الى بورجوازيات وطنية يقاتل بعضها بعضاً ، ويستخدم بعضها بعضاً في مؤآمرات دنيئة .

ومهما يكن من امر ، فعلى هذا النحو ، بالضبط ، تكون البورجوازية طبقة متقلصة، مشرفة على التدهور والزوال ، تقضي على نفسها بنفسها .

ولنأخذ مثلاً آخر عن صيغة ماركسية مبسطة، ذائعة في الناس، علينا البحث عن معناها الحقيقي دون ان نفصلها عن اطارها:

كتب ماركس في احد مؤلفاته الاولى « المساهمة في نقد

فلسفة الحقوق عند هيجل » : « ان الدين افيون الشعب » .

من الشائع ان هذه الصيغة تعني ، عن لسان ماركس ، ان الشعب يثمل بالدين، كما يثمل الانسان بالخمرة، لكي ينسى متاعبه

وان الشعب يُسقىَ هذا **المهيّج** ، لكي ينسى مطالبه ، ودوره السياسي العظيم .

لا شك في ان هذا التفسير يتلاءم مع فكرة ماركس. غير ان هذه الفكرة ارفع مدلولاً ، واكثر دقة . ولنعد الى قراءة الصفحة كلها :

« الانسان يصنع الدين ، وليس الدين يصنع الانسان . الدين وعي الانسان ذاته: إما حين لم يكن قد وجد ذاته بعدُ، وإما إثر فقده هذه الذات . والانسان، هو عالم الانسان، الدولة والمجتمع . هذه الدولة ، وهذا المجتمع ينتجان الدين ، وهو وعي مزور عن العالم ، لأنه يصدر عن عالم مزور ، والدين هو النظرية العامة لذلك العالم ، ودائرة معارفه ، ومنطقه الشعبي ، ومفخرته الفكرية والروحية، ومجال حماسته ، والبراءة التي ترضي حسه المعنوي الاخلاقي ، وشيء جليل يكمل ما يحسه من نقص، وموضوعه الدائم الذي يجد فيه العزاء والتبرير...

«ان البؤس الديني لهو التعبير عن البؤس الواقعي،والاحتجاج على هذا البؤس الواقعي ، في وقت معاً . الدين زفرة الكائن المثقل بالألم ، وروح عالم لم تبق فيه روح ، وفكر عالم لم يبق فيه فكر... **انه افيون الشعب**... إذن فنقد الدين هو الخطوة

الاولى لنقد هذا « الوادي الغارق في الدموع » حيث يركز الدين هالته . ان النقد ينتزع الازهار الوهمية التي كانت تغطي اغلال الانسان ، وذلك لا ليحمل اغلالاً عاطلة من الازهار والاحلام، وانما ليلقي عنه اغلاله، ويقطف الزهرة الحقيقية الحية. النقد ينزع الغشاوة عن عيني الانسان ، لكي يفكر ، ويعمل ، ويكيف حقيقته ، كما يجدر بإنسان بلغ سن الرشد... »

يدل مجمل هذه الصفحة ، بوضوح ، على ان الدين في نظر ماركس لا يتضاءل فيقتصر على « تحمس» فكري فظ... وهو لا يأخذ على الدين افتقاره الى الجمال، وانما يأخذ عليه انه يضيف الى الحياة جمالاً موهوماً ، من شأنه ان يخلف الحياة الحقيقية في قبحها فلا يغيرها . وهو لا يأخذ على الدين افتقاره الى الروح والفكر ، وانما يأخذ عليه انه ليس الا روحاً وفكراً – روح عالم بلا روح ، وفكر عالم بلا فكر – وأنّ الدين يحول الانسان عن نفسه باخفاء اغلال الانسان تحت الازهار. وكيف لا يتنهد « المخلوق الرازح في آلامه » متضرعاً الى السماء ؟

اذن فليس ثمة اي علاقة للماركسية بالنزعة المناهضة لرجال الدين. والماركسية لا تهدف الى اضطهاد الدين، بل على العكس! هكذا حين اراد انجلز شرح فكرة ماركس ، فانه اخذ على حركة الكومونة الفرنسية (سنة ١٨٧١) انها ارادت الغاء الدين... لقد اقترح بعض قادة الكومونة **(وهؤلاء هم البلانكيون لا الماركسيون)** تشريعاً بهذا المعنى . وانجلز يسخر

من هذه الطريقة الراميـة » الى اصدار فتوى تحمل النـاس على الالحاد...» وانجلز يلاحظ: اولاً ـ « من اسهل الاشياء اصدار الاوامر على الورق دون ان تنفذ هذه الاوامر..» وثانياً ـ« ان عمليات الاضطهاد من افضل الوسائل لتدعيم العقائد..» (انجلز ـ ملاحظات في منهج اللاجئين البلانكيين ١٨٤٧) . ومن ناحية ثانية ، اقر ماركس وانجلز ، بلا تحفظ ، التدابير الديموقراطية التي اتخذتهـا الكومونـة ، ولا سيما فصل الكنيسة عن الدولة ، واستقلال التعليم عن الدين . ولقد اشار انجلز الى انه في الثـاني من نيسان ١٨٧١ « أُقرَّ فصل الكنيسة عن الدولة ، والغيت « موازنة العبادات » وأُممت املاك الكهنوت . وفي الثامن من نيسان، قرر رجال الكومونة نزع الرموز الدينية من المدارس، والغاء كل ما له علاقة باقتناع الفرد وايمانه الذاتي الخاص...

هكذا انحصر عمل **الكومونة**، من هذه الجهة، في اصلاحات اهملتها البورجوازية الجمهورية، ولكنها اضحت ضرورية لانطلاق البروليتاريا انطلاقاً حراً...

ونضرب مثلًا لذلك التدابير التي ترتكز على مبدأ ان «الدين شيء فردي خاص » (مقدمة كتبت في الثامن من آذار ١٨٩٥ لكتاب الحرب الاهلية في فرنسة ـ تأليف كارل ماركس)

وماركس نفسه يكتب ، في هـذا المؤلف ، فيبدي موافقته ، ملاحظاً بأن التدابير التي اتخذتهـا حكومة الكومونة اكتفت بهدم ما للكنيسة من سلطة **سياسية** ، كانت ، ومـا

تزال ، رجعية : « سرّح الكهنة ، فعادوا يحيون حياة خاصة ، على هبات المؤمنين ، كما كان يعيش اسلافهم الرسل . وتحررت مؤسسات التعليم من كل تدخل كنسي، او حكومي ، وفتحت ابوابها لابناء الشعب مجاناً . هكذا اصبحت الثقافة في متناول الجميع ، والعلم نفسه تحرر مما كان يعترضه من عقبات . »

ولندقق ايضاً في تحديد فكرة ماركس عن هذه النقطة المهمة التي لا تزال مثاراً للجدل. وهو يقول : «يجب **نقد** الدين، بل ان هذا النقد هو الشرط الاول لكل نقد.. » فكيف ننقده ؟ ننقده بتفسيره ، وبالرجوع الى التاريخ لكي نرى كيف ولماذا بحث «الكائن المضطهَد» عن عزاء له في ما وراء الطبيعة... وتحليل الشروط الواقعية للحياة الانسانية، يفسر لنا كيف اطلق الانسان على غيوم الغيب الخيالية ، صورته الخاصة ، وما يعتلج في نفسه من مشاغل وهموم ، فبدت مضخمة مثالية. ذلك لان الوعي لا يحدد الحياة ، وانما الحياة هي التي تحدد الوعي . » (ماركس وانجلز في كتاب الايديولوجية الالمانية ١٨٤٥) ولكن تحليل شروط الحياة واوضاعها الواقعية ليس شيئاً سهلاً. فالانسان يحيا خاضعاً لظروف معقدة مركبة : بيولوجية (الجنس) وجغرافية (المناخ والارض ، والمنتجات الطبيعية) وظروف تقنية (الادوات والآلات) واقتصادية واجتماعية (طريقة استخدام الادوات ، نمط التعاون، العلاقات الاجتماعية) وظروف تاريخية وتشريعية وسياسية (المؤسسات ، شكل

الدولة ، الاحداث والوقائع الخ ...) ولذا كان من الصعب استنتاج الروابط التي تتيح لنا نسبة الاشكال الدينية الى ظروف الحياة وشروط المعيشة . وعلى الرغم من ذلك « فهذه الطريقة هي وحدها الطريقة العلمية » (ماركس ـ رأس المال ـ الجزء الثالث ، الصفحة ٩ ، الترجمة الفرنسية ، موليتور) .

وهذا العلم يتطلب عملاً طويل النفس ، ومؤلفات تستغرق كتابتها زمناً طويلاً؛ وسوف يبقى الدين (ونتحدث هنا عن الدين اجمالاً ، لا عن المسيحية او الكاثوليكية ، بخاصة » محتفظاً ببعض الهيبة والنفوذ ، الى ان يهل يوم تصبح فيه ظروف معيشة الانسان ، العملية واليومية ، علاقات قائمة على اساس عقلي » . ذلك لان الحياة الاجتماعية كلها « لا تتجرد من نقابها الصوفي الغامض ، الا يوم تتجلى في جملتها نتاج ناس احرار ، تشاركوا على نحو حر ، يقومون برقابة متبادلة واعية ، وفقاً لتصميم ... » (رأس المال ــ الجزء الاول ص ٦٦ ــ ٦٧) .

ويترتب على هذا ان للدين اساساً عميقاً اولاً في حاجة الكائن المضطهَد الى العزاء ، والفكر ، والروح ، والجمال ، وهو الكائن الذي حُرم الحياة ، والفكر والجمال؛ ثم في ما يعترض الكائن من عجز وجهل ازاء حياته الاجتماعية الخاصة . الاضطهاد ، والاستثمار ـ العجز والجهل ... هذا هو المصدر المزدوج للاخلاق والدين ، في رأي ماركس .

ويجب ان لا يهدف الماركسي الى اضطهاد الدين ، وانما الى

تغيير الحال التي تتخبط فيها الكائنات البشرية : يجب معرفة « السر » الاجتماعي ، وتفسيره للناس ، وتطوير هذا المجتمع ، والغاء العوامل التي يرزح فيها المخلوق » ...

وثمة ملاحظتان ايضاً في هذا الموضوع. فهذه النظرية الماركسية هي ، فعلاً ، وعلى وجه التقريب ، النظرية التي يقرها كثير من « المفكرين » الدينيين ، الذين يعتقدون بان ما يرزح فيه الكائن البشري من بؤس وعجز يبرران وجود الدين ، انما هو واقع ابدي نهائي ، لا رادّ له. وهم يعتقدون ان حالة الانسان هذه المؤلمة ترتبط ارتباطاً حتمياً « بانحطاطه » وانحرافه عن جوهره ، « وسقوطه من الفردوس »... « وبخطيئته الاصلية » وهذا ما لا يؤمن به ماركس ولا الماركسيون .

حين ينتقد فيلسوف مثل نيتشه المسيحية ، بعبارات تشبه عبارات ماركس في اكثر الاحيان ، فيطلق بلسان زارادشت هذا الشعار « ارفضوا العزاء والسلوان!... » لا يأبى عليه رجال الدين لقب المفكر الكبير . اما ماركس ، فقد رفض «المفكرون» الدينيون، وما يزالون يرفضون في اكثر الاحيان، الاعتراف له بصفة العبقرية الفكرية والفلسفية . لماذا ؟

في الحياة العملية، وعلى الصعيد السياسي ، يكتفي الماركسيون بالمطالبة بأن تكف الكنيسة عن كونها قوة سياسية رجعية . اليس هذا المطلب كافياً للكشف عن سر النزاع ؟

٣ – علم وعمل

... وسوف نبدد وهماً آخر ، و « فكرة مسبقة » وهمية ، قبل ان نعمد الى دراسة الماركسية في ذاتها ، وفي جملتها .

لا جدال في ان للماركسية علاقة بالعمل ، **بالعمل السياسي.** ولما كانت عقيدة العمل ، فانها تمتنع ، بخاصة ، عن ان تكون فكرة غير مجدية ولا فاعلة ، وعن ان تكون تجريداً عقيماً . « اقتصر الفلاسفة على تفسير الكون تفسيرات مختلفة . اما اليوم، فان القضية هي تغيير هذا العالم ... » (اطروحة عن فيورباخ – الفصل الحادي عشر) ، وافضل اتباع ماركس ، الذين واصلوا رسالته وكملوها، كانوا يشيرون دوماً الى واقع يتلخص في ان «الماركسية دليل للعمل .» وهذا لا يستقيم في الاذهان دون ان يثير بعض المسائل التي تفضي احياناً الى الضلال ، وتحول دون فهم الماركسية ؛ مثلاً ، كيف يمكن ان تكون عقيدة أُعدت للعمل – وللعمل السياسي – **عقيدةً علمية** ؟ ! افلا يتحتم عليها ، والحالة هذه ، ان تكون عقيدة «مُغْرِضة » ذات ميول خاصة، واتجاهات خاصة ؟ افلا تحصر ذاتها بموقف متحيز ؟ افلا تكون في افضل حالاتها ، « اداة » من ادوات العمل السياسي ، « ووجهة نظر » او مجموعة من « القيم » السياسية – بل اسطورة حديثة، او وهماً ؟ الخ ...

فلنبادر فوراً الى الملاحظة بأننا ، ما أن نتخلى عن الموقف العلمي – وهو التأكيد بأن الماركسية تحتوي على علم اجتماع

علمي sociologie scientifique – حتى ننزلق بلا شعور، على المنحدر المؤدي الى نظرية «الماركسية ـ الاسطورة» «الماركسية ـ الوهم» واخيراً تُقدّم الماركسية على انها « من ابتكار المحركين السياسيين ، ومستثمري الشعب !... »

وهذه المسألة تتصل بالعلاقات الحقيقية بين النظرية والتطبيق، بين الفكر والعمل .

لا يعجب احد اذا استخدمت نظرية فيزيائية ، او قانون كيمياوي ، او بيولوجي ، في الصناعة ، ووجدت فيها فائدة تطبيقية ؛ هذا امر يبدو طبيعياً جداً . فلماذا لا يكون الامر كذلك في ما يتصل بالحقل التاريخي او الاجتماعي؟ فإما ان يكون هذا الحقل خاضعاً للعلم ، واما ان لا يكون. وعلى كل حال ، فإن كان ثمة علم للتاريخ، وللمجتمع، فيجب ان يستخدم في الحياة التطبيقية العملية ، ولكن ماذا تستطيع ان تكون تطبيقات علم كهذا ؟ على هذا العلم ان يقدم لنا توجيهات تطبيقية عملية لقيادة المجتمع ، وهذا يعني ان تطبيقات هذا العلم **انما هي سياسية** . فإن كان ثمة علم اجتماع علمي Sociologie Scientifique فإنه يشمل السياسة ، والسياسة تغدو هي نفسها علمية (واذا قلنا « علم » فلا يعني اننا نقول : العصمة عن الخطأ ، واليقين المطلق ، والتنبؤ بالنتائج ، على نحو دقيق كامل ، والقدرة الخارقة العجيبة على خلق الشروط للنتائج !)

ومن ناحية عامة ، يقال ان الفكر العلمي ، والبحث عن

الحقيقة يجب ان « **يتجردوا عن المنفعة** » . ويترتب على هذا – في زعمهم – انه حيث توجد المنفعة (سياسية ام غير سياسية) فلا يمكن ان يكون ثمة علم، ولا ان يكون ثمة موضوعية للفكر. لان هذا الفكر الهادف الى التطبيق ، يكون آنئذ ، حتماً ، فكراً مغرضاً ، متحيزاً ، منحرفاً عن الحقيقة الموضوعية ، بما يتضمن من منفعة وهوى...

من السهل الرد على هذا الاعتراض حين نميز النشاط العلمي على الصعيد الفردي (نشاط الفرد الباحث ، او المخترع) من العلم في مجموعه . فيمكن ان يكون البحث ، بل يجب ان يكون البحث ، بالنسبة الى العالم الفرد ، منزهاً عن المنفعة ، خالصاً لوجه العلم والحقيقة . وحياة كارل ماركس اصدق دليل على هذه الحقيقة ، وشأنها في هذا شأن حياة ديكارت وباستور . ولكن، هل يمكن ان يكون العلم ، في جملته، غير ذي منفعة ؟ فلو كان العلم ، من وجهة النظر العامة ، الشاملة ، غير نافع ، لكانت الانسانية تخلت عنه منذ زمن طويل ! ولا يمكن ان تنفصل الحقيقة عن التطبيق العملي التقني Technique . ولا جدال في ان العلم ينشد الحقيقة . ولا يمكن البتة ان نعرف ، مسبقاً ، أي بحث ، ولا اي قانون ، او اي نظرية ، ستحظى بالتطبيق الفني التقني الاكثر فائدة . لذلك وجب على كل انسان ان يعمد الى دراسة العلم مستخدماً عقله للوصول الى الحقيقة ، ولكن طبيعة الحقيقة العلمية لا تفسد لانها تخدم – لانها تفيد –

لانها ليست عقيمة ، بل العكس هو الصحيح . فاذا تبين ان فرعاً من فروع المعرفة عقيم ، ولم يأت بأي فائدة ، ضمر ومات . والتطبيق العلمي « يراجع » النظرية ، ليرى صوابها ، وذلك دون ان ينزع عن النظرية طابعها في البحث عن الحقيقة. ولأن المعرفة العلمية ، الجديرة بهذا الاسم ، موضوعية حقيقية ، نراها تفيد عند تطبيقها . ولان المعرفة العلمية تمثل ، في نظر الانسانية ، **فائدة** كبرى نرى بعض الافراد — العلماء — يصلون احياناً الى حد التضحية بأنفسهم ، صادفين عن كل فائدة شخصية » فالحقيقة ، والمنفعة ، والفائدة ، والتضحية ، مفاهيم لا تتناقض الا في الفكر التجريدي .

هذا ، بالضبط ، هو وضع علم الاجتماع العلمي المنبثق عن الماركسية . وهو علم صدر عن بحث موضوعي، منزه عن الغاية الخاصة ، ولكنه افضى ، رغم ذلك ، الى « فوائد » و «منافع» وهو يتضمن هذه المنافع وتلك الفوائد ، كما يعبر عنها ايضاً ؛ ولكن هذه المنافع السياسية تتخطى، الى ما لا نهاية له، مصالح الافراد ، بل مصالح الجماعات المحدودة .

ولكن قد يلح البعض في الجدال، فيقولون : « لا يمكن الخلط بين علم الاجتماع وعلم الطبيعة !... وواضح انه لو صدف جميع الناس عن علم الطبيعة ، الا واحداً ، لكان يعمل هذا الواحد لخدمة الانسانية كلها . وعلى العكس نجد علم الاجتماع الماركسي يستخلص من دراسته نتائج تجيء في صالح العمال .

والسياسة الماركسية انما هي سياسة طبقة معينة ، مركزة ، على نحو خاص ، حول الطبقة العاملة ؛ وهي تعبر عن مصالح العمال وتدافع عنها . فهي - اذن - عقيدة طبقة . وهي تتخذ وجهة النظر الطبقيـــة . فكيف يمكن ان تكون موضوعية ، غير متحيزة ؟». اجاب ماركس عن هذه «الحجة» في اثر من اوائل آثاره فقال : «ان تحرر الطبقة المضطهدة يترتب عليه خلق مجتمع جديد... وشرط تحرر الطبقة العاملة انمـا يتوقف على الغاء كل مبدأطبقي ، كما ان شرط تحرر طبقة الشعب (الـ Tiers-état) كان يتوقف على الغـــاء جميع الطبقات (في النظـام القديم : الاشراف، والكهنوت ، وطبقة الشعب Tiers-état) (ماركس بؤس الفلسفة) وكان ماركس وانجلز قد سبق لهما ان بينا (في كتابهما «الايديولوجية الالمانية») ان الطبقة الجديدة، الصاعدة، المعدة لتطوير المجتمع الجديد « تتجلى بوصفها ممثلة المجتمع كله . » ان الطبقة العاملة تحمل في ذاتها مستقبل الانسانية . لذلك كانت هذه الطبقة تنشد ، مع ممثليها ، وعلمائها ، وفنييهـــا ، الحقيقة الكونية الشاملة ، وليس هذا « رغم » انهم يمثلون آمالهـــا ، واتجاهاتها ومصالحها ، وعملها الخاص بها ، وانما **لانهم** يمثلون هذه القضايا كلها .

والبورجوازية ، والبورجوازية الصغيرة ، حين نهضتـا ضد الاقطاعيين ، وقامتا بثورة ١٧٨٩ - ١٧٩٣ ، انما تحركتا بهذه الاتجاهات والآمال . **في ذلك الزمن** ، كانت مزاعمهما صحيحة ،

وكانتا تمثلان بالفعل تقدم المجتمع بكامله : فالتقدم الاقتصادي والاجتماعي والعلمي ايضاً . وكان نظريو البورجوازية (الانسيكلوبيديون مثلاً) يدافعون عن « العقل » و « العلم » ، وكانوا ، بالفعل ، روّاد الحقيقة ، والموضوعية ، والشمول . صحيح ان هؤلاء النظريين ، من فلاسفة وعلماء ، ظنوا انهم بلغوا نهائياً حدود العقل والمعرفة والشمول ، وبهذا اوهموا انفسهم بأنفسهم ، حين اوقفوا عمل الفكر والمعرفة عند حدود افكارهم ، التي كانت افكاراً محدودة ، بسبب من انها افكار زمنهم ، يعني افكار طبقتهم — وبسبب من ان هذه الطبقة الاجتماعية لم تكن تعد نفسها لالغاء الطبقات ، وانما لتصبح هي نفسها طبقة جديدة حاكمة . وكان الانسيكلوبيديون ، ممثلو البورجوازية ، والبورجوازية الصغيرة ، يضفون على افكارهم « شكل الشمول » ، ويقتصرون على الشكل .

وكان هذا الشكل مفضياً بهم الى احداث معينة : الى صراعهم مع الدولة الملكية الاستبدادية وتقاليدها ، والى امتداد العلاقات العالمية خلال القرن الثامن عشر ، والى تقرير امر واقع ، وهو ان طبقة الشعب هي اكثر عدداً من الاشراف الاقطاعيين — واخيراً الى « اوهام الايديولوجيين » الذين كانوا يدركون افكار عصرهم دون ان يدركوا ما بين هذه الافكار وبين عصرهم من صلة ؛ وترتب على هذا ظنهم انهم بلغوا حقائق خالدة (راجع « الايديولوجية الالمانية » المؤلفات الفلسفية كارل

ماركس الجزء الرابع ص ١٩٥ – ١٩٦) **ولكن الوضع تغير، منذ ذلك الحين حتى اليوم**. فطبقة الشعب البورجوازية (وكان مفكروهـــا في القرن الثامن عشر يعتقدون انهم بلغوا حقائق **انسانية** ، كونية ، شاملة ، نهائية .) هذه البورجوازية الصغيرة كشفت ، في ما بعد ، عن طبيعتها الطبقية بوصفها طبقة مسيطرة حاكمة ، ثم عن انهيارها وزوال سلطانها...

وقد تم هذا الكشف عن طبيعتها ، ببطء ، في الحياة العملية التطبيقية وفي الحياة السياسية، كما تم هذا في حقلي الفلسفة والادب.

ويجب، كما يقول ماركس (حتى لو بلغنا المرحلة الزمنية التي يستبين فيهـــا هـذا التطور في وعي البورجوازية الصغيرة وافكارها)– «يجب ان لا نكوّن في اذهاننا هذه الفكرة الضيقة القائلة بأن من مبدأ البورجوازية الصغيرة ان تنصر مصلحتهـــا الطبقية الانانية . بل انهـا تعتقد ، على العكس ، ان الشروط الخاصة لتحررها هي الشروط العامة التي تسمح هي وحدها بانقاذ المجتمع ، واجتناب صراع الطبقات . كما ان علينا ان لا نتخيل ان لممثلي البورجوازية الصغيرة عقلية اصحـــاب الحوانيت ، اذ يمكن فصل اولئك عن اصحاب الحوانيت ، ببون شاسع يرجع الى ثقافة ممثلي البورجوازية الصغيرة . والذي يجعل منهم « **ممثلي البورجوازية الصغيرة** » ويجعلهم جديرين بهذه الصفة ، هو انهم لا يستطيعون أن يتخطوا ، فكرياً ، الحدود التي لا تستطيع البورجوازية الصغيرة تخطيها في حياتها المادية : انهم مدفوعون

نظرياً نحو المسائل والحلول التي تندفع اليها البورجوازية الصغيرة – عملياً وتطبيقياً – بدافع من مصالحها المادية ، ووضعها الاجتماعي...» (كارل ماركس – ١٨ برومار لويس بونابرت – « المنشورات الاجتماعية » الجزء الاول – ص ٥٧ – صدر سنة ١٩٢٨).

ان **حدود** عهد من العهود – أي : طبقة من الطبقات – هي التي تفسر ما يقيد الافكار من حدود ، اكثر مما تفسرها « انانية » متعمدة ، او « كذب طبقي » . ليس ثمة «حقيقة طبقية » . بل هناك فقط **الحقيقة** ، **والمعرفة الموضوعية** ، التي يبلغها التفكير البشري بعد سلسلة متوالية من عمليات التحسس والتقريب بين الاجزاء والعناصر ! ودرجة التقريب انما يحددها الزمان ، والمكان ، والطبقة المسيطرة ، وحدودها الاجتماعية . وتظل المعرفة الموضوعية والحقيقة، ناقصتين **مجردتين**، **جانبيتين**، ما بقيت الطبقة الحاكمة المسيطرة، لا تهدف ، تاريخياً ، الى غير الاهداف المحدودة ، وما بقيت مقتصرة على آمال واهداف ضيقة . اما الطبقة العاملة المعاصرة ، فلا تريد ان تصبح طبقة حاكمة مسيطرة جديدة ، وانما تهدف الى تخطي تركيب المجتمع الطبقي ، والغاء الطبقية؛ ولذلك هي تتخطى حدود هذا المجتمع. والطبقة العاملة قادرة ، بمعونة مفكريها – وماركس نفسه اولهم – على قفزة الى الامام في تفهم المجتمع .

ومن ناحية ثانية ، انه حين **تميل** طبقة اجتماعية الى الزوال ،

وتشرف على الانهيار ، تتحول علاقتهـــا بالحقيقة والموضوعية وتنحرف: هكذا اكتشف علم الاقتصاد السياسي وهو في مطلع ايامه – زمن سميث وريكاردو – اقول اكتشف، في أطر المجتمع الرأسمالي، عدداً معيناً من الحقائق، فنادى بها، دون ان ينقدها، ودون ان يحللها تحليلاً كاملاً. عرض هؤلاء الاقتصاديون الكبار « تشريح » المجتمع البورجوازي ، ولكنهم لم يبلغوا علم وظائفه وفيزيولوجيته ؛ انهم لم يكشفوا عن العمل الحقيقي لوظـــائفه « راجع رسالة كارل ماركس الى وايدمير) .

ولكن بعد ذلك بزمن « دق صراع الطبقـــات الاجراس مؤذناً بنهاية الاقتصـــاد البورجوازي « العلمي » ؛ فلم يعد يهتم بمعرفة كون هذا الحدث صحيحاً ، او ذاك ، وانمـــا يتساءل هل هو مفيد لرأس المـــال او مضر به ، ملائم او غير ملائم ، مدمر او غير مدمر . وحلت الحملات القلمية المأجورة محل البحث المنزه عن الهوى ، وحل الادراك الشرير والنيـــات المغلفة بالخرافات ، محل البحث العلمي البريء (مقدمة الطبعة الثانية من كتاب « رأس المال ») .

ومن النـاحيه المقابلة ، نرى ممثلي الطبقة العاملة ومفكريها يهدفون ، على العكس، **الى المزيد من الحقيقة** . وهم يتخطون، تدريجاً ، حدود ثقافة الطبقة السائدة ، ويتخطون فكرها ، ولا يتم لهم ذلك بلحظة وحي مفاجيء ، او لانهم « عمال ... » وانما ببذلهم مجهوداً فكرياً عظيماً ، وهضم جملة الثقافة التي بلغتهـــا

الطبقة المسيطرة ، وتخطيهم هذه الثقافة ، وهم قادرون على تخطيها فعلاً لانهم مطلعون على حقائق واحداث وتجارب لا يبلغهـــا « المفكرون » الآخرون . وفي بحث العمال عن حقيقتهم العلمية ، بوساطة عمليات التحسس المتوالية ، يبلغون درجة عليا من المعرفة. انهم اجتازوا ، بخاصة ، **مرحلة « الطوباوية »** L'utopie .

والاشتراكيون، والشيوعيون هم مفكرو البروليتاريا، وواضعو نظرياتها . ومـا دامت الطبقة العاملة غير متطورة تطوراً كافيـاً يسمح لها بالتكتل في طبقة ، وما دام صراعها ضد البورجوازية لم يكتسب ، بعد ، الطابع السياسي ، وما دامت القوى المنتجة لم تتطور بعد تطورها الكافي داخل المجتمع البورجوازي نفسه ، مؤذنة باستكمال الشروط الضرورية لتحرر البروليتاريا وتكوين مجتمع جديد — اقول، مـــا دام الامر كذلك ، فالمفكرون العماليون يظلون في نطاق الخيال والطوباوية . انهم يستجيبون لآمال الطبقات المضطهدة ، ورغباتها ، فيرتجلون نظماً فكرية « ومذاهب اجتماعية صالحة » ويريدون تحقيق نوع من الاصلاح النظري . ولكن الايام تمر ، فيتضح صراع الطبقة العـــاملة ، ويبرز ، وعندئذ لا تبقى ثمة حاجة لاستخراج العلم من الآمال ، ولا يبقى على المفكرين العماليين الا الالتفات الى ما يجري تحت أعينهم ، والتعبير عنه... ومنذ هذه اللحظة يكف العلم المنبثق عن الحركة التـــاريخية [والمشارك في هذه الحركة مشاركة واعية] ، عن كونه علماً نظرياً مذهبياً ، ويغدو علمـــاً ثورياً

(ماركس ـ بؤس الفلسفة ـ الفصل الثاني ـ الملاحظات الاولى، والسابعة، والاخيرة). وهؤلاء المفكرون (من امثال ماركس وانجلز) لا يزعمون انهم بلغوا حقائق مطلقة، خالدة . فلو كان هذا الزعم ، لما كان له اي علاقة بالعلم .

فالعلم ، كل علم ، يتقدم مكتسباً حقائق جديدة . وهذا بالضبط ، ما يشير اليه، في صدد الماركسية، ماركس، ومكملو طريقته ، ذلك لان الماركسية هي ، من حيث الجوهر ، علم المجتمع والتاريخ (رغم ان الماركسية لا تكتفي ، كما سوف نرى في الصفحات التالية ، بحدود هذا العلم)

كانت البورجوازية ، في كل الازمان ، عاجزة ، وغدت عاجزة اكثر فأكثر ، عن **تأسيس علم التاريخ ، والمجتمع ، والانسان** . ولقد حظرت عليها ذلك حدودها التاريخية . وكان هدفها الاكبر — وما زال — اكتشاف اسرار الطبيعة المادية واستخدامها في الصناعة . ولقد نظرت الى هذا الاستخدام من وجهة النظر الضيقة التي تضمن لها الكسب ، وحسب . ومن ناحية ثانية ، اصبحت عاجزة عن ان تستخدم — سلمياً — اكتشافاتها العلمية التي تمت داخل أُطرها البورجوازية . (مثلاً : قضية الطاقة الذرية ، ووضعها اليوم) ويجب ان نعترف ، بعد هذه التحفظات الضرورية ، بأن البورجوازية — في عهدها وثقافتها — طورت علم الطبيعة تطويراً عظيماً . وعلى العكس ، **نرى ان كل ما يدور في نطاق معرفة الانسان ، واكتشاف**

حقائقه ما يزال متأخرا ، سواء اتحدثنا عن الطب ، ام علم الصحة ، ام التربية ام الاجتماع ام التـــاريخ ، ام النفس . والسبب الاول في ذلـك ، ينحصر في **الحدود** التي تقيد عهد البورجوازية . واذا استثنينا بعض الباحثين المنعزلين ، رأينا ان انسان هذا العهد لم يهتم بالانسان اهتماماً عميقاً . ولقد «دُرست» قضايا الانسان درساً سيئاً — اذا صح التعبير — وفُهمت فهمـاً سطحياً . فمعرفة الانسان لم تكن تعود **بجدوى مادية** . ولكن حين يتبين ان هذه المعرفة يمكن ان تدر بعض الفائدة ، كانت الشعوذة تحل محلها، بأكلاف اقل... ولكن ليس هذا كل شيء. فـإن صح ان تفهّم التركيب الاجتماعي يترتب عليه وصف هذا التركيب وتفسير الطبقـــات الاجتماعية ، وان صح ان معرفة واقـع المجتمع يترتب عليها معرفة ما يعانيه معظم الناس ، من الاضطهـــاد والاستثمار ، على يد نفر ضئيل — ادركنا بوضوح عظيم كيف ان الطبقة الحاكمة كان لهـا دوماً مصلحة (مصلحة حيوية) في القاء ستر على هذه الاحداث الواقعية ، واعتبارهـا غير جديرة بالعلم ، او اخفائها تحت مجموعة من النظريات الخاطئة. فالمضطهَدون التائقون الى التحرر، لهم وحدهم « مصلحة » حيوية في ازاحة ستر الاوهام والاكاذيب عن مجتمع كهذا . ولمـــا كانوا يحملون على عواتقهم مستقبل المجتمع كله ، فنحن نستطيع ان نفهم كيف تلتقي مصلحتهم العميقة ، المستمرة ، بالحقيقة

وتنسجم معها ، فللمضطهَدين مصلحة عميقة مستمرة في الكشف عن هذه الحقيقة ونشرها .

والماركسية، بوصفها علم اجتماع له صفة العلم، تدرس الاحداث الاجتماعية الواقعية ، والتجارب الاجتماعية، وتحاول فهمها. وكما يفعل العلم ، تدرس الماركسية **حركة** هذه التجارب ، وتلك الاحداث . وبمقدار ما تتيح لها معرفة الاحداث ، تسمح ببعض النبوءات . وكما يحدث في علم الطبيعة ، يمكن ان تفيد هذه المعارف وهذه النبوءات في حقل التطبيق العملي . وكما يصبح عالم الفيزياء مهندساً لقوى الطبيعة ، يصبح العالم الاجتماعي الماركسي ، **مهندساً للقوى الاجتماعية** . ولا يعني هذا مطلقاً ، في العمل الاجتماعي ام في السيطرة على قوى الطبيعة ، ادعاءنا العصمة عن الخطأ ، او القدرة اللامتناهية . فالاحداث معقدة التركيب . وقد تجيء حساباتنا ناقصة او خاطئة ؛ والتجربة ، [يعني التطبيق العملي] تظل هي المقياس النقدي، والحكم الفصل. وهكذا فالمعارف النظرية تميل الى ان تصير تطبيقات عملية ، بقدار ما هي موضوعية حقيقية (وهي **تميل** دائماً نحو المزيد من الموضوعية والحقيقية) . ومقابل ذلك ، نرى التطبيق يراجع صحة النظرية ويزيدها غنى . ولهذا السبب كتب ماركس هذه الجملة الشهيرة: « ان السؤال: هل يمكن ان يبلغ الفكر البشري حقيقة موضوعية؟ ليس سؤالاً نظرياً ، وانما هو تطبيقي عملي» .

«على الانسان ان يثبت الحقيقة في حيز التطبيق، وهذا يعني

إثبات واقع الفكرة التي هو في صددها ، وقوتها ودقتها . » (دراسات عن فيورباخ – الجزء الثاني) وقدكان ماركس يلح دائماً في بيان **نشاط** الفكر، ودوره في المعرفة. ولكنه لم يقلل مطلقاً (بسبب ذلك) من اهمية الصفة العلمية في ابحاثه . انه ما كان ليرضى البتة ، ولا تصور يوماً ، بأن تقتصر الماركسية ، بوصفها عقيدة طبقة ، على كونها « اداة »، بلا حقيقة، او « اداة منبثقة» عن قيم طبقية. لقد كان يحتج دائماً احتجاجاً مستمراً على الفصل بين علم الطبيعة وعلم الانسان، هذا الفصل الذي رضيت به جميع المذاهب المناهضة للماركسية ، وكانت هذه المذاهب تؤكد ان الطبيعة هي وحدها هدف الدراسة العلمية ، لا الانسان والتاريخ والمجتمع .

هذه المذاهب تنسى الاساس العلمي التطبيقي ، **لكل فكر، ولكل حياة اجتماعية** . وعندئذ تجعل التاريخ خاضعاً لعوامل لا يمكن ادراكها بالفكر . وهكذا تبدو حياة الانسان الواقعية ، وتجربته العلمية التطبيقية ، خارج التاريخ ، « بينما يبدو ما هو تاريخي كأنه معزول عن الحياة المعتادة ، وكأنه خارج العالم وفوق العالم..» وعلاقة الانسان بالطبيعة وهي (من حيث جوهرها علاقة عملية تطبيقية ، وتحدث في المجال التطبيقي ، في التجربة اليومية) انما نراها رغم ذلك في المذاهب المناهضة للماركسية « مطرودة من التاريخ ، مما يفسح المجال للتعارض بين الطبيعة والتاريخ » ويستبعد كل محاولة علمية

لدراسة التاريخ (الايديولوجية الالمانية ، ص ١٨٦ — ١٨٧).

والواقع ان كل نظرية انما هي نظرية عن تجربة عملية، وكل تجربة تطبيقية تعادل نظرية . فالنظرية — علوم الطبيعة ام علم الانسان.. — ترتبط اذن بالتطبيق ، واحياناً على نحو بعيد ، غير مباشر ، ولكنه **واقعي** دائماً . فالعلم لا **يستبعد** وانما يجب ان يتضمن ويستوعب **وحدة بين النظرية والتطبيق العملي**[1] .

صحيح ان ثمة ، في الظاهر، ما يبدو اختلافاً بين الموضوعية في علم الاجتماع ، وبين الموضوعية في علوم الطبيعة . ويقول البعض : الواقع ان الاحداث او القوانين الطبيعية تتحدد ، خارج العالم ، وبدون العالم ، بدون تدخله ، وعلى نحو مستقل عن المراقب . على ان عالم الاجتماع انسان . وانسان فاعل . وهو لا يستطيع تحديد الاحداث خارج تجربته الانسانية ، خارج وعيه بوصفه انساناً . اوَ لا يكتشف هذه الاحداث بينا هو مشارك فيها ولانه مشارك فيها ؟ وكيف يستطيع التدخل والمشاركة في هذه الاحداث الا متحيزاً ؟

غير اننا اذا تدبرنا القضية ، على نحو اعمق ، بددنا هذا الاعتراض . لقد ظل العلماء ازماناً طويلة يعتقدون بأن علوم الطبيعة بلغت قوانين مطلقة (فيزيائية ، طبيعية ام كيمائية ام بيولوجية الخ ...) « والحتميات » الراسخة ، الثابتة ،

---

(١) هذا ما لم يفهمه مطلقاً سيدني هوك في مؤلفه « لكي نفهم ماركس — الترجمة الفرنسية — غاليار ١٩٣٦ (وبخاصة في الصفحات ٩٠ الى ٩٨) .

اللامبالية ، الموضوعية بجملتها ، والحاسمة في موضوعيتها ، كان يعتقد بأنها خارجة عن نطـاق المراقب . فالنزعة « الموضوعية » الجافية كانت المثل الاعلى للعلم في القرن التاسع عشر . ولكن التحليل الحديث للمناهج العلمية ولنتائج العلم يبين اليوم بوضوح ان العلم لا يبلغ « موضوعية » مطلقة ؛ على انه لا يجدر بنـا ، بسبب ذلك ، التخلي عن مبدأ موضوعية العلم . لان العلم ـ كما سبق ان قلنا ـ **في تقدم مستمر** .وهو يتخطى، تدريجاً، الحدود المؤقتة . فالاحداث ، والقوانين ، والنظريات التي يكتشفها العالم معلقة اهميتها على دقة ادواته وبعد مداهـا . والمعرفة تتقدم في مراتب الموضوعية . ولكن لما كانت الموضوعية رهنـاً بادوات العالم وطرائقه ومناهجه ، كان العالم لا يعد غائباً عن الموضوعية غياباً تاماً . ولا يمكن البتة ان تفصل النتيجة العلمية فصلًا تامـاً مطلقاً عن الانسان المراقب ، ولا يمكن ان تكون مستقلة عن العـالم استقلالاً مطلقـاً . ففي الطبيعة الشاسعـة ، وفي تداخل الحركات والظاهرات ، نرى العالِم هو الذي يميز بعض المظاهر ويحللهـا . انه هو الذي ينفذ الى الطبيعة ويخترقها ، بدرجـات تتراوح عمقاً ، بنسبة ما وسّع في مجال طرائقه ومناهجه، ونسبة مـا مد في مرمى تحليله . وهذا النفوذ الأعمق الى احشاء الواقع سيتطلب كذلك من العـالِم ، المزيد من النشاط ، والمزيد من الفكر ، والمزيد من الابحاث التجريبية . « وموضوعية » العلم ، والنشاط «الذاتي» الذي يبذله العالم، لا يتنافيان، بل على العكس. وتدخل العالِم ، ونظريته ، في نطاق الواقع والتطبيق العملي لا

ينزعان عن النظرية صفة الموضوعية ، بل على العكس ؛ وهكذا نصل الى مفهوم عن الموضوعية ، اكثر مرونة واعظم عمقاً .

وهذا ايضاً هو شأن علم الاجتماع sociologie scientifique . فالعالم الاجتماعي يتفهم كذلك، بدراسته الاحداث الاجتماعية، وشروط الحياة الاجتماعية ، شروط نشاطيته هو نفسه . وهو يتفهم كيفية وعي الناس لهذه الشروط — يعني يتفهم نشأة علمه الذي هو بصدده ، وما يترتب على هذا العلم من التطبيق . وهكذا يدرس الماركسي الطبقة العاملة الحديثة درساً علمياً . وهو يفهم اذن كيف كونت الطبقة العاملة تجربتها، قليلاً قليلاً ، وكيف كونت وعيها ، وكيف وصلت الى معرفة ذاتها في الماركسية! ولهذا السبب رأينا كارل ماركس يرسم في النص الذي اوردناه، تكوّن العلم « الناتج عن حركة تاريخية ، والمشارك في هذه الحركة ، على نحو مدرك . » الماركسية علم الطبقة العاملة — ولقد ظهرت الماركسية بظهور الطبقة العاملة (رغم ان ماركس لم يكن هو نفسه عاملاً بل كان عالماً) فعبرت تاريخياً عن هذه الطبقة. والماركسية لم تستطع دراسة هذه الطبقة ومعرفتها دون دراسة المجتمع بكامله ، وفهمه ، هذا المجتمع الذي تعد فيه الطبقة العاملة عنصراً مهماً ووجهاً جوهرياً من وجوهه . وموضوعية العلم هذه ، لم تبق تلك الموضوعية الفظة البدائية ، التي ظلت تتشبث بها حتى ذلك العهد ، علوم الطبيعة. فالماركسي لا يتحدث ـ اذن ـ الا بحذر وتحفّظ عن « حتمية »

اقتصادية او تاريخية . هو يعلم (وهذا وجه مهم من وجوه هذه القضية) ان الايمان بحتمية معينة انما يعني امتداح غير مباشر للسلبية ازاء الاحداث . والسلبية تتنافى لا مع العمل والتطبيق العملي وحسب ، وانما تتنافى والمعرفة الصحيحة ! ورغم انه أُريد في مناسبات كثيرة اتهام كارل ماركس والماركسيين بهذا الموقف المتضمن « حتمية» فظة ، فليس ثمة في آثار ماركس نصوص تبرر هذا الاتهام . بل ان موضوعية علم الاجتماع الماركسي تطابق الموضوعية التي ينسبها احدث المفكرين لعلوم الطبيعة : فهي تقدمية ، نسبية ، وتتضمن التجربة ، والتطبيق والفعالية. وهذه ولا شك موضوعية اعمق واكمل من الموضوعية الفظة البدائية .

ولنضع خطاً تحت هذه الملاحظة ، لكي نبرزها **وهي ان الماركسية لا تقول « يجب العمل » فالماركسية اثبتت بدهياً الواقع القائل بأن كل انسان منا يعمل في « كل لحظة »** . فمشاركته في حياة المجتمع العملية ، وكونه ذا مهنة معينة ، وكونه يعمل ، ويستهلك ، ويطالع ، وكونه ذا عائلة الخ... ان يقبل الانسان بالمجتمع الموجود الراهن ، يعني ان الانسان يعمل . وان يخضع الانسان ، ويتخلى عن العمل ، ويتخلى عن ذاتيته ، هذا كله عمل ايضاً !... وان لا يعمل الانسان ، يعني قبول المجتمع كما هو ، دون ان يبدي الانسان اقل احتجاج على الاوضاع السائدة !... وحين يدير الانسان لولب الضوء الكهربائي ، ويستهلك طاقة كهربائية ، حين يكون

انتاج الكهرباء خاضعاً لسيطرة ما نسميه اليوم « تروست » هذا العمل معناه ولا شك افادة الشركة او « التروست » ومنحه جزءاً (ضئيلاً ولكنه واقعي، موجود) لا من الثروة وانما من السيطرة ايضاً . ان كل عمل يجري في ظل عهد من العهود، وفي ظل تركيب معين للدولة ، هو عمل سياسي ، مباشر ام غير مباشر ، ولما كان الانسان ، حسب صيغة الفيلسوف اليوناني ارسطو « حيواناً سياسياً » يحيا في مجتمع منظم تنظيماً سياسياً عضوياً ، سواء أكان ذلك المجتمع حاضرة قديمة ام دولة حديثة - فهذا الانسان لا يستطيع الا ان يعمل سياسياً .

ان جميع الافكار ، وجميع النظريات ، حتى غير السياسية، في الظاهر، لها - اذن - علاقة مباشرة او غير مباشرة بالسياسة.

ان العلاقة الخفية ، غير المباشرة ، والافكار ذات المظهر غير السياسي يمكن ان تكون اكثر خطراً واكثر غدراً من العلاقة المباشرة الواضحة . لهذا السبب لاتفتأ الطبقات الحاكمة تبث أفكارها السياسية تحت مظاهر « محايدة » غير « متحيزة » و«غير سياسية » فنظام الحكم القديم مثلاً كان يجد أمتن دعائمه في ارساء قواعد الدين . الدين الذي كان خالياً - في الظاهر - من كل أثر سياسي ، والرأسمالية الكبرى المعاصرة تبرع في هذه اللعبة ، وهي قد أنشات ، بخاصة ، صحافة « للانباء » يخيل الينا انها محايدة . والرأسمالية ، تبذل مالها وجهدها لبث فكرة عن « موضوعية » غير سياسية، وهذه « الموضوعية » المزعومة تحتوي

اضخم الاكاذيب ، وتفسح المجـــال لاعظم طرق التضليل ، وكل حدث ، وكل فكرة، تناهض نظام الحكم السائد ، وتثور بالأوضاع القائمة ، انمـــا تتهم بانهـا « متحيزة » مغرضة ، غير موضوعية . وعلى العكس ، فكل مـا يتلاءم والاطار الراهن يبدو كأنه شيء بدهي ،؛ شيء يتلاءم مع طبيعة الامور ، شيء حقيقي ، او حقيقة يُقرّ بها الجميع .

تتضمن مؤلفات ماركس ادق تحليل لهذه **المظاهر** التي يسميها « **مخاتلات** » و « **شعوذات**». والماركسية تبين الصلة بين الفكرة والعمل ، بين النظرية والتطبيق العملي ، حتى – او لا سيما – حين تخفى هذه الصلة عن اذهان اصحـــاب الفكرة ، او حين يتعمدون اخفاءهـا . وبعد توضيح **المعنى الموضوعي** ، على هذا النحو ، (بعد ان عمقت هـذه الفكرة الموضوعيـة ولم تستبعـد اطلاقاً) وبعد توضيح ما يترتب على كل فكرة من نتائج عملية تطبيقية، بعد هذا جاء ماركس والماركسيون يقدمون لنا مذهباً للعمل، دون ان يتخلوا عن اي عنصر من عناصر **المعرفة العلمية**. وعلى العكس ، فان وحدة النظرية والتطبيق العملي ، التي كانت حتى اللحظة، محجبة او غير واردة في سياق المعرفة كورودها في العمل، تركـّزت في وسط الفكرة الماركسية، واصبحت الحجر الاساسي في بنائهـا الضخم . وماركس لا يصف هذه الوحدة؛ فالوحدة بين النظرية والتطبيق ليست وجهة نظر خاصة به ، بل انه يلاحظ هذه الوحدة ، ويعيها ، ويدركها . وعندئذ يرفعها

حقيقة نهائيـــة حاسمة على نحو مشروع ، كما يفعل رجل العـلم الذي يلاحظ مجموعة من الاحداث ، ويستنتج منها قانوناً عاماً .

٤ ـ المادية الماركسية

يُعرّف مذهب كارل ماركس نفسه بصراحـة ، أنه مذهب **مادي** . هذه الكلمة تغيظ كثيراً من الناس ، وهي تفسح المجال لاحكام جزئية متسرعة . وهي تغذي فكرة مسبقة معـــادية للماركسية .

وانطلاقــاً من هذه الكلمة ، كلمة « المادية » انتشر تفسير المذهب الماركسي مخطيء خطأ جذرياً . وقد يتبنى هذا التفسير احيانـــاً ، بعض الرجال المثقفين ، والحق ان هؤلاء لم يقرأوا مؤلفات ماركس اطلاقاً ، ولم يطلعوا على صفحة واحدة منها ، ولم يحاولوا ذلك، وقد يصح ان نتساءل : هل يعد هؤلاء مثقفين حقاً؟ والانسان الذي يجهل ـ وهو في منتصف القرن العشرين ـ مذهباً ما يزال دوره العالمي واهميته التاريخية في تزايد وصعود ، هل يستطيع هذا الانسان الزعم بأنه مثقف او « مطلع » ؟

يرى هذ التفسير الخاطيء لمادية ماركس ، ان ماركس ردّ جميع اوجه النشاط البشري وجميع الاعمال الانسانية الى دوافع نفعية مصلحية ـ وانه ردها الى احط هذه الدوافع ، واشدهـا تفاهة ، يعني المنافع المادية والحاجات . فمـــادية ماركس تعني ـ اذن ـ (في نظر اصحاب هذا التفسير) ان كل عمل انساني

انما هو مقود باعتبـــارات مادية. فالأفكار ليست على شيء من الحقيقة . والدوافع الجمالية ، والاخلاقية ، والدينية ، ليست اكثر من اوهام وحسب . وكل شيء في تاريخ المجتمع يمكن تفسيره بالحاجات الغذائية : الطعـام والشراب ، وشراء ما يسد الحاجة ! هذه هي -- كما يزعمون — الكلمة الاخيرة « لمـــادية ماركس التاريخية » !...

لا يختلف هذا « التفسير » كثيراً ، من حيث جوهره ، عن الهجمات التي سبق ان كشفنا عنها ؛ وهو ، من ناحية ثانية ، يتركز في مستوى فكري وضيع جداً : فأقل امتحان لهذا التفسير يبين لنا نقصاً تاماً في النزاهة ، وشيئاً مغرضـاً الى ابعد حد . فأصحاب هذا التفسير لا يكتفون بتجاهل ماركس : وانما هم يحلون « ماركسية مزعومة » حمقاء محل الماركسية الحقيقية ، لكي يستطيعوا بعدئذ اتخاذ موقف الانسان المشمئز ، او ليستطيعوا الانحاء على هذه الصورة الكاريكاتورية بردود ساحقة دامغة ! ان الذين يرضون بمثل هذا التفسير ، دون ان يكلفوا انفسهم عناء الدراسة والاطلاع ، لمخدوعون ، ان لم يكونوا في حكم المتواطئين...

ا) حين يحاول « لاروشفوكو » ان يثبت ان «جميع المشاعر الانسانية تضيع في غمار المنفعة كما تصب الانهـار في البحر » لا يصم مؤرخو الادب هذا الكاتب الكبير بالحقارة التي تخـالط التصرفات الانسانية والتي يكشف عنها النقاب . فهذا الكاتب

يعتبر محللاً عميقـــاً نابهاً . وهو كذلك بحق . ونظريته تحظى بشرف مناقشتها بعنـاية وَرَوّية . وهذه النظرية المرتكزه على تشاؤم جذري ، لا تؤكد ان كل فضيلة ، وكل نزاهة عند الافراد يرجعان بأسبابهما الى منافع خاصة وحسب ، وانما تؤكد ايضاً ان الفضيلة هي الرذيلة البارعة ، الرذيلة المقنعة المتنكرة ، التي تعمل عملها تحت قناعها...

والواقع ان نظرية لاروشفوكو هي التي تنسب عادة الى ماركس باسم « المادية ». ولكن ، بما ان الامر يتعلق بماركس وبالماركسية – لا « بلاروشفوكو » السيد الشريف العظيم ، رفيع التهذيب ، والثقافة ، والذوق.. – لذلك تنسب الحقارة المفتضحة الى الذي فضحها ! ويتصنع اعداء الماركسية انهم يرون في هذه المادية مذهباً منحطاً رسالته الانحطاط...

ب) لم يتفرد لاروشفوكو حين ذهب الى انه يمكن تفسير كل عمل انساني بالمصالح الفردية الخاصة . فالتعبير الاوضح عن هذا المذهب – وهو تعبير يخالطه ، من ناحية ثانية ، تفاؤل يرفع من قيمة المذهب ويوسع افقه – نجده عند المفكر الانجليزي بنتهـــام . وهذا الفيلسوف يبدو وجهـــاً ممثلاً للبورجوازية (الانجليزية) ولساناً ينطق باسمها ، غير ان نظريته لا تخلو من عناصر ووجوه « تقدمية » . والواقع انه يؤكد ان المصلحة العـــامة (المصلحة الاجتماعية) يمكن ويجب ان تلتقي ومجموعة المصالح الفردية . ويبدو هذا التفاؤل سطحياً ساذجاً ، بل قد

يغدو خاطئاً في مـــا يختص بالمجتمع الرأسمالي (البورجوازية) حيث تجد المصلحة العامة (المصلحة الاجتماعية) نفسها خاضعة فعلاً لمصالح خاصة ، تستتر بقناع المصلحة العامة وتستخدمها اكثر مما تخدمهـــا . ورغم هذا الواقع نرى نظرية بنتام تصور مجتمعاً تنسجم فيه المصالح من كل صنف (راجع الاسرة المقدسة ـ الجزء الاول ص ٢٣٧ – ٢٤٠) ويظل ثمة واقع وهو ان رد جميع الدوافـع الانسانية الى المصالح الفردية والحاجات انمـا هو من حيث جوهره نظرية نشأت في العصر البورجوازي والرأسمـالي (يوم كانت البورجوازية ما تزال صاعدة ، مزدهرة ، ليبرالية) وبعض « النقاد » ينسبون هذه النظرية ـ خطأ ـ الى الماركسية .

ج) ثم ان طريقة ماركس ، « المادية الماركسية » تختلف اختلافاً جذرياً عن النظريات السالفة . ان لاروشفوكو وبنتهام يتحدثان عن مادية معنوية ، اخلاقية . وكان هدفهما ان يبينا (احدهما تجريحاً ، والآخر تحبيذاً) **ان الانانية** هي محرك جميع الاعمال الانسانية .

فهما يفترضان ـ اذن ـ ان المبدأ الاول في كل نشاط (فردي صرف) ينحصر في نشدان المتعة والفرار من الألم .

اما المادية التاريخية عند ماركس ، فتبين عكس ذلك ، ان جميع الاحداث التاريخية العظمى خلقت ظروفها « جماعـــات اجتماعية » وكانت الاحداث التـاريخية صنيع هذه الجماعات او صنيـع رجال افراد كانوا يمثلون (تمثيلاً واضحاً بارعاً ، يشتد او

يضعف وفقاً للظروف) كانوا يمثلون هذه الجماعـــات ، هذه **الطبقات الاجتماعية .**

تقيم المادية التاريخية الدليل على انه اذا استطاع الافراد ان يكونوا منزهين عن الاغراض، وهم كذلك في اكثر الاحيان، فان الجماعات الاجتماعية (يعني الطبقات) ليست ولا يمكن ان تكون منزهة عن الاغراض لان هذه الطبقات تجد ذاتهـا دوماً ازاء قضايا ومشاكل (ازاء منافع ومصـالح) هي بالنسبة اليهـا قضايا حياة او موت .

ولنضرب مثلاً لذلك :

حين تنهض فئة اجتماعية ، امة من الامم ، للدفـــاع عن مصالحها (الواقعية او المزعومة ـ اذ تدل هذه الكلمة الاخيرة على ان مصلحة خاصة ، او مصلحة طبقية تعتبر غالبـاً « مصلحة عامة » ، « قومية ») فماذا يحدث لو تجرد الرجل السياسي الذي يمثل هذه الامة ، عن الغرض ، فأهمل مصالحها ، تاركاً الدفاع عن منافعها ؟ انه يستثير ضده موجة من النقمة ، وسرعان ما يسمى خائناً ، ويستبدل به رجل افضل منه للدفاع « عن مصالح الامة » .

فالجماعـات ، الطبقـــات الاجتماعية، لا يمكن ان تتجرد عن اغراضها . وما يعد فضيلة ، وخلقـاً حميداً يهز الشاعر بجماله ، على الصعيد الفردي ـ كالتجرد عن الغاية... ـ يبدو على الصعيد الجماعي نذالة او خيانة ، يعني الرذيلة كلها !...

رأينا كذلك ، في ما تقدم ، ان العمل العلمي المجرد عن الغاية ، على الصعيد الفردي ، لا يمكن ان تكون هذه حاله على الصعيد الجماعي .

ان السبب الاول في الخلط بين « المادية الاخلاقية »المعنوية وبين المادية التاريخية انما هو الخلط (العفوي ام المقصود) بين الصعيدين الفكري والاجتماعي .

ان الفرد المعزول ، «المنقطع» ، الذي يدرك مصالحه الفردية ادراكاً واضحاً ، وينتج من التطور الاجتماعي ، هو متأخر نسبياً .

زد على هذا ان مفهوم هذه العزلة يحتوي قدراً كبيرا من الوهم ، لأن هذا الفرد ، **الذي يظن نفسه منعزلاً** ، يشارك رغم ذلك في الحياة الاجتماعية التي تحياها امته ، او طبقته الخ ... وهذا الفرد ، وهو نتاج لانحلال اشكال المجتمع الاقطاعي، هو ، من ناحية ثانية، التعبير عن مجتمع يبدو فيه الفرد « وكأنه منفصل عن كل علاقة طبيعية » هذا الفرد ظهر في القرن الثامن عشر لا « كنتيجة تاريخية » وانما بوصفه ممثلاً للوضع الطبيعي عند الانسان .

ورغم ذلك « فكلما صعدنا في التاريخ ، بدا لنا الانسان جزءاً من كل » (أُسرة ، قبيلة ، متحد طبيعي) . ولم تبد العلاقات الاجتماعية « في نظر الفرد مجرد وسيلة لتحقيق غاياته

الفردية » الا في القرن الثـامن عشر ، في المجتمع البورجوازي وحسب...

ومن ناحية ثانية ، فالعصر الذي ينتج هذا المفهوم ، مفهوم الفرد المنعزل ، بدا هو نفسه العصر الذي بلغت فيه العلاقـــات الاجتماعية درجة تطورية عالية جداً (ماركس – مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي) فماركس يحرص – اذن – اكبر الحرص على ان لا يجعل من مفهوم الفرد الاناني مفهوماً اجتماعياً عاماً ، ولذا هو يفسره **تاريخياً** – مبيناً طابعه البورجوازي – ومبيناً كذلك ، اوهامه وتناقضاته . والفرد الذي يظن نفسه منعزلاً ، يشارك ايضـــاً في ضروب من النشاط الاجتماعي بل ان هذه على درجة كبرى من التركيب والتعقد . وهكذا فالفرد الذي ظن نفسه منعزلاً – ولكنه لم يفر مثل روبنسون الى جزيرة موحشة – يظل عضواً في فئات اجتماعية ومتحدات جماعية : كالطبقة ، والامة ...

ما هي الطبقة ؟ هذه الظـــاهرة الاجتماعية ، هذا الحدث الاجتماعي ، اعني الطبقة ، ألا تبدو على نحو بدهي مباشر بسيط؟ ان بعض الظـاهرات الاجتماعية الاخرى تخفيها ، وتلقي عليهـا ستراً ـ وهـذا هو بالضبط السبب الذي يجعل الطبقات تكتسب وعيها لذاتها **تدريجاً**. والطبقة العاملة هي نفسها تكسب ـ خلال تجاربها القاسية المرة ـ وعيها الطبقي . وليس من المستحيل ، في ظروف تاريخية معينـة ، ان يصـــاب هـذا الوعي بالتشويش

والانحطاط (يخيل الينا ان الطبقة العاملة الالمانية اعطت افجع مثال لذلك ، في عهد الهتلرية).

واذ لم يكن الافراد – ولا يمكن ان يكونوا – منعزلين بعضهم عن بعض ، كان لهم دائماً دور ووظيفة محددة في **توزيع العمل** (اي في تنظيم المجتمع تنظيماً عضوياً ، حيث يقوم كل عضو فيه بوظيفة خاصة به تختلف درجة اهميتها بالنسبة الى المجموع) **والافراد الذين يخضعون لظروف واحدة في المعيشة يؤلفون طبقة** . وقد لا يدرك الافراد الذين يكونون الطبقة (ولا سيما في البدء ، وعند نشوء الطبقة) قد لا يدركون انهم تابعون لطبقة واحدة، وذلك اما لانهم ما يزالون متباعدين منفصلين (مثلاً : بورجوازيو المدن الصغيرة المتنافسة في القرون الوسطى) واما لانهم يتنافسون فيما بينهم (كالعمال الذين يبحثون عن عمل ، قبل ان **ينظموا** شؤونهم تنظيماً عضوياً ، واحياناً لانهم منظمون تنظيماً عضوياً Organisés) « لا يشكل الافراد طبقة الا في نضالهم المشترك ضد طبقة أخرى » وهذا النضال، هذه المعركة التي تفرضها عليهم ظروف معيشتهم تقوّي شخصية الطبقة وتكشف لها عن ذاتها . « وما عدا ذلك ، فهم متعادون فيه ، بسبب المزاحمة » (الايديولوجية الالمانية – الجزء الاول ص ٢٢٤) . وهذه المزاحمة تلقي ستراً على حقيقة الطبقة، وتهدد في كل لحظة ، بطمس هذه الحقيقة ، ثم هي تميل الى شل الوعي الطبقي .

وبتعبير آخر نقول: « ان الطبقة ليست حقيقة بسيطة مصنوعة سلفاً، كما لا يمكن ملاحظتها على الفور. فنظرية الطبقات وحدها يمكن ان تتيح لنا فهم الواقع الاجتماعي ، وما يجري حولنا ؛ والطبقات في المجتمع الحديث، لا يمكن رؤيتها مباشرة، بالنظرة الاولى. والمجتمع الذي كان يشار فيه الى الطبقات بشعائر خارجية (فالجواد والسيف مثلاً يدلان على طبقة النبلاء ، في العصور الوسطى) انما هو مجتمع طوائف Castes ، وهو شكل خاص وتبلور مجمّد لمجتمع مقسم الى طبقات . والنظر المتفحص الدقيق يستطيع اليوم ان يكتشف الطبقات، تحت رتوب الحياة الاجتماعية ومظاهرها المتشابهة، وتحت الثياب والازياء فهو يتميز البورجوازيين ، والبورجوازيين الصغار، والعمال الخ... ولكن لكي يبلغ صميم هذا الواقع الاجتماعي ، ويحدده ، عليه ان يزيح الستر عنه . فعمليات المزاحمة بين الافراد ، والمشاعر العديدة التي لا تجمع بينهم الا لتجبه بعضهم ببعض ، فتخفي في اكثر الاحيان عن الملاحظ وعنهم هم انفسهم ، الطبقةَ التي ينتسبون اليهـا . على هذا الواقع يعتمد اولئك الذين يعملون في خدمة مصالح الطبقة الحاكمة ، فينفون وجود الطبقة او الطبقات المسوُدة او المضطهَدة، او الطبقات بوجه عام - ويعملون فعلاً لتبديد شمل الطبقات وتشتيتها الى افراد متنافسين ، وشلّ وعيها الطبقي .

ليست الطبقة شيئاً مصنوعاً سلفاً... انها ليست حقيقة

سكونية ستاتيكية معطاة – وهكذا شأن الوعي الطبقي ايضاً.

فمن ناحية ، تميل الطبقة الى اتخاذ مظهر الحقيقة المستقلة بذاتها ازاء الافراد على نحو يجد معه هؤلاء شروط معيشتهم مصنوعة سلفاً ، ويرون ان طبقتهم تحددلهم وضعهم الاجتماعي وما يتبعه من تطور شخصي لكل منهم ، ويرون انهم تابعون لطبقتهم . » (الايديولوجية الالمانية) بيد انه من الناحية الثانية ، ليس ثمة ما يمنع الفرد من القدرة على التميز في طبقته ، وقدرته على مناهضتها ، بل ومناهضة المجتمع بكامله . والمزاحمة بين الافراد في طبقة واحده لا تنقطع البتة – والمزاحمة تعني هنا الميل الى تمزيق الواقع وهلهلة الوعي الطبقي . ليست الطبقات جامدة وليست خالدة . وقبل تكوّن الطبقات – في مرحلة دنيا من مراحل التطور – كان ثمة مجتمع بلا طبقات (وهذا لا يعني بلا تباين فردي) : المتحد الطبيعي البدئي الاولي ، او البطريركي الذي خلفت ذكراه في الاساطير حسرة على زوال « العهد الذهبي » (رغم ان هذه الحياة الجماعية الطبيعية كانت مؤسسة على الفقر الشامل، وضعف البشر امام الطبيعة ، واللامبالاة بالفرد ، ولكن الجنس البشري عانى ، بعد ذلك ، من واقع الطبقات وصراع الطبقات ، ما جعله يحن الى بؤسه الاول القديم) زد على ذلك ان الطبقات سوف تزول « لانه تكونت طبقة عمالية ليس لها مصلحة اجتماعية تحافظ عليها وتحميها ازاء الطبقة العاملة . (الايديولوجية الالمانية) ويترتب على هذا ان الطبقة العاملة

سوف تحرر المجتمع .

هذه الصورة الموجزة عن نظرية الطبقـــات تبين لنـا تعقد الاحداث وتداخلها المركب . والمـادية التاريخية تكشف في التاريخ عن دور الطبقات وعملها ، وعما يترتب على صراعها من نتائج... ولكنها – المادية التاريخية – لا تتذرع بهذا المنهج لتنفي مفهوم الافراد (راجع هذه المسألة في مؤلفـات انجلز عن فيورباخ – الدراسات الفلسفية ص ٧٣ – المنشورات الاجتماعية باريس). بل هي تبين ، على العكس ، في الطبقات نتاج مجموع النشاطات الفردية ، رغم ان علاقة هذه النشاطات فيما بينهـا – المزاحمة – يميل **من ناحية ثانية** لتذويب المجتمـع ، للاشاة الجماعة الاجتماعية .

ليس ثمة اذن ما هو اكثر تعقيداً من علاقة **الفرد بالطبقة** . فاحياناً يحتل الفرد المركز الاول ، بأنانية ، محاولاً تذويب طبقته او احلال مصالحه الشخصية محل مصـالح طبقته كلهـــا . واحياناً يضيع ، غارقاً في تيار العادات ، والسلوك العـــادي السائد ، (فيختلط بعادات اهل طبقته ، وهي انواع من السلوك تفرض ذاتها عليه فرضاً ، ويسميها بعض علماء الاجتماع « التقاليد» وتارة يستعلي الفرد على هذه العـادات الوسطية العادية ، مظهراً تجردا عظيماً (فردياً) ناذراً نفسه « **لمصالح** » سامية . مصالح تهدف اليها جماعته ، او طبقته (وهو يخلط دائمـاً ، عن حق ام عن صواب ، بين هذه الطبقة وبين المجتمـــع ، او الامة ، او

الانسانية الراهنة والمقبلة...) لا تتنافى التضحية الفردية ومصلحة الجماعة او الطبقة وانما هي ، على العكس ، تفترضها وتضعها نصب عينيها . وهذا لا يحط من معناها ولا ينقص من « قدرها » ـ ولا سيما حين تكون التضحية لمصلحة طبقة صاعدة، ناهضة، تقدمية، تحمل المستقبل في ذاتها . واذا ضحى الفرد بنفسه في سبيل قضية خاطئة او خاسرة ، في سبيل طبقة منهارة ، مشرفة على الزوال ، فتضحيته تعني انه مخدوع .

وتتجلى تضحية الفرد اجمل وقعاً في النفوس واعظم مغزى ، حين يكون الفرد المضحي من الطبقات المضطهَدة . ولا يعدم المضطهِدون الظالمون وسيلة يحطون بها من قيمة تضحيته ، ويجدون لها تفسيرات حقيرة . ورغم ذلك ، فالعامل المعاصر لا يبلغ مستوى الوعي الذي يتيح له ان يتفهم طبقته فيضحي في سبيلها ، الا اذا استعلى على الظروف التي تجعل منه عضواً في طبقته ، والا اذا حلق فوقها... عليه ان يكتسب درجة عليا من الشخصية الفردية ، اسمى بكثير (لان لاكتساب الانسان شخصيته الفردية ، كما لكل شيء في العالم ، تاريخاً ، يعني انه حركة تطور تمر بها فردية ذلك الشخص الذي يعتقد بأنه مركز العالم ، على طريقة « الفلسفة الفردية .)

ولكي يحيا الانسان (التاجر مثلاً ، او الصناعي) حياة « فردية » بحتا ، ويساير رغم ذلك ، او يرضى سلبياً بجميع عادات طبقته وطرائق سلوكها، فما عليه الا الاستسلام لظروف

معيشته. انه ـ فردياً ـ ملاّك، صاحب رأسمال. البورجوازي هو ذلك الذي وُلد بورجوازيـــاً ، فرضي بشروط معيشتــه البورجوازية ، واكتفى بها . والفرد البورجوازي لا يختار ، لا ينضوي تحت لواء فكرة: انه يستسلم لمجرى حياته كما وجدها... وهو يرضى افكاراً مصنوعة سلفاً : وهي افكار طبقته ، ويحتفظ لنفسه احياناً « بشيء من التفرد » اكثر انسانية، واكثر حرية ، ولكنه تفرد فارغ من كل محتوى ، لانه تفرد « خاص » .

ومن الناحية المقابلة ، لا يغدو عامل كادح واعيــاً طبقته ، الا اذا استعلى فوق ظروف المعيشة في طبقتــه . وهذا لا يعني انه يخرج من هذه الظروف فيضْحي « بلا طبقة » وانما لان عليه ان يستكمل بعض اعمال النضال، وان يتفهم بعض مبادىء الاقتصاد السياسي والتاريخ ، لكي يفهم حياته الخاصة ، وطبقته الخاصة . ان ظروف معيشة العامل الكادح ، في ظل النظـــام الرأسمالي ، تحاول ان تجعل منه آلة لا وعي لهـــا . وهو لا يستطيع ان يعي ذاته بوصفه بروليتارياً كادحــاً دون ان ينتزع ذاته ــ فكرياً ــ من حياة البروليتاريا الراهنة ، ودون ان يدرك ، او يحس عـلى الاقل ، بالرسالة التاريخية للبروليتاريا . اذن فالطبقة العاملة لا تغدو واعية ذاتها الا من الافراد الافضل موهبة ــ والا بمحاولتها تخطي ذاتهـــا . وهكذا نرى الوعي الطبقي البروليتاري مرتبطـاً بقضية « تخطي » البروليتاريا بوصفها طبقة ، وهو مرتبط ــ اذن ــ بمثل انساني اعلى .

ولا يدرك الفرد البروليتاري الكادح ذاته، من حيث هو فرد، الا بادراكه ذاته كائناً بشرياً ملتزماً كل ما هو انساني شامل، وملتزماً مستقبله ايضاً. وهذا ما يحدد لنا وضع الفرد البروليتاري، وموقف الطبقة العاملة في العالم الراهن . وهو وضع مؤلم ولا شك : فقليل من المناقضات يضاهي ، في بؤسه المؤرق الدائم ، وفي خصبه ايضاً ، تلك المناقضة بين شخصية البروليتاري الفرد ، وبين ظروف معيشته المفروضة عليه. (الايديولوجية الالمانية — الجزء الاول ٢٢٨). وهكذا ـ اذن ـ ففردية الكادح البروليتاري الذي يعي ذاته هي اكثر سمواً ، واعظم حرية من شخصية غير البروليتاري ، ولكن تلك اكثر من هذه احتواء على الشقاء ، كما ان اكتسابها والاحتفاظ بها اصعب ايضاً .

وهذه الشخصية البروليتارية تنطوي على « مثل اعلى » وعلى اخلاص للطبقة العاملة ، وهي خلال طبقتها ، تنطوي على اخلاص للامة ، والجماعة الانسانية : المجتمع ، وكل ما هو انساني .

ج) هذا التحليل الماركسي للعلاقة بين الفرد والطبقة يبين مبلغ خطئنا الجسيم حين ننسب الى ماركس نزعة تكالبية تنفي قيمة التضحية ، والحماسة ، ونشدان الجمال والحق والامانة لمثل اعلى . بل ان ماركس احتج حانقاً على هذه الفكرة الخاطئة ؛ فبيّن في احد مؤلفاته الاولى ، ان الفرد ينظر الى اهداف — الى مصالح — طبقته نظرته الى مثل اعلى محتوم . (ولقد سبق ان رأينا ذلك في ما يختص بالعلم : فالمصلحة الجماعية

الانسانية ، تتخذ ، في نظر الفرد ، شكل مثالية نبيلة . وليس هذا وهماً وانما هو علاقة واقعية صحيحة بين الفرد والمجموع او الكل ، او الكون .

المعروف ان ثمة بسيكولوجية تزعم ان اسباب كل عظمة تعود الى مجموعة من الاسباب الصغيرة التافهة . وهذه البسيكولوجية تنطلق من حدس صحيح ، هو ان كل ما يناضل الانسان في سبيله يطابق مصلحة حقيقية . ولكنها تنطلق من هنا شطر مفهوم خاطيء يزعم انه ليس ثمة الا مصالح صغيرة ، مصالح انانية ، والمعروف ايضاً ان هذه البسيكولوجية المزعومة تزدهر خصوصاً في اوساط اولئك الذين يجدون انه من دلائل الذكاء ان لا يرى الانسان في مظاهر الحياة كلها ، وان لا يلمح خلال غيوم الاحداث والافكار الا دمى هزيلة ، مخادعة ، تثير الفضول . ونعرف انه حين ينظر الانسان في المرآة عن قرب ، وهو محاذٍ لها ، يرتطم رأسه بصورته ! (ماركس ـ المؤلفات الكاملة ـ الجزء الاول ص ٢١٩) .

والانسان كما ترى الاخلاقيات القديمة هو اما شرير من حيث الجوهر (المسيحية ، لاروشفوكو ، النزعة المتشائمة الحديثة الخ ...) واما خيّر . (روسو) وقد اجتنب ماركس هذه الاحكام المطلقة فظل اقرب الى الواقع ، فقال ان الفرد الانساني لا هو بالخيّر ، ولا بالشرير ، وانما هو خيّر وشرير معاً . إنه مزيج . وهو يمثل امكانا غامضاً تتلاقى فيه نزعات الخير والشر

(نستثني طبعاً الحالات المرضية الشاذة) ثم تأتي الحياة الاجتماعية لتوجه هذا الامكان وتحدده .

والوجـود الاجتماعي ، في ظل تركيب اجتماعي معين ، يهيىء للانسان محركات عمل ، هي احياناً انانية ، واحيـاناً غير انانية . وهي التي تكيف الفرد فتجعل منه كائناً انسانياً او غير انساني ، كريمـاً او متوحشاً مفترساً (واحياناً تكيفه دون وعي) . ومن ناحيـة ثانية : من النـادر ان يعرف الافراد ، بوضوح ، اسباب اعمالهم . والمادية التاريخيـة تجهد بخـاصة ، في جميع الحالات التي يقدمها التاريخ ، لتحديد العلاقة بين مصالح الطبقات وبين افكار الافراد الذين عملوا ومثلوا ـ تمثيلاً واضحاً او مشوشا ـ هذه الطبقات . والمادية التاريخية ، تحـاول ايضاً ان تفسر تخليهم عن الانانية (اخلاقهم وتضحياتهم) وهي تحاول ان تفهم لمـاذا يظهر مثل اعلى معين (المثل الاعلى المسيحي او المثل الاعلى الانساني ـ مثالية القديس ، او البطل، او الانسان الاكمل ، الخ ...) لماذا يظهر في هذا العصر لا في ذاك. وهي تحاول فهم هذه المثالية . في ضوء شروط المعيشة (التراكيب الاجتماعية والكيانات الاجتماعية) وكذلك في ضوء اوجه الصراع الدائر باسم تلك المثالية بين الافراد او بين الجماعات (الطبقات).

د) يجب ان نميز ـ اذن ـ حين نحكم على النزعة المثالية بين أمر وأمر ، فتختلف احكامنا باختلاف العهود والاشخـاص ؛ وبخاصة يجب ان لانصدر حكمـاً الا بعد النظر في ان الامر

يختص بفرد ام بطبقة .

ومن ناحية عامة ينظر الى « المثالي » انه انسان يسبح في الاوهام ، ولكنه يعمل وفقاً لافكار « نبيلة » ، وتبعا لقيم سامية . والمادية التاريخية لا تنفي وجود هذه المثالية ، بل هي، على العكس، تنظر اليها نظرتها الى حدث واقعي، فتحاول فهمه.

وغالبا يكون اخلاص المثالي (او الفردي) صادقا ، لا ريب فيه ، نقول غالباً لا دائماً . فلا تخلو الحياة من منافقين يسترون نفاقهم بمثالية نبيلة . ولا تخلو الحياة ايضاً من اشخاص يخادعون انفسهم . وهؤلاء ، وان لم يكونوا منافقين ، هم « ضعاف الايمان » ، ممن يرضون بمثالية دون ان ينظروا فيها عن كثب ، ويرضون بها لانها تخدم مآربهم .

واخيراً — وخصوصاً — يجب ان نحلل مصادر « الافكار » او « القيم » التي يخلص لها الفرد او يستخدمها ، وفقاً للاحوال .

والواقع انه اذا كانت المثالية الفردية امينة صادقة في اغلب الاحيان ، تثير الحس بجمالها ، فالطبقات لا تكون اطلاقاً « مثالية » . بمعنى انها لا تكون اطلاقاً مجردة عن الغايات والاغراض . ويترتب على هذا انه حين تزعم طبقة ، (ولا سيما طبقة حاكمة) انها « مثالية » مجردة عن الاغراض، فثمة احتمال كبير في ان تخفي هذه الطبقة (بأشخاص ممثليها الاكثر وعياً او براعة) بقناع من المثالية ، اهدافاً جد واقعية ، بل واقعية

جداً . (وهكذا في عهدنا الراهن نرى ان « النزعة الانسانية » الشائعة اليوم ان هي الا ذريعة وقناع لمناورات واهداف سياسية ليست من الانسانية في شيء..) . بهذه الطريقة ، تنجح الطبقة السائدة في عرض اهدافها ومصالحها ، على نحو يجعلها مقبولة بادىء بدء عند جميع الافراد الذين تتكوّن منهم تلك الطبقة (والذين هم مخدوعون او مخادعون ...) ثم عند اكبر عدد ممكن من افراد الطبقات المضطهَدة . ولكي تحصل الطبقة الحاكمة على هذه النتيجة ، ولا سيا اذا كانت طبقة منهارة ، مهددة سيطرتها بالزوال ، فيجب ان تبدو « المثالية » فيها على اكبر قدر ممكن من العظمة والجمال والنبل (ويكفي ان نذكر تبجحات الفاشستية !) والمادية التاريخية ، التي افادت من تجربة طويلة قاسية ، **تحلل – اذن – كل مثالية ، على حدة ، معتمدة لذلك روحاً نقدية حرة .**

والطبقة الصاعدة ، اليوم ، الطبقة العاملة ، تناضل في سبيل مثل اعلى اجتماعي وانساني، يلتقي ومصالحها المباشرة والمستديمة.

ولكن هذا المثل الاعلى (وهذا مـا يميز الطبقة العاملة ، الصاعدة ، من البورجوازية ، صاعدة أكانت ام منهارة) هو **مثل اعلى بلا نزعة مثالية.** فهو يولد من الواقع، من الحاجات، ومن الرغبات الاجتماعية والميول ، من ممكنات الحياة الحديثة. وهو لا يعرف نفسه بوصفه آتياً من شيء خارجي او شيء اسمى من الحياة الواقعية ، ومن التطبيق العملي الاجتماعي . انه ينبثق

عن هذا التطبيق الاجتماعي . وهو يحتاج الى الانطلاق في خطب نبيلة بليغة ، والظهور متلفعاً بهالة سحرية من الجلال والهيبة . وهو لا يحتاج الى الاغراء ولا الى فرض نفسه على الناس .

اذن هذا هو الوضع المعاصر: ففي المثالية الطنانة التي تدعيها الطبقة المنهارة ، يكشف التحليل عن مصالح وحشية ، ومنافع مباشرة ، فظة ، مادية الى ابعد حد مادي ممكن . **وهذه المثالية** ، **تخفي في طياتها مادية جشعة قذرة**، مادية رأس المال الكبير ، وهذا لا يمنع المثالية التي نحن في صددها ان تكون **ذات فعالية وفائدة** : فإن كفت عن كونها كذلك ، تخلى عنها الدعاة الى سواها من اصناف المثاليات !. (ورغم ان هؤلاء الدعاة يحجمون عن مواجهة جشع وجدانهم الخاص ، على مرأى من الجمهور) فما يزال عدد كبير من الافراد يؤمنون بهذه المثالية ايماناً صادقاً سواء منهم المضلل والمخدوع !...

اما ما يختص « بمادية » الطبقة العاملة ، الممثلة نظرياً في المادية التاريخية ، فتعني اولاً **حاجة الطبقة العاملة الى التفهم والادراك** ، وحاجتها الى التحليل ، والحذر الذي تعلمته من التجارب – يعني الموقف النقدي العقلي الحر ازاء كل مثالية. ثم ، وبخاصة ، لا تستبعد المادية التاريخية، **وانما تتضمن المثل الانساني الاعلى** : مثل التحرر ، وتحقيق الانسان . وهذا المثل الاعلى يؤكد ذاته ، ويشدد دعائم كيانه ، دون اللجوء الى الوهم والخداع ، والشعوذة ؛ في هذا المعنى يعبر عن نفسه بأنه مادي ،

وهو فعلاً كذلك .

حين يطالب العمال بزيادة أُجورهم ، درجت العادة على ان يتصدى بعض « الصحفيين » وبعض « الكتاب » لاكتشاف ما في هذا الطلب من « مادية نفعية » ، وفضحها !... ولكن حين يناضل العمال، في نطاق مصالحهم الطبقية ، يعني **لكسب شروط انسانية معيشية افضل** ، « فإنهم يعملون في سبيل المثل الانساني الاعلى » !...

وتتلاقى التعـــابير الاخرى عند نقطة واحـدة ، **فمصلحة الطبقة ، والمثل الاعلى للطبقة الصاعدة** (مصلحة الطبقة بكاملها، والمثل الاعلى الذي يناضل في سبيله اعظم افراد الطبقة الصاعدة وعياً ، وابعدهم نظراً) لان التعبير الاول هو المرتكز الواقعي للثاني ، وهذا بدوره يحقق الاول ويجسّده في الواقع ، ويرفعه الى تعبير سام رفيـع .

والمثل الاعلى ، ومصلحة الطبقة ، في حال طبقة منهارة، لا علاقة تصلهما بالعقل وبالحقيقة . فثمة يُستخدم المثل الاعلى لستر اهداف واقعية ، تختلف اختلافاً كبيراً عما تتخذ من مظهر ! انه مثل اعلى « مثالي» ، يعني ان التحليل يكشف تحته **اوهاماً** (مخلصة) وشعوذات مقصودة .

المادية التـاريخية تعني : البصيرة ، والوعي ، وبعد النظر ، ونظريتها تعطينا قاعدة تطبيقية عملية : ان نكتشف تحت ما

يقول الناس ، وخلف ما **يفكرون** به عن انفسهم ، مـا هم في الواقع ، وذلك بتحليل **ما يعملون** .

٥ – غاية هذا الكتاب

بينت لنـا هذه الملامسة الاولى لفكرة ماركس ان دراسة الماركسية تتطلب تركيزاً ذهنياً معيناً، وشيئاً من الجهد العقلي.

والواقع ان المسألة هنا مسألة **علم** لا مسألة ادب بليغ او دعاوة هينة ! وليست الماركسية ، كما يخيل الى البعض ، مجموعة مختارة من مواضيع الاثارة السياسية ، او مجرد وصف للطبقة العاملة !... انها تحليل يتطلب تدخل **العقل** .

ومن ناحية ثانية ، يمكن عرض الماركسية ودراستهـا على مستويات مختلفة .

فعلى المستوى الرفيع ، يجد الانسان من الصعوبة في ان يغدو ماركسياً نفس مـا يجده ليغدو عالم كيمياء او فيزياء . فدراسة المذهب، واستخدام مبادئه (استخدام منهجه وطريقته) يتطلب سنوات من التجربة والتفكير . والذي يريد ان يصير ماركسياً ، (يعني الذي لا يريد الاكتفاء بتعريف الماركسية وانما يريد التعمق في دراسة علم الاجتماع العلمي ويستخدم منهجه استخداماً فعـالاً) هذا الرجل عليه ان يعمد الى دراسة الماركسية كما تدرس الرياضيات او الكيمياء...

فعليه ، طبعـــاً ، ان يقرأ مؤلفات ماركس نفسه ! فهذا الكتاب الصغير الذي نضعه بين يدي القارىء لا يطمح الى ان يعطي عن الماركسية فكرة موسوعية شاملة ، فيستغني القارىء عن مطالعة مؤلفات ماركس . فلنحدد – اذن – منذ الآن غاية هذا الكتاب تحديداً دقيقاً :

أ) ليس في اللغة الفرنسية ، حتى الآن ، كتاب يعرض الماركسية في مجموعها (عرضاً وسطـــاً ، فلا هو يقتصر على الاختصاصيين وعلماء الاقتصاد ولا هو يسف ليكون «كتاب تبسيط » كما يعبرون) .

ان فكرة ماركس ومذهبه لعلى غنى عظيم بالمظاهر المعقدة، المتكاملة فيما بينها ، كما سوف يتضح للقاريء ، اكثر فاكثر .

والمؤلفـات الفرنسية التي نشرت حتى اليوم لا تعرض (على مستوى رفيع النوع) الا هذا المظهر او ذاك ، من مظـــاهر الماركسية : وجهها الاقتصادي ، او الفلسفي ، او الاخلاقي ، او السياسي...

ثمة اذن مجال لكتاب يحافظ على مستوى وسط (فلا يقتصر على العناصر المتناهية في البساطة، ولا يجنح جنوحه نحو الاختصاص وحسب) كتاب يعرض المذهب الماركسي ، جملة ، بأكبر قدر ممكن من التركيز . كتاب أُلف خصيصاً لأولئك الذين لم يصيبوا ثقافة ماركسية ، ولكنهم يتمتعون رغم ذلك

بدرجة معينة من الثقافة الضرورية التي تكفيهم للافادة من دارسة المذهب في مجموعه .

ب) يجد الانسان بعض الصعوبة في فهم الفكر الماركسي من مؤلفات ماركس مباشرة ، والسبب في ذلك هو ان ماركس لم يعرض «اكتشافاته» العلمية في مؤلف شامل واحد.

ان غالبية مؤلفات ماركس (وانجلز) يسيطر عليها طابع المعارك القلمية والجدال .

والفكر الماركسي نفسه (وفكر انجلز ايضاً) قد تكوّن **خلال معارك ايديولوجية فكرية وسياسية** . ولقد كان هذا الفكر يحدد موقفه دائماً : فلا يرضى باتخاذ موقف مذهبي او سياسي جامد . ورافق كل مرحلة من مراحل الفكر الماركسي نقد ، وفي اغلب الاحيان ، نقد ذاتي ، اي نقد لموقفه هو نفسه. وهكذا اوضح ماركس ماديته ايضاحاً دقيقاً ، ووجد لها صيغتها ، في اواخر عهد شبابه ، ضد مثالية رفاقه (الهيجليين الشبان) وضد مثاليته هو نفسه ، تلك التي تخلى عنها في الامس القريب؛ ولكن ماركس وانجلز يهاجمان مادية فيورباخ السطحية المبتسرة - وهذه مادية مر فيها ماركس وانجلز ايضاً دون ان يتبنّياها جملة) ويدافعان عن الفكرة القائلة بأن الكائن البشري هو كائن فاعل، وانه يكيف بفعاليته التطبيقية العملية الاجتماعية، الطبيعةَ ، ويغير طبيعته الخاصة ، وانه يصنع هكذا تاريخه، ضمن ظروف محدودة، وشروط (ولكن متغيرة متطورة) وهما يعبران

عن **المادية التاريخية** بهذه الصيغة « ١٨٤٤ – ١٨٤٥ » الخ...
وجميع هذه الاكتشافات وهذه الصيغ الفكرية تمت اثناء نضال ماركس « وانجلز» ضد مفكرين : « بوير ، ستيرنر ، فيورباخ ، دوهرنج » وهؤلاء غمرتهم منذ ذلك الحين موجة النسيان وكانوا معرضين لنسيان اعظم لولا ان تصدى لهم ماركس والماركسيون.
وليس من السهل ، كما يُظن في اكثر الاحيان ، استخراج الفكر الماركسي الصحيح من صيغ المعارك القلمية والمناظرات، وهذه الصيغ ، « مع فقدان المؤلف الشامل للموضوعات الماركسية » افسحت المجال لكثير من التشويش في فهم ماركس، ولتفسيرات ضالة ، وانحرافات عدة عن جوهر الماركسية .
ونريد ان يكون كتابنا هذا الصغير **دليلاً** للقاريء ، يساعده على قراءة مؤلفات ماركس «وانجلز» وييسر له حظاً من السهولة والفائدة . بعد ان يقدم له بعض الاطلاع على محتوى مؤلفات ماركس وانجلز المهمة ، **في اطارها الشامل** .

ج) لم يكن فكر ماركس وانجلز فكراً يخوض الصراع والعمل وحسب (و ينشأ خلال معاركه) وانما كان فكراً في **حركة ايضاً** .

وظل المذهب الماركسي ، حتى نهاية حياة صاحبيه ، ينمو ، ويغنىَ وهو يتقدم ، ويكتسب الدقة ، ويتطور . وبعد وفاة ماركس ، تابع انجلز العمل الذي كان يشارك به . ودون ان يدخل على المذهب تغييرات لا تتلاءم مع المكاسب الاولى (وانما

على العكس، عمّق انجلز هذه المكاسب وظل يعمّقها) فأضاف قسطاً وافراً الى الثروة الماركسية ، وجاء بتطويرات اساسية جوهرية .

كثير من « الماركسيين » او من « اتباع ماركس الشبان » يقرأون لماركس وانجلز او يستشهدون ببعض كتاباتهما ، دون ان يهتموا بتاريخ الاثر المدروس ، ودون ان يضعوا هذا الاثر في موضعه من تطور الفكر الماركسي وتعمقه .

ان فكرا في حركة لا يمكن ان يُدرس الا اذا دُرست حركة هذا الفكر .

نريد اذن بهذا الكتاب ان نضع بعض النقاط على بعض الحروف... وان نضع ايضاً ، بأقصى ما نستطيع من الدقة ، كل مؤلف من مؤلفات ماركس ، في موضعه من تكوّن الماركسية . وسوف نفعل ذلك على نحو يستطيع معه القارىء ان يستعيد هذا المؤلف الماركسي او ذاك ، كما جاء في إطاره وموضعه من **الحركة الكلية ، الحركة الاجمالية .**

وتظهر حاجتنا الى هذا التقويم ، اكثر فأكثر ، اذا علمنا ان بعض مؤلفات ماركس وانجلز المهمة جداً لم تُكتشف ولم تُنشر الا منذ خمسة عشر عاماً تقريباً (المخطوطة الاقتصادية السياسية التي الفها ماركس سنة ١٨٤٤) وكتاب «الايديولوجية الالمانية » وكتاب « نقد فلسفة الحقوق كما يفهمها هيجل» وهذه

الكتب لم تُنقل الى الفرنسية الا بين ١٩٣٥ -- ١٩٣٧ .

ان ما اضافته هذه المؤلفات الى ثروة الماركسية لعلى اهمية كبرى . ولكن اتسمح لنا هذه المؤلفات حقاً (كما يشير الناشران الالمانيان لاندشوت وماير في مقدمتهما « الترجمة الفرنسية ، مؤلفات ماركس الفلسفية الجزء السادس ص ١٣) أتسمح لنا بفهم الماركسية « فهماً جديداً » ؟ ان هذا التأكيد الهادف الى تحوير فهمنا للماركسية ، والى « تجديد » صورة ماركس بعد ان بلغ اشده ـ ماركس العالم الاقتصادي الذي ألف كتاب « رأس المال » -- باخضاعه لمؤلفات كتبها في شبابه وفي عهد تفلسفه ، ان هذا التأكيد لا يرتكز على منطق سليم .

وسوف نجهد في الصفحات التالية لنبين ان هذه المؤلفات **الفلسفية** العائدة بتاريخها الى شباب ماركس، تلقي ضوءاً جديداً على نشأة الفكر الماركسي ونشأة علم الاجتماع العلمي في كتاب رأس المال ، دون ان تعطينا عن ماركس « مفهوماً جديداً » ، ودون ان تسمح لنا باحلال « **فلسفة ماركسية** » جديدة محل علم الاجتماع الذى اسسه كارل ماركس ووضع له مرتكزاته في كتاب « رأس المال » . وسوف نبين كيف ولماذا كان كتاب « رأس المال » آخر صيغة لفلسفة ماركس ، ذلك لان هذه الفلسفة تركزت كاملة في نظرية رأس المال خلال التطور الحي الذي المّ بالفكر الماركسي .

هناك فلسفة ماركسية – ولكن الماركسية ليست فلسفة . ويجد الباحث في مؤلفات ماركس الاولى ، امتحاناً دقيقاً متأنياً للفكر البشري ، والنشاط البشري ، ولجميع ما يتفرع عنهما من مشاكل وقضايا . ولكن الماركسية لا تنحصر في هذا الامتحان . وهي لا تقتصر على كونها « نظرية للمعرفة » ، او « نزعة انسانية » فلسفية .

ومن العبث بل من الخطأ تبني هذه المحاولة الجديدة لتفسير الماركسية (كما حدث ذلك مراراً ، بدرجات تختلف في الاخلاص والتوفيق) وعلى العكس ، فالمؤلفات الماركسية الفلسفية تندمج في مجرى العلم ، وفي هذا المجرى وحده تأخذ معناها الحقيقي ووجهتها الصحيحة . الماركسية هي : علم اجتماع علمي sociologie scientifique تحتوي تاريخاً ، ونظرية اقتصادية ، وسياسية ، وعلمية .

والطريقة هي ألِف الماركسية وياؤها ، ونقطة انطلاقها ، وغايتها .

ما هي الطريقة ؟

تلعب **الطريقة** في عمل الفكر العلمي ، دور الاداة نفسها في العمل اليدوي . فعلى العامل ان يتعلم استخدام أداته . وعليه ان يستخدمها بمرونة ، ملقياً نظره الى الاشياء التي يُعملها فيها . زد على ذلك ان الاداة يمكن ان تحسّن دائماً وتُستكمَل .

ولكي نفهم الماركسية، يجب ان نعرف بعض المبادىء العامة عن طريقتهـــا . وبعدئذ يستطيع القارىء استكمال عدته في استخدام الاداة ، بدراسة مؤلفات ماركس .

والذين يجدون مجالاً للاعتراض (ولهم الحق في ذلك ، لان الاعتراض يتيح حل المسائل نهائيـــاً) هؤلاء سوف يقولون : «وهذه دائرة مقفلة!... فالطريقة الماركسية تُتَعلمّ بقراءة مؤلفات ماركس ، ولكي نفهم ماركس ، فيجب ان نكون قد فهمنا طريقته ، من قبل ! » .

ثمة في الواقع ، ما يشبه الدائرة المقفلة . ولكن كل نشاط انساني يصطدم بمثل هذه العقبات والصعوبات، وهذه التناقضات، التي تشبه الدائرة المقفلة شبهاً غريبـاً . فهل تريد – مثلاً – ان تتعلم السباحة ؟ انك لا تستطيع القاء نفسك في المـــاء الا اذا كنت تحسن السباحة!...

لو اطعنا هؤلاء الذين يريدون ان يجنبوا النشاط البشري – فكرياً كان ام تطبيقياً عمليـــاً – كل نوع من انواع هذه التناقضات والصعوبات والعقبات ، لما استطعنا ان نباشر فعل شيء، او ابتكار شيء !!... وهم يثبتون لك انه من المستحيل تعلم السباحه : « فامـــا ان تمتنع عن القفز الى الماء ، فلا تتعلم السباحة ، واما ان تقفز ، فتغرق! »

ولكن ماذا نفعل في مثل هذه الحال ؟ يبدأ سبّاح المستقبل

بتعلم حركات السباحة، خارج الماء ، او على عمق ضئيل، فيمارس هذه الحركات بصعوبة . ثم يلج الماء ، مستعيناً بما يساعده على العوم. ثم هو لا يخوض وحده الى مكان عميق ، الا حين يحسن حركات السباحة ، وهكذا تنحل مسألة « المدار المغلق » ، مسألة التناقض ، اثناء التطبيق العملي وبه .

هكذا ايضاً يتحتم على قارىء ماركس ان يفهم مبادىء الطريقة الماركسية مستبقاً – اذا صح التعبير – تطبيقها العملي ؛ وبعد ذلك يتعمق هذه الطريقة عند احتكاكه بالاحداث والمؤلفات ، وحين يطبق عليها ما تعلم من معرفة اولية .

وهذا المنهج، هذا الاسلوب، هذه الطريقة الماركسية ترتكز على بعض الملاحظات البسيطة نسبياً ، والتي تشترط وجود ادراك سليم ارهفه التفكير .

حين نلتقي شخصاً تتناقض مشاعره وافكاره ، نهتف عادة : « ما اعظم محالية هذا الانسان ! »

وهذا نفسه ما يحدث حين تلاحظ التناقضات في كلٍ dans un tout، عند شعب مثلاً. فكثير من الغرباء يقولون ويرددون: « الفرنسيون قوم يثيرون العجب ! فهم في متاهة من الافكار المتناقضة . فمنهم من يريد شيئاً ، ومنهم من يعارض . وجميعهم يؤكدون انهم يريدون انهاض بلادهم من عثرتها. ولكن الحلول المعروضة تتصادم . انه لموقف محال !... »

فالتناقض يعتبر – اذن – من ناحية عـــامة ، مظهراً من مظاهر المحال، ولما كان الواقع والحياة يعرضان علينا من جميع الوجوه متناقضات كثيرة ، فقد وجد بسبب ذلك من يعتبر الحياة والكون اشياء محالية ، غير معقولة absurdes . واليوم حيث تُرى هذه التناقضات في جميع الحقول ، وتنفجر مدوية ، تنتشر « نظريـــة » اللامعقول ، وتنصب في مجرى الادب ، والفلسفة . ويصطنع « المحاليون » مظهر الكائنـات التي وُهبت ذكاء نادراً خارقاً ، ويمشون مشيتها ، ويزعمون انهم يسيطرون على الموقف من علٍ ، وانهم هم وحدهم غير محدودين ، وغـير منحازين ، ولا متحزبين .

ومن النـــاحية التطبيقية العملية فان النظرية القـائلة (بأن البشر كلهم ، والاشياء كلها ، غير معقولة ، ولا سبب لوجودها ولا غاية، لانها متناقضة في ما بينها) هذه النظرية تعني الخوَر ، والاستسلام ، والسلبية ، والخنوع . ويبدو لنا ان « المحاليين » هؤلاء لا يتذرعون بالعقل والذكاء الا لملاحظة عجز العقل واندحار الذكاء !

تنطلق طريقة ماركس من ملحظ يختلف عن هذا الملحظ اختلافاً كلياً ، جذرياً .

حين لا يجري شيء ، فليس ثمة مناقضة. ومن ناحية مقابلة : حين لا يكون ثمـة مناقضة ، لا يحدث شيء ، ولا يجدّ اي

حدث ، ولا يُلاحَظ ظهور اي نشاط ، ولا يظهر شيء جديد. وسواء أكان الامر يتعلق بحـــال من **الركود** ، ام **التوازن** المؤقت ، ام بلحظة من **الازدهار** (جميع هذه الحـالات يجب ان تدرس بعنـاية) فان الكائن او الشيء غير المتناقض في ذاته يكون في مرحلة ساكنة مؤقتاً . والموقف المتناقض لا يتحرك الا في ثنايا الألم، والصعوبات، والمشكلات. ولكن بهذا يكون الموقف مخصباً. واللحظة التي تبدو فيها التناقضات ويشتد خطرها واهميتها ، وتنفجر، انما هي — كذلك — اللحظة التي يتكون فيها شيء جديد .

بعد ايراد هـذه الملاحظة ، نجد التنـاقض في كل مكان ، ونجدها متمتعة ، في كل مكان ، بالصفة المخصبة نفسها .

ولنـــأخذ امثلة بسيطة ، لكي نفسر هذه النقطة الاساسية الجوهرية :

١ — لا تمكن رؤية النور الذي يرسله جسم مضيء، الا حين يلتقي جسما كثيفاً ، غير شفاف . ولا يمكن رؤية شعاع الضوء الكشاف في الليل الا حين يكون في الجو طبقة من الضبـــاب الخفيف . فاذا التقى سحابة ، او جسما ماديا ، اضـاءه . ولا تغدو قوة المصدر المضيء محسوسة الا عند نقطة تلاقي حزمة الضوء بالجسم الكثيف . وكذلك فعند تلاقي الشحنة الضوئية الصادرة عن الشمس، بالجو الارضي ، تصبح منظورة ، وتُبث في مختلف الاتجاهات . وهي تضيء الاشياء المادية ، عند ملامستها .

٢ ـ حاول ان تتطلب من عضلاتك ، او من محرك آلي ، النشاط المعتـاد ، دون ان تجبهها بمقاومة معينة ، او « بحاجز معين » ، فانك تفشل في الحصول على النشاطية المطلوبة. والمحرك الدائر على فراغ ينزلق . ولا يمكن لقوة ان تفعل فعلها الا اذا لاقت قوة اخرى، تجبهها وتقاومهـــا . انعم النظر في شاطيء البحر ، او في ضفة النهر ، تر ان عمل الماء يقرض البر او الضفة. والارض تقـــاوم ، وتصمد ، وتدفع ، الى درجة معينة من الدفع ــ الامواج والتيارات. ومن فعلها المتبادَل، من تفاعلها، ينتج شكل الشاطيء .

٣ ـ ولنتفحص الآن عملًا انسانيـــاً ــ ولنختر عملًا تسهل ملاحظته : عمل الخزّاف . فالطين يدور على دولاب المخرطة . ويد الخزاف تنفذ الى كتلة الطين . ومن التقـاء كتلة الطين باليد ، يتكون الاناء الجديد .

٤ـ فلنلاحظ الاحاسيس الانسانية على هذا النحو من الملاحظة. فقد يجد انسان مـا (رجل او امرأة) نفسه في حال مطمئنة ، هادئة، وهي اما ان تعني خلوّ قلبه من كل هوى، واما ان تعني ازدهار عاطفته وتفتّحها في ظل السعادة. وعندئذ ليس ثمة مناقضة، ولكن لحظة ظهور العاطفة ــ الحب مثلًا ــ ولحظة تلاشي هذه العاطفة ، هما من اللحظات المضطربة ، من لحظـات التناقض ، وفي مثل هذه اللحظات يحتدم مزيج من احاسيس مختلفة : فثمة الكره ، والقلق ، والرغبة ؛ والكائنات الانسانية ليست مهمة

في نظر المراقب ، الا خلال مثل هاتين الحالين من الاضطراب والمزيج. وكتّاب القصة والرواية المسرحية لا يتخذون لقصصهم او مسرحياتهم ابطالاً الا كهؤلاء ، في لحظات مثل هذه اللحظات اضطراباً وأرقاً واحتداماً . والشخصيات الاكثر اهمية ، وانطواء على عناصر المأساة انما هي بخاصة تلك الشخصيات التي يرتفع في ذاتها التناقض الى اعلى نقطة ممكنة : انها «المنازعات» الفاجعة. فالسيد le Cid بطل كورناي، وهرميونة Hermione (في رواية اندروماك لراسين) اشهر هذه الشخصيات. ولننتقل الآن الى الحال او الى المثل الاكثر شمولاً : فالموت والحياة (او كما يعبر الفلاسفة: الكينونة والعدم) يتجابهان ، ويتصارعان بلا انقطاع ؛ وفي جميع الحقول ، تصارع الحياة الموت ، وينفي الموت الكائنات الحية... ومن البدهي قولنا ان الموت لا يمكن تصوره بلا وجود الكائنات الحية التي يعمل على افنائها .

اما قولنا ان الحياة لا يمكن ان توجد بغير الموت فأمر اقل بدهية . ورغم ذلك افليس من الواضح ان الحياة هي الولادة ، والنمو، والتطور ؟ غير ان الكائن الحي لا يمكن ان ينمو دون ان يتغير ، ويتطور ، يعني دون ان يكف عن كونه ما كان . وكي يصير رجلاً ، عليه ان يترك الصبا ، ويفقده ، وكل شيء يلازم السكون ينحط ويتأخر. ومن ناحية ثانية ، يميل الانسان اثر الولادة ، وبعد النضج (ذروة الحياة) الى الزوال . فالتوغل في الحياة ـ إذن ـ (يعني التقدم) ، يقرب الانسان حتماً من الموت،

بما ان الانسان يهرم بذلك ويكبر، فكل كائن حي إذن يناضل الموت، لانه يحمل موته في طوية ذاته. وهكذا يحيا ويتغير وينتج شيئاً جديداً ، او يستخرج من ذاته شيئاً جديداً. ولكي تنبت هذه الحبة من القمح ساقاً جديدة، فعليها ان تموت في الارض...

هذه كلها ليست الا امثلة ، ولكنها توضح فكرة التناقض، وتبين طبيعته .

فالمناقضة لا تعني « المحال » ، « غير المعقول » ، وانما تعني الحركة ، او « الصيرورة » كما يقول الفلاسفة . ولا حاجة بنا الى تكرار القول : بأن الصيرورة هي وحدها المخصبة . اذن فالتناقض يعني ايضاً « الخصب » . (اوَ ليس من علاقة عناصر الذكورة بالانوثة تنتج في الحياة البيولوجية كائنات جديدة ؟).

ان قانون الصيرورة هذا قد لا يرضي جميع الناس . وقد يستطيع البعض ان يحلموا بعالم آخر ، لا يكون فيه قانون الصيرورة هو قانون الاشياء كلها ، وهو المبدأ المؤلم لكل عملية خلق . بل يستطيع بعض الناس ان يصرفوا انظارهم عن هذا القانون. فليس ابسط من هذا. ويكفي ان ينادوا «بلامعقولية» الكون!... (وثمة من يزعم انه مثقف ولا يتورع عن ارتكاب مثل هذا الخطأ في المنهج) فيعمدون الى طريقة اخرى ، ويدرسون عناصر الحقيقة ومظاهر الواقع، كل عنصر على حدة ، وعندئذ يعجزون عن رؤية هذه المظاهر وتلك العناصر في علاقاتها المشتركة ، وملاحظتها في تناقضاتها . ولكن صرف النظر عن

الواقع ، او تشويه صورة الواقع ، ليس طريقاً الى المعرفة. فانا استطيع مثلًا ان انظر الى البحر او الى اليابسة ، الى الوادي او الى النهر ، كلا على حدة ، وعندئذ انسى ان كل مظهر من هذين المظهرين لم يكن الا بوساطة الآخر. وقد انسى، بخاصة ، ان الانهار هي التي حفرت اوديتها ، فيتملكني الوجد الصوفي فأهتف : « تبارك الخلاق العظيم. ما اعظم انسجام هذا الكون. لقد اعد الله عز وجل الاودية لتجري فيها الانهار جريانها الجليل... »

وهكذا بعد ان صرفت النظر عن العلاقات الواقعية بين الاشياء ، احللت محلها تفسيرات خيالية ، ترتكز كلها على ضلال مبدئي : ان ننظر ، على حدة ، الى كل عنصر من عناصر الكل le tout وان نهمل التناقضات الفاعلة في هذا الكل، التي تحدد حركته .

تضع الطريقة الماركسية امامالفكر البشري مهمة من اصعب المهمات ، مهمة فشل الفكر ازاءها من قبل : وهذه المهمة هي: فهم حركة الاشياء ، اي فهم الاشياء اثناء حركتها — فهم العلاقات بين الحقائق الواقعية مع اجتناب تحطيم هذه العلاقات او تشويهها ، وهذا يعني : فهم هذه الحقائق الواقعية ، في اطار متناقضاتها . وبدلاً من استبعاد المتناقضات ، والقائها باحتقار في حيز « المحال » l'absurde ، علينا ان نضعها في الدرجة الاولى من الاهمية عند البحث العلمي والتفكير . وعندئذ يكف

الكون ، والتاريخ (هذا المتشابك من المتناقضات) عن ان يظهرا بمظهر متاهة من اللامعقول . **ويفهم** عندئذ عالمنا الحديث ، موقفنا الراهن الحديث ، على حقيقته ، وفي معناه العميق : فثمة مخاض مؤلم يؤدي الى المجتمع الجديد ، والانسان الجديد .

هذا هو التقدم الحاسم ، هذه هي الخطوة التقدمية التي خطتها الماركسية نحو **العقل** المعمّق الذي يستوعب ما اطرحه العقل قبل ذلك، بحجة انه من «الاشياء اللامعقولة» هذه الطريقة تسمى بالطريقة « الديالكتيكية » واسمها مشتق من كلمة يونانية اشتق منها ايضاً كلمة ديالوج — المحاورة بين اثنين . وكان اليونان يطلقون هذه الصيغة على المجابهة ، خلال الجدل ، بين المواضيع والافكار المناقضة لها . وقد طرأ على الكلمة بعض التغيير ، من حيث معناها ، فهي تعني اليوم اكتشاف عناصر المناقضة في الواقع ، خلال بحث دقيق — لا مجابهة افكار مجردة بأفكار مجردة في حوار لفظي . وعلى الرغم من هذا ، فما تزال الكلمة تحافظ في معناها على جوهرها الذي يبرر استخدامها .

هذه الصورة الموجزة عن الطريقة الماركسية ، سوف يتيح لنا البدء بدراسة مؤلفات ماركس ، دراسة تهيء لنا بدورها المجال لكي نتعمق فكرة الديالكتيك وندقق فيها .

واثناء عملية التعميق هذه ، سوف يتحقق القاريء ويلاحظ ان الامر يتعلق فعلاً **بطريقة علمية** ، مرتبطة، على نحو لا ينفصم ،

مكاسب حاسمة ، نهائية ، في مضمار **العلم الاجتماعي** ، وفي مضمار العلوم الطبيعية ايضاً .

وسوف يلاحظ القاريء – اذن – ان هذه الطريقة لا تأتينا بوجهة نظر جديدة وحسب، وانما هي تفرض نفسها ضرورياً وطبيعياً ، على الذي يريد فهم الواقع .

وتعميق الطريقة يتيح ايضاً التحقق من صفتها الشاملة العامة. والطريقة الديالكتيكية ، بعد ان طُبقت باديء بدء ، في تحليل المجتمع الحديث ، وروجعت اثناء هذا التحليل ، واستوثق من صحتها ، اتسع مجالها بعد ذلك ، الى دراسة التاريخ ، ودراسة جميع التراكيب الاجتماعية والكيانات ، ثم طبقت في علوم الطبيعة ، فدللت في جميع هذه الحقول ، على فعاليتها وعلى انها تستطيع ان تمضي الى شوط ابعد : فهي صالحة للتطبيق على الفكر والفن والانسان ، والحياة كلها . وهي تمدنا **بوعي جديد** لشؤون الحياة والكون ، وصفاء ذهني متجدد ، يتجه فعلاً الى الواقع ، – بما فيه من الحياة اليومية والجمالية والاخلاقية .

وتتجلى لنا الطريقة الديالكتيكية في صدقها الكلي الكامل ، بعد تعميقها ، والتثبت من صحتها عند كل تطبيق، ولكن بعد التمييز – كما يجب ان يحدث في كل طريقة عقلية شاملة – بين كل تطبيق خاص وسواه...

لا تقدم لنا الطريقة « الديالكتيكية » مذهباً جديداً ، او

« عقيدة » جديدة ، ولا وجهة نظر جديدة ؛ بل انهـــا تتيح لنا اكتساب حقائق جديدة وتوجه فكرنا اثناء العمل ، بل حتى اثناء الحياة اليومية العملية .

ولا تتضح حقيقة الطريقة ، كاملة ، الا في نهاية الدراسة ، حين تعبر عن هذه الحقيقة ، نتائجها ، ويثبتها تطورها الكامل .

القسم الاول

حياة ماركس ومؤلفاته

منذ البدء حتى « البيـــان الشيوعي »

١ ـ مخطط هذه الدراسة

لا يمكن ان ينفصل فكر ماركس وتآليفه عن عمله ، ومعاركه، والحملات القلمية التي شنها على « ايديولوجيي » عصره.

وهذا العمل ، وهذه المعـارك ، وهذه الحملات القلمية ، لا يمكن ان تُفهم هي نفسهـــا خارج اطار الاحداث والظروف التاريخية التي عاشها ماركس وعبر عنها .

ولكي نستطيع ان نتتبع نمو فكره ، ولـكي نستعيد حركة هذا الفكر ، ولـكي نفهم **تكوّن الماركسية** ، ثمـــة طريقة للعرض تتحتم علينا : ان نرسم خطوطاً تصور لنا حياة كارل

ماركس . وان نبين كيف جـــاء كل مؤلف من مؤلفاته في مكانه ، وفي زمانه ، للاجابة عن مسائل دقيقة معينة ــ وهكذا يتاح لنا ان نضع كل مؤلف في مكانه من المجموع .

ولا نفهم من هذا ان الماركسية نشأت عن عناصر متباينة متعددة : عن فكر فرد عبقري اسمه كارل ماركس ، او عن ظروف القرن التاسع عشر ، السياسية الاقتصادية . ان التحليل وعلم التاريخ يجدان في حيـــاة ماركس ومؤلفاته كثيراً من « التأثيرات » المعقدة المتعددة . ويتساءلون : مـا الماركسية ؟ ويجيبون : انهـــا ملتقى افكار وتيارات . والمؤرخون الذين يدرسون ــ بحق ــ منابع المذاهب الكبرى واصولها ، قد خصصوا المجلدات الضخمة لهذه « التأثيرات » . وسوف نلخص هنا مؤلفاتهم ، ولكننا نطرح قبل ذلك مسألة مهمة .

هذا الواقع الذي لا جدال فيه ، والذي يتلخص في ان ماركس اطلع ، وتقبَّل من وجهة معينة ، افكاراً ومذاهب مختلفة نشأت في عصره ، هـذا الواقع يُفَسر عـادة بوجهتيْ نظر مختلفتين : فبعض المؤرخين (من خصوم الماركسية وكذلك بعض « الماركسيين » المزعومين) يتظـاهرون بأنهم يجدون في هذه المصادر الايديولوجية التي استقى منها ماركس ، تفسيراً للماركسية ينقص من اصالتها ، او ينفيهـا . وهم يزعمون ان ماركس اطلع على الفلسفة الالمـــانية في زمنه ، وكان تلميذاً لهيجل ، ومكملاً لفلسفته ، (فماركس ــ في زعمهم ــ من

هيجلي اليسار)؛ وبعد ذلك خضع لتأثير الاشتراكيين الفرنسيين: سان سيمون، فورييه، برودون ، وتأثير الاشتراكيين الانجليز: أوِن وسواه...واخيراً اطلع ماركس على مؤلفات الاقتصاديين الانكليز : بيتي ، وسميث ، وريكاردو . وهم يزعمون انه من مجموعة هذه التأثيرات خرج مذهب جديد في الظاهر ، وهو نتيجة شبه آلية لتلك السوابق الاصلية .

هكذا اجتهد الاستاذ اندلر في كتابه « تعليق تاريخي على البيان الشيوعي » لدراسة اصول الماركسية ، ونفي اصالتها ، حتى انه ذهب الى وصم الماركسية بالتفاهة ! (راجع صفحة ٧١ من هذا « التعليق » ..) اضف الى ذلك ان اندلر كدّس ، اثناء تأليفه هذا الكتاب ، اخطاء على اوهام ، وضل ضلالاً بعيداً في التفسير والتقدير الخاطيء حين وصم ماركس مثلاً « بالانشاء اللفظي المفكك !» في احد مؤلفات ماركس المهمة «بؤس الفلسفة» ورغم هذا كان الاستاذ اندلر يزعم انه «اشتراكي» ويعتقد بأنه « موضوعي » !

وحذا حذو اندلر مفكرون آخرون . فهذا السيد برابيه Bréhier (في مؤلفه الضخم عن « تاريخ الفلسفة ») والسيد برانشفيغ Brunschvigg (في كتابه « وعي الغرب ») اهملا ماركس ولم يتحدثا عنه الا لماماً ، وتظاهرا بأنهما يريان فيه كاتباً مشاكساً ، ومفكراً تفوق قوته اصالته . »

والحقيقة تختلف اختلافاً كلياً عن هذه التفسيرات المغرضة

المتحيزة المتسترة بمظاهر « الموضوعية » التـاريخية . ومما لا شك فيه ان ماركس اطلع وفهم، في حياته ، وفي مؤلفـــاته ، **اهم التيارات الفكرية في عصره** ، ولولا مـاركس وهيجل لظلت هذه التيارات الكبرى التي نشأت في بلدان مختلفة، وفي ظروف متباينة ، منفصلة بعضها عن بعض . ولما كان لهـــا ان تتلاقح وتتبادل التأثير والتفاعل ، ولولاهما لانطوت على ذاتها ، وضَمَر كل تيار من ناحيته وتضاءل — وهذا ما حدث لها فعلاً خـارج الماركسية . ان حياة ماركس العاصفة (وهو الرجل الثوري المطارَد ، المنبوذ من وطنه ، المحكوم عليه بالنفي الدائم) اتاحت له ان يواجه جميع الافكار ، في عهد من الاختمار العميق ، الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. بهذهالطريقة استطاع ماركس ان يفهم نزعة القرن الثامن عشر المـادية الفرنسية ، والفلسفة العقلية الفرنسية القديمة ، والاشتراكية الفرنسية التي نشأت في القرن التاسع عشر، واستطاع كذلك ان يدغمها بقوام مذهب واحد ، مع الفلسفة الالمانية وهي في ذروتها (الفلسفة الهيجلية) والاقتصاد السياسي الانكليزي النهجي Classique .

تابع ماركس هذه الابحـــاث المذهبية ، وهي التعبيرات النظرية عن ارقى الامم الاوروبية ، وعن اجرأ تيارات الثقافة في عصره؛ ولم تكنالماركسية تيار افكار جديدة، يجري خارج الثقافة المعاصرة له . ورغم هذا ، تبدو لنـــا الماركسية ، بعد تفحص « موضوعي » حقـــاً ، مختلفة شديد الاختلاف عن

كل نزعة تجميعية éclectisme وليست هي مجموعة من الايديولوجيات المختلفة ، ولا ملتقى طرق للايديولوجيات . لقد اخضع ماركس كل مذهب اطلع عليه ، لعملية نقد صارمة ترتكز على ما وصل اليه ماركس من تجربة وما اعتاده من تفكير طويل وإنعام نظر . وقد اتاحت له هذه المعارك القلمية التي خاضها ناقداً المذاهب المعاصرة له ، ان يبرز فكره الخاص، وان يعرضه. ولم تتقبل الماركسية المذاهب السابقة لها والمعاصرة الا بعد ان اخضعتها لعملية « تخطٍ » وتطوير .

اذن فمحاولات خصوم الماركسية للطعن في اصالتها ، ترتد اليهم . وسوف نرى كيف ان الماركسية ليس لها ادنى صلة بمذهب ضيق مغلق ، او بتقليد جامد تعتنقه فرقة متعصبة ، نشأت على هامش التطور الحضاري .

سوف نرى ، على العكس، ان ماركس عرف اثناء حياته، وبعد التفكير في أحداث عصره وتجاربه ووقائعه ، كيف يجيب عن المسائل التي كانت تجول في اذهان اكبر مفكري ذلك العصر. وسوف نرى كيف بدت الماركسية، في البدء، مذهباً، الى جانب مذاهب كثيرة اخرى ، كان يعرضها اصحابها على الناس لاكتساب تأييدهم، ولكن سنرى كيف قويت الماركسية بعدئذ ، وثبتت دعائمها ، وغَنِيَت ، واتسعت حتى اشرفت ، من مستوى رفيع جداً ، على سائر المذاهب ، وحتى اضحت

احدى القوى الكبرى (النظرية ، والعملية التطبيقية ، والعلمية، والاخلاقية المعنوية) في العالم الحديث .

٢ - شباب كارل ماركس

كانت مقاطعة رينانيا (ومدينة تريف بخاصة) قد تلقت انباء الثورة الفرنسيـة بحبور ، وابتهجت لوصول الجيوش الفرنسية اليها ، ومحاولة ضمها الى فرنسة . وغرس سكان تريف في ارض مدينتهم « شجرة للحرية » كما فعل سكان مايانس . وافتتح في تريف ناد لليعقوبيين ، فلاقى نجاحاً عظيماً .

وجاءت الثورة ترفع عن كواهل الفلاحين الرينانيين اعبـاء الاقطاعية ، وجاءت تحرر البورجوازية وتعطيها ما كانت تحتاج اليه من نموها وانطلاقها ، من تنظيم اداري وقوانين . ووضعت الثورة حداً نهائياً للسيطرة المطلقة ، التي كان يتمتع بها الامراء الاقطاعيون (Les Electeurs) ولسيطرة رجال الدين؛ وكان مطران تريف حتى ذلك العهد هو سيد المدينة وأراضيها. وغدت هذه المدينة وضواحيهـا محافظة تابعة لمقاطعة « روير » . وظلت فرنسية مدة عشرين عاماً ، فخلفت هذه السنوات آثاراً عميقة في عادات السكان وانفسهم ، وافـادت الصناعة الكبرى وخطت خطوة عظيمة بفضل نظـام الحرية الاقتصادية ، والغـــاء نظم الطوائف المهنيّة «الكوربوراتيفية reglements corporatifs » المغلقة ، والغاء الجمارك عند حدود الدويلات الاقطاعية العـائدة

بتاريخها الى القرون الوسطى ، واخيراً افتتاح اسواق فرنسة ، وحمايتها من المزاحمة الانكليزية .

ولكن هذه الجذوة الثورية الملتهبة انطفأت بعد قليل ، فالضرائب الفادحة (ولا سيما ضريبة الدم، اذ كان ابناء الفلاحين البورجوازيين الرينانيين يُجنَّدون في جيوش نابليون) صرفت بلاد تريف عن ولائها لفرنسة .

ومنح مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ رينانيا لبروسيا .

فرض البروسيون سيطرتهم على رينانيا في روية واعتدال . وظلت القوانين التي سنهـا نابليون سائدة في المقاطعة ، وظل التعليم يحتفظ بنمط من الحرية والاستقلال لم يُعرَف البتة في سائر المقاطعات الالمانية . وظلت كلية تريف ، حتى عام ١٨٣٥ ، مركزاً للنزعة التحررية الليبرالية ، وللنفوذ الفرنسي . وكان عميدها ويتنباخ يفاخر بأنه تلميذ جان جاك روسو .

غير ان رد الفعل السياسي كان اشتد في رينانيا اكثر فأكثر، ولا سيما بعد ١٨١٧ ، واثناء عيد واربتورج الشهير حين هتف الطلاب باسم الحرية .

وفي تريف كان هيرشل ماركس ، المحامي اليهودي الاصل، من اول ضحايا رد الفعل هـذا . ولم يكن بين هيرشل وبين اليهودية من علاقة الا انه من اصل يهودي . وقد وصفه اصحابه بأنه كان «فرنسي الهوى» اصيلاً في «فرنسيته» ، يستظهر كتب

فولتير ، ويؤمن ايمان نيوتن ولوك وليبنز بإله غامض بعيد ...
وكان من السهل عليه – اذن – اعتناق المذهب البروتستانتي ، لا عن اقتناع ، وانما ليأمن شر السلطات البروسية التي كانت تضطهده بسبب نزعته التحررية .

ولد كارل ماركس في ٥ نوار سنة ١٨١٨ وهو الولد الثالث من تسعة ابناء ، رُزِقهم هيرشل .

وترعرع كارل في بيئة تحررية مثقفة ، وتلقى دراسته في كلية تريف ، ولم يكن في مواهبه وهو تلميذ ما يلفت اليه النظر ، الا ناحية : ففي عام ١٨٣٤ شاعت في الكلية رسائل سياسية نقدية مهمة ، تحررية الروح ، ديموقراطية ، واكبر الظن ان الفتى كارل ماركس هو الذي كان يكتب هذه الرسائل ويذيعها .

بعد عام ١٨٣٠ عرفت رينانيا يقظة في الوعي الديموقراطي ، وفي الميل الى فرنسة ، وكان الوضع الاقتصادي في المنطقة يميل الى التأزم الخطر . واثر في هذه اليقظة تأثيراً كبيراً بؤس الكرامين الموزيليين ، وتقهقر احوال التجارة والحرف اليدوية ، وانشاء نظام الزولنورين (نظام الجمارك البروسية) اضف الى هذا كله تأثير نظام الحكم البيروقراطي الاضطهادي ، الذي كان يبلغ في قسوته حد الاضحاك احياناً ؛ وكان مركز هذه الحركة الديموقراطية التحررية نادياً في تريف عرف باسم «جمعية الكازينو الادبية» وفي عام ١٨٣٤ كان زوار هذا النادي ينشدون النشيد الفرنسي فتدخلت الشرطة البروسية ، ومنذ ذلك

الحين اعتبر والد كارل ماركس والعميد ويتنباخ من « العناصر المشبوهة » .

وكانت تنتشر مع الافكار التحررية والديموقراطية الوافدة من فرنسة افكار الاشتراكيين الاول، السان سيمونيين . وفي عـــام ١٨٣٥ ، ظهر في تريف مؤلف نقدي لاذع قوي ، بقلم لوديج غرال جـاء فيه « تفصل بين الطبقات الكادحة والطبقات المحظوظة ، مصالح متناقضة ، ولذلك تنهض هذه ضد تلك . »

ولا شك في ان الفتى كارل ماركس التلميذ في كلية تريف حتى عام ١٨٣٥ ، اطلع على هذا المؤلف ، وبذا يتضح لنا لماذا كان ماركس ينفي دائماً انه ابتكر « صراع الطبقات » ولماذا كان يؤكد دائماً انه اخذ مبدأ الفكرة عن نظريين ومؤرخين فرنسيين .

٣ ـ ماركس واليهودية

يعرف الناس جميعاً كيف استغل الهتلريون اصل كارل ماركس، اثناء حملاتهم على ما سموه « اليهودية ـ الماركسية!... »

نريد في هذا الصدد ، ان نحدد فوراً موقف ماركس من اليهودية .

افرد كارل ماركس مقالاً من مقـــالاته الاولى « للمسألة اليهودية » ، وهذا المقال الذي يصور لنا مرحلة مهمة من مراحل

فكره ، يحكم على اليهودية بقسوة ويهجو التقاليد اليهودية هجواً مراً ؛ وقد ركز ماركس دراسته على الفكرة التالية : ان اليهود محقون في ارادتهم الحريــــة ، ورغبتهم في ان يصبحوا مواطنين وناساً مثل سائر المواطنين والناس ، وهم محقون حين يناضلون لينالوا حقوقهم الاجتماعية البدهية . ولكن مما يؤسف له ان اليهودية ليست ديناً وايديولوجية وحسب . **فلهذا الدين اسسه الاجتماعية والاقتصادية . انه دين جماعة معينة او فرقة – هي اشلاء قومية مشتتة – نذرت نفسهــــا للتجــــارة .** فالنزعة المعادية للسامية لا تقتصر اذن على كونها حدثاً ايديولوجياً وانما لها هي ايضاً اساس اقتصادي واجتماعي . وهي ظاهرة من ظـاهرات المنافسة ؛ والمنافسة بين اليهود وغير اليهود تعبر عنه ايديولوجية جشعة حريصة . انهـا معركة حوانيت . فلا التحرر الديني ، ولا التحرر السياسي في اطار الديموقراطية البورجوازية الليبرالية يمكن ان يؤديا الى حل القضية اليهودية. ويرى ماركس ان ثمة تطوراً مزدوجاً يمكن ان يحل هذه المسألة : فمن ناحية ، يجب ان يتحرر المجتمع كله من سلطة المال ؛ ولكن من الناحية الثانية ، **يجب ان يكفّ اليهود انفسهم عن طلب المـال** ، **وعن ان يروا فيه طريقاً الى قوة وحرية** لا بد من انقلابهما يوماً على اليهود انفسهم . وبتعبير آخر ، اذا كانوا لا يريدون الذوبان في الشعوب الاخرى ، والتحرر حقـــاً ، فعليهم ان لا يعملوا للذوبان في البورجوازيـة ونشدان الحريـة في ظل الدولة البورجوازية، ولو كانت هذه البورجوازية ليبرالية تحررية . على

اليهود ان يندمجوا في الشعب العامل الكادح ، وفي المجتمع الذي سوف ينشئه. فإذا لم يتجه اليهود هذا الاتجاه، فلسوف يضلون ، ويُسهمون في خلق الظروف التي تهلكهم .

علينا ان لا نبحث عن سر اليهودي ، في دينه ؛ وانما عن سر هذا الدين في الانسان اليهودي ، فما القـــاعدة الزمنية في اليهودية ؟ ـ ارضاء الحاجات الزمنية وارضاء الانانية. ماذا يعبد اليهودي؟ ـ يعبد المتاجرة والربح. مَن الهه الزمني؟ ـ المال . « والزمن الحاضر بتحرره من مباديء المتاجرة والمال ، مباديء الكسب والجشع ، بتحرره من اليهودية ، كما تطبق واقعيـــاً وعملياً ، انما يحرر نفسه ايضاً . »

يخاطب هذا النص أُولي الالبـاب ، بلغة الصراحة المبـاشرة القاسية ، والنقد الموضوعي الحر . ولم يكن ماركس عدواً للسامية ولا نصيراً لليهودية . انه يحدد ـ موضوعيـــاً ـ وبأعمق معاني هذه الكلمة ظروف نهاية اليهودية ، اي الظروف التي تحل بهـا القضية اليهودية . ان هذا الموقف النقدي الحر يبين بوضوح اننا لا نستطيـع تفسير مؤلفـــات مـاركس من زاوية النظرة اليهودية وان تعبير (اليهودية ـ الماركسية) الذي تبنته الرجعية قاطبة ، والهتلريون بخاصة ، ليس الا بهتاناً رخيصاً وزوراً مأجوراً . لقد نشأ ماركس ضد اليهودية ولم يتأثر بها ولم يتلاءم معها . لقد اثار الهتلريون السخر بهم حين فسروا عمل ماركس

في ضوء اليهودية ، كما اثاروا السخر وهم يفسرون فيزياء آنيشتاين في ضوء « جنسه » ، وبمناهضتهم العلم اليهودي بالعلم الآري !...

٤ – ماركس الطالب – زواجه

في اواخر عام ١٨٣٥ قدم الفتى كارل ماركس الى جامعة بون لدراسة الحقوق .

واحتك ماركس بالاوساط الليبرالية التحررية التي كانت الشرطة تراقبها عن كثب، وانضم الى «نادي الشعراء» وكان يقول الشعر، ويهيء نفسه لحرفة الادب . اما رفاقه في «نادي الشعراء» فكانوا من ابناء البورجوازيين الليبراليين . وفي ربيع ١٨٣٦ نشب نزاع عنيف بين هذه النوادي التحررية ، وبين منظمة « كوربس بوروسيا » الارستقراطية الرجعية .

وخاض كارل ماركس مبارزة ضد احد اعضاء «الكوربس» واصيب بجرح في حاجبه الايسر .

والذين يزعمون ان الفكر الماركسي لا يهتم كثيراً بالشخصية الفردية لا بد ان يفيدوا من قراءة الرسالة التي كتبها ماركس الى لاسَّال ، بعد مضي عشرين عاماً ، بشأن المبارزة. وفي هذه الرسالة يقول ماركس ان مفهوم الشرف عند الاقطاعي ومبدأ

المبارزة اثر اهانة تلحق بالانسان لا يثبتان للفحص ، ولكن نظراً لضيق الحياة في الظروف البورجوازية ، يمكن ان تعبر الشخصية الفردية عن ذاتها احياناً بأشكال مضى اوانها .

لا يطلق ماركس حكماً ، ولا يدلي برأي في حادث ، قبل ان يدرس الوضع دراسة معمَّقة كاملة ، وقبل ان يحلل العلاقات العديدة المنطوية في هذه العلاقات . وهذه الطريقة يطبقها على الاعمال ، والناس ، كما يطبقها على الاحداث التاريخية .

* * *

في عام ١٨٣٦ بلغ ماركس الثامنة عشرة من العمر ، فعقد خطوبته على جيني وستفالن – سراً .

وكانت جيني تنتسب، من ناحية امها ، الى كونتات آرجيل، الذين تردد اسمهم في تاريخ ايكوسيا مرات عديدة. وكان جدها لابيها مستشار الدوق دى برونشويك ، وقد ابدى عبقرية عسكرية حقاً .

وكانت اسرة فون وستفالن – اذن – من طبقة اجتماعية تختلف عن طبقة كارل ماركس . ولكن لودفيج فون وستفالن لم يكن يجاري طبقته الارستقراطية في مزاعمها واوهامها. وكانت ثقافته عظيمة رحبة .

(وحين اراد كارل ماركس ان يكتسب وده، اهداه

أطروحته التي نال بها « الدكتوراه » وسماه في اهدائه « صديقه الابوي » .

وكان لودفيج محافظاً فرنسياً لمقاطعة إلبا ، ثم انضم الى بروسيا منذ عام ١٨١٣ ، دون ان يتخلى تماماً عن نزعته التحررية الليبرالية . ورغم معارضة سائر افراد الاسرة ، رضي لودفيج فون وستفالن بزواج ابنته جيني من الشاب ماركس .

كانت جيني تكبر خطيبها بأربع سنوات . وكانت تهيمن بجمالها على مدينة « تريف » وقد ظلت اوساط تريف الاجتماعية عشرات السنين تذكر تلك الحسناء التي سميت «الاميرة الساحرة» و « ملكة الرقص » .

ولم تكن الطبقة الارستقراطية الرينانية لتفهم كيف استطاعت هذه الفتاة الحسناء ، النبيلة ، ابنة مستشار الدولة ، ان تحب طالباً فقيراً لا حظ له من الوسامة، ذا مستقبل معرض لعصف الرياح ، ومن اسرة يهودية !...

وكتب والد كارل اليه في موضوع خطوبته « تبذل جيني في سبيلك تضحية لا تقدر بثمن. ويدل عملها على ايثار كريم ، لا يستطيع تقدير قيمته الحقيقية الا العقل. فويل لك اذا نسيت هذا في يوم من الايام... »

توفي لودفيح فون ستفالن وهيرشل ماركس قبل عقد القران. وعندئذاعلنت اسرة فون وستفالن معارضتها الصريحة لهذا

الزواج . وكان لجيني أخ اسمه فرديناند ، اصبح رئيس الحركة الرجعية الدينية في رينانيا ، وانفتحت له ابواب المجد السياسي ، وعين وزيراً للداخلية في برلين ، فكيف كان يرى غرام شقيقته وآمالها ؟ ان الشكوك تحوم حول هذه النقطة .

اكتملت عناصر « القصة » في حب كارل لجيني . وكانت الحوادث كلها تتضافر لتضفي عليه طابعاً مؤثراً ، يحفل بالشعر والخيال... وفي عام ١٨٤٢ بدأ كارل ماركس حياته الثورية وكان له من العمر اربعة وعشرون عاماً... واثر وفاة ابيه ، نشب الخصام بين كارل ووالدته (وقد توفيت بعد زمن طويل ، واطلقت هذه الكلمة الجديرة بالشهرة لتظل شاهداً على عقلية الاسر البورجوازية ودوافع النزاع فيها : « كان افضل لكارل لو جمع شيئاً من رأس المال بدلاً من ان يؤلف المجلدات عن « رأس المال ») ...

هكذا وجد نفسه كالمنفي ، فلا اسرة له ، ولا مهنة معينة.. وكثيرات يفصمن عرى خطوبتهن لوعانى عُرُسهن بعض هذه الحال ... ولكن على رغم المعارضة الشديدة التي لقيتها جيني من اسرتها ، ورغم المستقبل (او فقدان المستقبل ، كما يقول البورجوازيون) الذي كان يتعرض له الزوجان ، حافظت جيني على الحب ، ولبثت امينة للعهد ؛ وقد تم زواج كارل ماركس وجيني وستفالن في الثالث والعشرين من حزيران ١٨٤٣ في مدينة كروزناخ ، ولم يكن عهد قصتهما وحبهما وخطوبتهما وحده

مشبعا بالحب ، وانما كانت حياتهما كلهـــا مفعمة بالحب العميق والعطف الخالص .

وحظي ماركس بفرصة لعلها الوحيدة في التاريخ ، فوجد في رفيقة صباه الشريكة التي يريد . فقد عرفت جيني كيف تخوض المعارك التي خاضها كارل . وعرفت كيف تشد ازره فيها. وايمانها به لم يتزعزع لحظة واحدة . وكانت تحوُط زوجها بالعطف والحب ، وتشاركه ابحـــاثه ودروسه ، خلال اقسى التجارب واحلك الملمات ، وكان هو يستودعها اسراره ، ويبثها نجواه ، ويعترف لها بجميع افكاره...

وقد اكتُشفت بين « الوثائق السرية » للدولة البروسية في برلين ، وثيقة عجيبة : وهي تقرير لجاسوس نجح في التسلل الى خاصة ماركس ، في لندن ، عام ١٨٥٣ . وهذا التقرير يصف حياة ماركس العائلية : « ماركس رجل متوسط القامة ، وله من العمر ٣٤ عاماً ، وقد بدأ رأسه يشتعل شيباً . امـا لحيته فمرسلة ارسالاً . وفي عينيه الثاقبتين المشعتين ، شيء شيطاني... والناظر اليه يحس انه ازاء رجل ملؤه العبقرية والقدرة ، وتفوقه الذهني يفرض على من حوله سلطانـاً لا يقاوم... وهو رجل متحرر من قيود العـادات... وليس لديه ساعـــات منتظمة للنهوض والرقاد... وفي اغلب الاحيان يسهر الليالي بكاملها ، ثم يتمدد ُظهراً على اريكة ، ويرقد حتى المساء غير آبه بالزائرين الذين يدخلون الى منزله ، ويخرجون ، كأنهم في طاحون... »

« امـا زوجه (وهي شقيقة وزير الدولة البروسية) فسيدة مثقفة ، لطيفة، اعتادت البؤس، ورضيت بهذه الحياة البوهيمية. ولها ابنتان جميلتان ، وغلام لا يقل عنهما جمالاً ولطفاً » .

« وحين يدخل الزائر الى بيت ماركس ، تستقبله سحـابة من الدخان الكثيف ، حتى ليضطر الى تلمس طريقه بيديه كأنه في كهف مظلم... وليس في هذا ما يضايق ماركس وزوجه ، فمـــا ان تدخل الى البيت حتى تستقبل بالترحاب ، ويؤتى لك بغليون ، وتبغ ، ومرطبات . وسرعان ما يجاذبك ماركس وزوجه اطراف حديث ذكي ماتع، فيعوضان عليك ما ينقص في المنزل من وسائل الترف... هذه صورة امينة صادقة عن الحياة البيتية التي يحياها الزعيم الشيوعي ماركس . »

ان جميع الوثائق (الرسائل الى ويدمير، وانجلز ، وذكريات ليبناخت ولافارج الخ...) تؤكد صدق هذه اللوحة، وترينا ، في ما سماه الجاسوس البروسي « الحياة البوهيمية » التي يحياهـا ماركس ، حرية كاملة في العـــادات والافكار والتصرفات ، وعذوبة وحنانـاً لاحد لهما ، ومرحاً وصدق مودة ، وعافية نفسية ، وتوازناً صمد لضربات القدر .

وليس من سقط القول ان نشير ، منذ الآن ، الى هذا الجانب الانساني من حياة كارل ماركس .

تروي ابنته اليـــانور في كتابها الصـــادر بعنوان :

« اوراق متناثرة » ان كل عضو من اعضاء الاسرة كان يحمل لقباً طريفاً . فكانت جيني تسمي كارل ماركس « المغربي » بسبب سمرته . وكان اولاده يسمونه « ديفل » او «اولدنك ». وتروي اليانور « ان « المغربي » كان جواداً رائعاً نشيطاً... « وكثيراً ما كان اخي واخواتي يشدونه الى اريكة كما يشد الجواد الى العربة ، ويجلسون على الاريكة : وقد كتب بعض فصول كتابه « ١٨ برومار » واولاده الثلاثة الصغار يمتطونه ، وينهالون على جنبيه بالسياط ... »

وحافظت اسرة ماركس ، رغم الفقر والاضطهاد ، على مرحها ولطفها . كانت تستقبل الزوار والجيران كل ليلة ؛ فتغني بعض اغاني الزنوج . ويرقص الجميع ، او يخرجون الى الريف ، بعضهم سيراً على الاقدام ، والآخرون يمتطون الحمير . وكان كارل ماركس وزوجه يتمتعان بثقافة واسعة، وذاكرة عجيبة، وكان في وسعهما انشاد فصول كاملة من ملحمة «الكوميديا الالهية» او فصول كاملة من مسرحيات شكسبير (راجع ذكريات ليبناخت ») وكانت اسرة ماركس تحس نحو شكسبير بنوع من العبادة . ويبدأ نقد مفهوم « المال » في مخطوطة عام ١٨٤٤ بفقرة طويلة مأخوذة عن شكسبير : « ايها الذهب ! ايها الذهب الثمين ، البراق ؛ انك تصيّر الابيض اسود ، والقبيح جميلاً ، والشر خيراً ، والعجوز فتياً ، والجبان باسلاً... هذه العبودية الحمراء القانية هي التي تعقد الروابط المقدسة وهي تحلها . انها

تُبارك الملعون ، وتُشرّف السارق، وتضمن له الجاه، والاجلال والنفوذ في « مجلس الاقدمين » . وهو يجيء الارملة العجوز بالعشاق!... باللمعدن الملعون!... (شكسبير — دفة اثينا) .

ان المفكر الذي رسم ملامح **الانسان الكامل** ، الانسان الكل ، وهيأ هذه الفكرة ، ووطأها لجهود الانسان الصاعد نحو تحقيق ذاته تحقيقاً حراً ، هذا المفكر عرف بنفسه الحياة المليئة الكاملة .

لقد ملك الحب ، وبلغ المعرفة ، ودلل على بسالة في العمل والنضال. واخيراً وجد الصداقة الكاملة حين تعرف الى فريدريك انجلز ، محققاً بهذه الصداقة حلماً تاريخياً قديماً ، يصور رجلين عبقريين تجمعهما اواصر العبقرية والفكر .

٥ — ماركس والفلسفة

نعود ادراجنا الى عام ١٨٣٧ ، لنستكمل سيرة كارل ماركس الفكرية . في ذلك العام دخل الى كلية الحقوق في برلين ، وجعل يتابع محاضرات ستيفنسن في الانتروبولوجيا (التاريخ الطبيعي للانسان) ويتابع محاضرات « غان » في الحقوق الجزائية. وكان غان من اتباع هيجل التحرريين وعلى شيء من الميل الى سان « سيمون » . وكان ماركس يتابع ايضاً محاضرات كارل فون سافيني ، وهو المؤسس الشهير لمدرسة الحقوق التاريخية والرجعي المناهض للهيجلية (وقد حدس بما في

فلسفة هيجل من عناصر ثورية .)

ورأى مـاركس في برلين كيف يضطهد الفكر ، وكيف يسيطر الاستبداد السياسي على الناس ، دون ان يلقى معارضة تذكر ، ودون ان يتذرع بالحجب والاستار .

في ذلك الزمن امر احد موظفي الرقابة (وقد كان لماركس معه شأن فيما بعـد ، حين اصبح ماركس مـديراً لصحيفة رينخ زيتونج) امر بمنع نشر «الملهاة الالهية» لدانت ، باللغة الالمانية ، موقعاً على المخطوطة بهذه العبارة: «يجب ان لا يُتَلهّى بالامور الالهية ! »...

وفي برلين ، سرعان ما هجر الطـالب الشاب نظم الشعر ، ودراسة الحقوق، فقد اكتشف **الفلسفة**. وحاول كارل ان يُخضع افكاره التشريعية لبعض النظام ، فكتب الى والده يقول : « دون مذهب سياسي منظم ، لا يبلغ الانسان اي غاية !...»

وتقدم لنا مراسلات كارل ماركس في هذه المرحلة ، ولا سيما رسالته الى والده بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٣٧ (المؤلفات الكاملة جزء ١ – ص ٢١٣ – ٢٢١) معلومات دقيقة عن هذه الازمة الفكرية الاولى : « لا يستطيع الشعر ان يكون ، ولا يجب ان يكون ، الا هـــامشاً جميلاً . كان علي دراسة الحقوق ، ولكنني احسست بميل خاص الى الفلسفة . »

وقبيل ذلك ، ورغم مقاومته العنيده ، احسّ ماركس بأنه

« مثالي » (من الناحية الفلسفية...) فخـاض عباب المذاهب السياسية « عاقداً عزمه على اكتشاف الطبيعة الفكرية الروحية التي تساوي علوم الطبيعة ، حتمية ، وموضوعية ، ورسوخاً في الاسس . وكان يريد ايضـاً اكتشاف الفكر في ثنايا الواقع » وفي البدء، لم ترق له **انشودة** المثالية الهيجلية المتنافرة الناشزة... ولكنه احس وهو يكتب حواراً سمـــاه « الفلسفة والمحتوم المطلق » ان مؤلفـه ، ان ولده « قد حمله والقـــاه بين يدي العدو... ، كما تفعل عروس البحر الخائنة » .

هذه الازمة الفكرية التي عاناها ماركس ، هذا التحول من واقعية الحقوق والتشريع ، الى مثالية هيجل ، عرضه للمرض . وفي اثناء مرضه تابع قراءة مؤلفات « هيجل ». وفي نهاية ١٨٣٧ غدا كارل ماركس **هيجلياً** دون ان يكف ، رغم ذلك ، عن الاحساس بعقبة التعارض بين الفكر المثالي ، والواقع ، ودون ان يكف عن نشدان الفكر في ثنايا الواقع .

اذن مـا هذه النزعة المثالية الهيجلية التي اعتنقهـا الفيلسوف الشاب ؟

ا ــ في اواخر القرن الثـــامن عشر ، حلت محل الفلسفة الليبرالية التحررية المتفـائلة التي كانت سائدة طوال هذا القرن ، والمؤسسة على افتراض انسجام بين الفرد والمجتمع (بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة) بين الاحاسيس والعقل الخ... حلت محل هذه الفلسفة نظرية اخرى تختلف عنها اختلافاً كبيراً. وكان

«كانت » Kant واتباعه (ولا سيما هيجل) اول المنادين بها .

ولا يمكن من الناحية التاريخية ، فصل هذه الفلسفة الجديدة عن العهد الثوري . فلقد شهد الفلاسفة انقلابات ذلك العهد واضطراباته ، ورأى الالمان ، بخاصة ، زوال المانية القديمة ، الصادرة عن القرون الوسطى ، المانية البطريركية العاطفية ، الحالمة الشعرية ، الموسيقية، ولكن المحدودة، المجزأة الى دويلات اقطاعية ضيقة. وفي جميع الارجاء، كانت الرأسمالية تنشأ، وكانت البورجوازية الصاعدة تفجر الأُطر الاقطاعية القديمة . وكانت فرنسة قد اتمت ثورتها ، والمانية تجنح في حرارة وغموض نحو ثورتها التي تحقق لها وحدتها القومية وحريتها السياسية معاً. وكان الفلاسفة الالسنة المعبرة عن هذه الميول العارمة ؛ والفلسفة الالمانية تنم حقاً عن هذه الاهداف (ولكنها تنم ايضاً عن العجز التطبيقي العملي والسياسي الذي كانت تعانية بورجوازية البلاد الديموقراطية الليبرالية) .

وفي البدء ، اكتشف الفلاسفة التقدم ، ففي حقول الحياة المعنوية ، والمعرفة ، والحياة الاجتماعية ، يعبر الفكر عن ذاته بحركة . فثمة **تاريخ**، ولا يعيد الماضي نفسه اعادة رتيبة محضاً، وليس ثمة من ركود ابدي .

ولكن هذا التقدم لا يتم في هدوء، وفقاً لقوانين انسجامٍ سابق الوجود ، وانما هو يتم خلال تناقضات عديدة . واحل هيجل محل النزعة التفاؤلية الهينة التي كانت سائدة في القرن

الثامن عشر، فلسفة تدرس، قبل كل شيء، ما في الحياة والفكر والمجتمع من متناقضات ، في سبيل اكتشاف الحركة (الصيرورة – التقدم) التي تتم خلال هذه المظاهر .

هذا ما يسمى بالديالكتيك الهيجلي .

ب – فيم تتلخص النزعة المثالية ، عند هيجل ؟

يضع هيجل في ذروة مذهبه الفلسفي « الفكرة » المطلقة l'Idée Absolue . والفكرة ، في نظر هيجل ، إله لاديني . انها نمط من انماط الروح الصرف الموجود قبل الكون ، قبل الفكر البشري ، وهذا الذي خلق هذين العنصرين . وقد جرد الفيلسوف الهه من مختلف صفات الاله التقليدي الذي يؤمن به رجال اللاهوت . فقد جرده من نوبات غضبه وحنانه ، وجرده من الارادة . وماذا ترك له ؟ ترك له المعرفة ، بما تحمل هذه الكلمة من معنى في حقل الفكر العلمي . **والفكر** ، في نظر هيجل ، **انما هو العلم المطلق ، والمعرفة الكاملة .**

صحيح ان اللاهوتيين كانوا يقولون « ان الله يعلم كل شيء » ولكنهم كانوا ينسبون اليه ايضاً اشكالاً والواناً من الصفات التي تشبه صفاتنا الانسانية : فهو يلد كما يلد الآباء ، ويغضب ، ويجازي ، ويكافيء.. الخ... اما في فلسفة هيجل ، **فالفكرة** علم صرف .

ولكن كيف يمكن ان يوجد العلم قبل وجود الناس ، وقبل وجود العقول التي تبحث عن المعرفة ، وتدركها ، وقبل

وجود الاشياء والموضوعات التي يتوجب على العلم ان يجدها ؟

علينا ان نفهم ـهناـ ما تتضمن النزعة المثالية من **مفارقات.** يقول هيجل ان الفكرة تكون موجودة قبلنا ، وقبل تاريخ الفكر والحضارة، وقبل تاريخ الكون . ولكنها تكون عندئذ **غير واعية** وهي لا تستطيع ان تغدو واعية ذاتهـــا الا في تناقضات : اثر اصطدامها بعقبات ، وحواجز ، واثر منازعات تعانيها . وماذا تفعل عندئذ ؟ انهـــا تخلق العالم ! والطبيعة ، والكون ، والانسان ، وتاريخـــه – اشياء تختلف عن الفكر الصافي المحض ، بل انها لفي تناقض معه . فالمادة تناقض الروح، والفكر، وتجبهها. ولكن خلال هذه المناقضة –خلال جميع انواع المتناقضات في الطبيعة والانسان والتاريخ– تبدأ الفكرة المطلقة تعي ذاتها. وهي تستبين (تعبر عن ذاتها) في الافكار الانسانية، والعقول ، ولا سيما المعرفـــة ، والعلم البشري ؛ اذن فمحرك الانسان والتاريخ والحياة الاجتماعية، والحياة المعنوية والسياسية، ومحركات البحث عن الحقيقة ، تنحصر كلها ، كما يرى هيجل ، في هذه **الفكرة** المطلقة . والصيرورة وجميع تناقضاتهـا تفسر بهذه الفكرة . والكون والطبيعة انما همـا نتيجة « تعبير خارجي » – او تجسيد خارجي – عن الفكرة ، وانحطاط يصيب الفكرة حين تتجسد ، ثم بعد ذلك تستعيد ذاتهـا الاصلية ، وتعود الى ذاتها حين تعي ذاتها...

يبدو هذا المذهب، من النظرة الاولى ، عجيباً في مفارقاته.

وانه لكذلك ! ومن المحتمل ان يدهش الطـــالب الذي يريد درس هذا المذهب وفحصه... وهذا بالضبط ، ما حدث للفتى ماركس .

فالمثالية الهيجلية توحي لنا بأننا في متاهة وضلال ، وان كل شيء انقلب اسفله اعلاه . فكيف يمكن ان تكون **الفكرة** غير واعية ؟ وكيف يمكن ان يوجد العلم المطلق قبل وجود العقول الانسانية التي تصنع العلم ؟ وكيف تستطيع فكرة غير مادية ان تخلق المادة والطبيعة ؟ أليس من المحال ، واللامعقول ، ان ننسب الى «فكرة» غير واعية هذه العملية الادراكية التي يبدو انها تتطلب الوعي : وهي ان تخلق العالم لكي تعي ذاتها .

يخيل الينا ان نظرية الفكرة المطلقة ، المجردة ـ هذه المثالية ـ تنأى حقاً عن الحس السليم ، وعن التجربة التطبيقية، وعن الحياة الواقعية ، ولا يمكن ان يصدق بها الانسان الا اذا تخلى عن هذه العناصر كلها . وكذلك يحس الدارس بأن نظرية المناقضة هذه، هي في ذاتها متناقضة مع ذاتها !...

وسوف نرى ان هذا الاحساس كان صـادقاً . وان الفتى ماركس تخطى المثالية حين اعمل فكره فيها . ولكن تجدر بنا الملاحظة بأن تهافت النظرية الهيجلية ، وتناقضها مع ذاتها ، ليس بأغرب من تهافت اللاهوت وتناقضه مع ذاته ، « فعلم » اللاهوت يفترض هو نفسه ايضاً روحاً مجردة صرفاً، او وجوداً غيرمادي، ـ فالله في رأيهم هو الذي خلق المـادة ـ ولا يمكن الزعم بأن

هذه النظرية تتضح لانها تنسب الى هذه الروح المحض (على نحو يختلف في درجات الوضوح) اهواء، ومشاعر، وعواطف تشبه العواطف الانسانية: كالغضب، والجمال، والرغبة في المجد، او في الانتقام، او التلذذ بعبادة المخلوقات لها الخ...

ان هذه النظرية اللاهوتية تخاطب الخيال. فالاله الذي يرسل الملائكة، ويكوّن قوس قزح، لا يخلو من شعر. ولكن الشعر لا يعني الحقيقة دائماً! فاللاهوت التقليدي من الناحية الفلسفية، انما هو مثالية كسائر المثاليات، ولقد اكتفى هيجل بتنقية هذه المثالية، واكتفى بأن ينسب الى الهه الفلسفي أخلص ما فينا من عناصر عقلية: الرغبة في الحقيقة، والمعرفة.

حين يتحدثون (وكثيراً ما يتحدثون) عن الافكار العظيمة الكبرى، التي تقود العالم، وعن: فكرة العدالة، والمحبة الخ... فانهم هيجليون، وعلى نحو من الهيجليه الغامضة المنحرفة، ولكن دون تغيير جوهري.

فتناقض المثالية مع ذاتها ترضى به — اذن — عقول كثيرة: ونخص منها بالذكر جميع الميتافيزيقيين الغيبيين، وجميع الفلاسفة التجريديين، فهم يفكرون، بعد ان يقلبوا نظام الامور الطبيعية رأساً على عقب. وهم يضعون العربة امام الجواد، **والفكر المطلق**، قبل الافكار الانسانية، **والعلم** قبل العلماء. ان غاية التاريخ، والثقافة، والانسان، يسبق وجودُها — في نظرهم — وجودَ التاريخ والثقافة والانسان في حياة الواقع. وكما

كتب ماركس وانجلز في مؤلف « الاسرة المقدسة » ، حين شرعا بمحاكمة الفلسفة المثالية : « ان الاب يجد تفسيره في الابن، والنهاية تفسر البداية » !...

وكانت الفلسفة المثالية تقدم نفسها للناس بأنها نظرية **الصيرورة** المتناقضة ، نظرية **التاريخ** ، والواقع ، اكثر مما تزعم انها علم لاهوت لاديني .

ولكن هيجل ، الفيلسوف الذي كان يحمل في رأسه وفي فكره « **الفكرة العليا** » المجردة، كان يتذرع ايضاً بهذا السبب ليدعي لنفسه حق الحكم على التاريخ، وتحديد ما هو واقعي وما هو غير واقعي .

كان هيجل يحصر في نفسه ، وفي زمنه ، التاريخ البشري ، وتقدم المعرفة ، لسبب واحد ، وهو ادعاؤه انه يحمل في ذاته « الفكرة العليا » المجردة، اي المعرفة النهائية الكاملة، وكذلك يظن انه يقدم في مذهبه الفلسفي المعرفة النهائية الكاملة ، تلك التي تشمل جميع الاشياء والتي لا يمكن ان تزداد ذرة واحدة من بعده !...

اذن اصبحت نظرية الصيرورة المتناقضة (بعملية متناقضة عجيبة) الاقصوصة التي يدافع بها هيجل عن زمنه ، وعن « الواقع » الذي كان سائداً ومتكاملاً في ذلك العهد .

وهذه المفارقة ليست اقل غرابة من مفارقة الفلسفة المثالية ؛

فالفيلسوف هيجل، الذي توصل الى صياغة «مذهبه» بعد التفكير في تناقضات عصره الثوري، غدا رجلاً رجعياً، والفيلسوفَ الرسمي للدولة البروسية ، والعميدَ الاعلى للتعليم الحكومي ، والمدافعَ الاول عن الدولة المستبدة .

منذ عام ١٨٣٧ ، وبسبب من تأثير « غان » بخاصة ، كان نفر من الطلاب والفلاسفة الشبان قد اكتشفوا هذه « المفارقة »، هذا « التناقض » في فلسفة هيجل . وكانت الحركة الديموقراطية قد انبعثت في اوروبا وفي المانيا بخاصة ، فرأى هؤلاء انه من غير المعقول دفاع الفلسفة الهيجلية عن الجمود والسكون ، وعن الروح المحافظة والرجعية ، بدلاً من ان تمتد – خلال تناقضات العصر – في حركة جديدة من الافكار ، والاعمال . ولم يقتنع هؤلاء بأن الشيء المحتوم المترتب على الديالكتيك هو استقرار الاوضاع ، والمحافظة على المؤسسات الاقطاعية ، والامتيازات الاقطاعية ، ومنظمات الاكليروس الحكومي الرسمي . وانما عمدوا ، على العكس ، الى الديالكتيك ، ليستمدوا منه قوى جديدة في سبيل انشاء **فكر نقدي** .

هؤلاء الهيجليون الشبان ، او « اليساريون من اتباع هيجل» كانوا يلحون في توكيد الجانب الثوري من ديالكتيك هيجل ، وكانوا يعيدون اليه حقيقة ما يرمي اليه من نظرية الصيرورة التطورية ، التي تنطلق دون توقف ، خلال التناقضات الناشئة باستمرار...

أعطى دافيد ستراوس شارة البدء في تجديد الفلسفة الهيجلية على هذا النحو، سنة ١٨٣٥ ، حين اصدر كتابه « حياة يسوع » (الكتاب الذي اكتفى رينان Renan فيما بعد بترجمته موسعاً !) . وكان نشر هذا الكتاب حدثاً عالمياً ؛ فهذا مفكر هيجلي يهاجم الدين الرسمي للدولة ؛ وهذا موضوع يعد بين اقدس الموضوعات، يدرس الآن ، ويعتمد المؤلف لدراسته طرق النقد التاريخي ، ومناهج العقل . وحين كتب ماركس « ان نقد الدين هو الشرط الاول لكل نقد . » فلا شك في انه كان يفكر في مؤلف ستراوس .

وتجمع الهيجليون الشبان في نادٍ سموه نادي « الدكتور كلوب » وكان المع اعضائه واعظمهم تأثيراً برونو بوير ، وكان يتابع ، في اسلوب مبدع ، ما بدأه ستراوس في نقد المسيحية .

قُبل كارل ماركس فوراً في نادي « الدكتور كلوب » وكان يشارك ، في ذلك العهد ، بوير جميع افكاره . اما الهيجليون الشبان فكانوا ما يزالون مثاليين ؛ وكانوا يؤمنون بنوع من تجديد يصيب الانسان والمجتمع ، اكثر من ايمانهم بالثورة . وكانوا يرون بأن الفكر ، والنقد الحر ، يكفيان للقيام بهذا التجديد . وكان اقصى ما يمكن ان يذهبوا اليه « ثورة في الضمائر... » لا ثورة سياسية .

واكسبهم هذا الموقف ابياتاً في الهجاء لم يعرف قائلها، ومنها:

« اعمالنا اقوال . وسوف تبقى اقوالاً .

« واذا كان التجريد ، كان العمل !... »

☆ ☆ ☆

ولكن طرد الاساتذة الجامعيين الذين لم يرضوا بقسم الاخلاص لملك هانوفر (بعد خرق الدستور الذي رضيه هو نفسه اساساً للحكم) دفع «الدكتور كاوب» نحو العمل السياسي، ودفعه نحو اقصى اليسار المتطرف . وفي عام ١٨٤٠ ، غيّر النادي اسمه فأصبح « نادي اصدقاء الشعب » .

وكانت شخصية كارل ماركس القوية تتكامل وتتوطد . وقد وصفه احد اصدقائه هيس بهذه الكلمات في رسالته الى اورباخ ، في الثاني من ايلول ١٨٤١ :

« ان اعظم فيلسوف معاصر، بل الفيلسوف الحقيقي الاوحد، الدكتور ماركس ، ما يزال في ريعان الشباب ؛ انه هو الذي سوف يجهز على الدين ، ويسدد اليه الضربة الاخيرة، ويقضي على اساليب السياسة التي نشأت في القرون الوسطى. وهو يجمع الى الوقار الفلسفي العميق الكامل ، ذهناً لا حد لارهافه ؛ تصور روسو ، وفولتير ، ودولباخ ، وليسنج ، وهاين ، وهيجل ، موحدين في رجل واحد ! اقول « موحدين » لا مختلطين كيفما اتفق ، ودون انسجام — تصور هذا كله وعندئذ تعرف من هو كارل ماركس ... »

في الثلاثين من آذار ١٨٤١ حصل ماركس من جامعة برلين على الشهادة النهائية ؛ وفي ١٥ نيسان قدم في إيينا اطروحته لنيل « الدكتوراه » : « الاختلاف بين فلسفة الطبيعة عند ديموقريط وبين فلسفة ابيقور » .

وهذه الاطروحة ، الهيجلية التعابير ، تدلنا على مشاغل الفيلسوف الشاب . فهو يدرس الفلاسفة الماديين القدماء . وكان يرى ان فلسفة أبيقور تحول النظرية الذرية عند ديموقريط وتغنيها فهذه النظرية الديموقريطية كانت بدائية في ماديتها ، تفسر كل مظهر من مظاهر الكون بجسيمات مادية جامدة، وهي الذرات، وقد ذهب ماركس الى ان ابيقور اكتشف في الذرة مركزاً للطاقة والقوة . فالطبيعة تستعيد حياتها ؛ لذا تستعيد الشخصية الانسانية الفردية مكانها ومعناها في الفلسفة المادية المتطورة التي جاء بها ابيقور .

٦ ـ ماركس يخوض النضال

كان ماركس في ذلك العهد (١٨٤١ - ١٨٤٢) يطمح الى كرسي لتدريس الفلسفة في جامعة بون. ولكن ارتقاء فريدريك غليوم الرابع الى العرش ، وسياسته الاضطهادية الجائرة، وطرد برونو بوير من الجامعة ، خيبت آمال ماركس ، وصرفته عن طموحه . وكتب ماركس (في اوائل عام ١٨٤٢) مقالاً عنيفاً هاجم فيه « الرقابة البروسية » ولم يستطع نشره الا في

سويسرة ، بعد مضي عام .

وعلى الرغم من انه كان مهدداً في مستقبله، وفي حب جيني، وعلى الرغم من انطلاقه في المعارضة السياسية ، ونزاعه مع اسرته، ظل محافظاً على مرحه وثقته بنفسه .

وتروي رسالة كتبها «برونو بوير» مغامرة قام بها ماركس، في عربة تجرها الحمير ، ركبها ودفعها بأقصى سرعتها على طريق تفضلها الطبقة البورجوازية لنزهتها الهادئة...

صحيح ان صديقـــاً آخر يتحدث عن ماركس ويصفه بأنه « ثوري يائس » ولكن ماركس كان يتلمس طريقه...

وَسَعَتِ الاحداث اليه سعيها . وكانت المعارضة الليبرالية الديموقراطية تشتد في رينانيا، ولا سيما في « كولونيا » . وكانت عندئذ مركز الصناعة الالمانية . وأحست جماعة من الصناعيين والتجار والكتاب (ومنهم هس صديق ماركس) بالرغبة في اعطاء هذه المعارضة المبهمة لساناً ناطقاً . فأسست صحيفة « رينخ زايتونج » واستطاع هس طرد « فريدريك ليست » من ادارة الصحيفة (و« ليست » هذا هو صاحب مؤلف « نظام الاقتصاد السياسي القومي » الذي تبناه الهتلريون فيما بعد) .

وغدا روتنبرج ، احد اعضاء « الدكتور كاوب » وهيس ، وماركس مديري الصحيفة. وافتتح ماركس حيـــاته الصحفية السياسية ، في الخامس من نوار ١٨٤٢ ، بمقـال مرموق ، في

موضوع كان وما يزال في الدرجة الاولى من الاهمية : حرية الصحافة (راجع المؤلفات الفلسفية - ترجمة موليتور - ج ٥ - ص ٨ الخ ...)

لم يكن ماركس في ذلك العهد اكثر من ديموقراطي ليبرالي مثالي . وكان يكتب ، فيوجه كتاباته الى « الرأي العام » لا الى الشعب ، وكان يقول انه يهدف الى «تنوير» الرأي العام - وكان مايزال يؤمن بأنه يستطيع دفع التاريخ قدماً بوساطة الافكار ...

وكان شبح الشيوعية يهدد اوروبة ويهيم في آفاقها ، وفي كل مكان ، كانت اسماء الاشتراكيين والشيوعيين تتردد ، بشيء من الرعب ، ومن بين هذه الاسماء : برودون ، وكابيه ، وديزامي (وقد نسي اليوم) .

وفي تشرين الثاني ١٨٤٢ نفى ماركس في صحيفته ان يكون شيوعياً . بل اعلن عن عزمه في نشر دراسة تنقد الشيوعية - ولاعداد هذه الدراسة انصرف الى قراءة مؤلفات النظريين الفرنسيين .

كان ماركس في تلك الايام يعارض ، حتى في النزعة الراديكالية التي ينادي بها الاخوان بوير (إدغار وبرونو) وكان يعلن انه احد هؤلاء الرجال التحرريين المسالمين الذين يناضلون في سبيل الحرية مع بقائهم في نطاق الحدود الدستورية !...

وليس ثمة ما يسمح لنا بالشك في اخلاصه لموقفه هذا المؤقت ؛

ولكن الاحداث تكفلت بنزع الغشاوة عن عينيه .

كان ماركس رئيس تحرير الصحيفة ، فأتيح له ان يدرس كثيراً من المسائل العملية الملموسة ، فيما كان اكثر زملائه واصدقائه يكتفون بالمسائل الفلسفية المجردة. وعُرض على مجلس « الدياتا » la Diète في رينانيا ، مسألتان مهمتان ، اقتصاديتان وتشريعيتان ؛ فإن تزايد العقوبات المالية المفروضة بسبب « سرقات الحطب » كان له معنى مزدوج : بؤس الشعب ، وقسوة الاضطهاد الاقطاعي ، وكان الملاكون العقاريون قد حكروا اموال الفلاحين واراضيهم واستولوا عليها بعد ان نسفوا مبادىء « الحقوق المكتسبة والعرفية » ، وكانت هذه تعبيراً عن الحقوق القديمة ، حقوق جماعات المزارعين والفلاحين. فالفلاحون بجمعهم الحطب اليابس ، بل بقطعهم الخشب من الغابات ، ما كانوا يسرقون ، وانما كانوا يتبعون العرْف . لقد دافع ماركس عنهم دفاعاً بليغاً ، مشدداً على اهمية النزاع ، موضحاً ما غمض من جوانبه ، مبيناً وجه التناقض والمنازعة بين هذين الشكلين الحقوقيين : الحقوق العُرفية التي كانت للجماعات المزارعة على الغابات ؛ والحقوق المهيمنة في الدولة ، والمؤسسة على الحق المطلق في الملكية . « في هذا العرف وهذه العادات التي تتمسك بها الطبقة الفقيرة ، معنى بنّاء من معاني الحقوق . وهذا الاساس ايجابي مشروع. » والقانون الذي يعاقب مرتكبي سرقات الخشب عقاباً شديداً لا يمكن اعتباره قانوناً خالداً ، لا

يتزحزح ، حتى ولا في تعبيره عن مصالح الدولة .

كان ماركس يرى في هذا القانون تعبيراً عن بعض المصالح الخاصة وعن الجشع المقيت. (انظر مؤلفات ماركس الفلسفية)

ودافع ماركس ايضاً عن الكرّامين الموزيليين ، وكانوا يعانون اقسى درجات البؤس . وكان مجلس « الدياتا » قد رفض اقتراحاً ينص على منع الكرامين من تجزئة الاراضي لبيعها . فبين ماركس ان بؤس الكرامين يطرح على بساط البحث مسألة اقتصادية واجتماعية ، لا مسألة تشريعية وحسب .
لقد اكد ماركس ، في مناسبات كثيرة ، كما يقول انجلز ، انه حُمِل بهذه الطريقة على معالجة المسائل الاقتصادية ، وانه اتبع هذه الطريقة واقتصر عليها ليغدو اشتراكياً .

وماركس لم يخرج – اذن – عن نطاق الفلسفة باسم الفلسفة وحدها . وانما احتاج الى ملامسة الحياة الواقعية الحقيقية ، والى الاحتكاك « بالملموس » الاجتماعي الانساني .

بهذه الطريقة ، لا سواها ، تحول من الفلسفة النقدية الى نقد الفلسفة **نقداً اجتماعياً** .

وهذا لا يعني انه هجر الفلسفة ، بل ان حركة تفكيره كانت اكثر تعقيداً وتطوراً . وعلى العكس ، فان المظهر المادي الملموس، المحتوى الحقيقي للفلسفة الهيجلية، قد سلطت عليه اضواء جديدة. والواقع أن هيجل حين حلل متناقضات التاريخ تحليلاً « ديالكتيكياً »، اكد على اهمية « علاقة العبد بالسيد » (كتاب

علم ظاهرات الروح والفكر - هيجل) .

هذه العلاقة الاجتماعية ، هـذا النزاع الدائم ، سوف يضعه ماركس في المرتبة الاولى من سلم الفكر ، وهكذا يتخذ هذا النزاع اهمية حاسمة ، لاتصاله اولاً بالاحداث الواقعية ، ثم لانه كان المرتكَز الاول في التحليل النظري **لصراع الطبقات** ، وهو مبدأ كان المفكرون الفرنسيون اول من ذهب اليه .

ولفتت جرأة الصحفي الشاب ، ونزعته التحررية في مقالاته (ومقاله عن حرية الصحافة اصاب الاستبداد البروسي في الصميم) لفتت اليه انظار الجمهور ، والسُلطات...

وفي الرابع من كانون الثاني ١٨٤٢ نشرت الصحيفة مقـالاً عنيفاً في السياسة الدولية يبين ان روسيا القيصرية هي عمـاد الرجعية الاوروبية. وتدخل القيصر وسفيره في بروسيا، فعطلت الصحيفة ، وصدر آخر اعدادها في ٣١ آذار .

وعلم ماركس ان مرحلة النضال بأسلحة الفكر وحدها ، قد انتهت ، وفهم ان سلاح النقد يجب ان يتحول ، فيغدو في مستقبل قريب ، نقداً ُعدته الاسلحة : « **يجب ان ُتقلب القوة المادية ، بقوة مادية نظيرها ؛ ولكن النظرية تغدو هي نفسها قوة مادية ، حين تحرك الجماهير وتذكي عزائمها.** » (« الاسهام في النقد الفلسفي للحقوق عند هيجل » — ماركس) .

٧ – ماركس في باريس

بعد تعطيل الصحيفة ، اقترح ماركس على صديقيه بروبل وروج (وهما مفكران شابان ايداه في التحول عن افكار هيجل وعن اتباعه المنصرفين الى « نقد النقد » المجرد !) تأسيس مجلة شهرية .

وتأسست هذه المجلة ، وسميت «الحوليات الفرنسية الالمانية» وكان لودفيج فيورباخ، الفيلسوف **المادي** ، قد اشار ، من قبل، الى ان الفكر الكامل يجب « ان يتحلى بقلب فرنسي ورأس الماني » يعني ان يكون قلبه ثائراً وعقله فلسفياً منظماً . فكان على مجلة ماركس الجديدة ان تعمل اذن في سبيل « الاتحاد الثقافي » بين الفكر الالماني والحركة الفرنسية الثورية .

ولكن اين تقوم ادارة هذه المجلة ؟ – في باريس ، عاصمة « العالم الجديد... » في اكتوبر ١٨٤٣ وصل ماركس الى باريس مع زوجه الشابة ، ونزل العاصمة، وفيها تعلم كيف « يتحدث بالفرنسية » اي كيف « يفكر ثورياً » .

وصدر الجزء الاول – الاوحد – من هذه المجلة ، في اواخر شباط ١٨٤٤ . وهو يتضمن ، في ما يتضمن ، مقالين مهمين جداً، بقلم كارل ماركس. احدهما عن «المسألة اليهودية»، وفيه ينتقد اليهودية انتقاداً مراً قاسياً دون ان يرحم المسيحية : « انها هي التعبير الفكري الرفيع عن اليهودية ، واليهودية هي

الوجه التطبيقي من المسيحية، وهذا التطبيق ما كان له ان يكتمل الا حين تفرغ المسيحية (وهي الدين الكامل) نظرياً على الاقل، من جعل الانسان غريباً عن ذاته وعن طبيعته. ولكن اليهودية استطاعت السيطرة ، باخراجها الانسان والطبيعة عن حقيقة ذاتيهما ، وجعلهما هدفين لعبودية جشعة ترتكز على الحاجة الانانية ، والمتاجرة . (ماركس - المؤلفات الفلسفية - الجزء ١ - ص ٢١٢) .

ونذكر ولا شك معنى كلمتي « التجسد الخارجي » extériorisation ، والانحطاط او التخلي عن الجوهر aliéna-tion . وفي مذهب الفلسفة المثالية الهيجلية ، تتجسد « الفكرة المطلقة » في الطبيعة المادية ، « وتنحط »- تنحرف عن جوهرها s'aliéne -- في المادة (يعني انها تصبح شيئاً آخر يختلف عن ذاتها ، عن حقيقتها الاصلية) فتظهر متجسدة في الكون ، والانسان ، والتاريخ .

منذ اوائل عام ١٨٤٤ ، اخذ ماركس بهذه المبادىء الاساسية من ديالكتيكية هيجل ، ليطبقها على الانسان ، فالانسان ينحط - يتخلى عن جوهره ، او ينحرف عن جوهره s'aliéne - ويغدو غريباً عن ذاته بأخذه بمبادىء الدين ، ومبادىء **المتاجرة** ، التي تجعل من كل شيء (ومن الانسان نفسه) سلعة وبضاعة . ولا يمكن فصل الدين عن المتاجرة . انهما مظهران لانحراف واحد ، عن الجوهر . ونجد التعبير

عن احدهمـــا في المسيحية « الرفيعة الرائعة » وعن الآخر في «اليهودية الجشعة »

ولم يكن ماركس وحده هو الذي تحول هذا التحول من نظرية في الفكر الى نظرية **في الانسان**. بل ان اصدقاءه القدماء والجدد (روج ، هس ، باكونين ، ستين ، وبخاصة : انجلز) كانوا يسعون الى الهدف ذاته: ان يتخطوا الفلسفة المثالية الهيجلية متجهين نحو الواقع ونحو العمل التطبيقي ، دون ان يتخلوا عما جاء به هيجل من مبادىء مخصبة . وكان على ماركس وانجلز ان يُتما وحدهمـــا هذه المهمة : صهر الفلسفة في معرفة الواقع الحقيقي .

وكان جميع هؤلاء البـاحثين يستوحون لودفيج فيورباخ . وهذا الفيلسوف المادي العظيم اصدر عام ١٨٤٣ كتابه «دراسات مؤقتة في اصلاح الفلسفة » و « مباديء فلسفة المستقبل » وكتب فيورباخ هذه الكلمات الحاسمة : « ان العلاقات الواقعية بين الفكر والكائن هي هذه : **الكائن ذات ، والفكر صفة من صفـات هذه الذات . الفكر يصدر عن الكائن، لا الـكائن عن الفكر . ان كل تفكير مجرد في الحقوق، والارادة، والحرية ، والشخصية ، يجري دون الانسان ، وخارج الانسان ، وعلى صعيد ارفع منه ، ليس الا تجريدا مفككـاً ، لا وحدة له ، ولا فـــائدة ، ولا قوام ، ولا جوهر ، ولا اساس ، ولا حقيقة!... الانسان هوالشرط الاول لوجود الحرية، والشخصية**

الفردية ، والحقوق. » (فيورباخ ، المؤلفات الكاملة ــ الجزء ٢ ص ٢٣٩)

وهذا يؤدي الى قلب اوضـــاع renversement الفلسفة الهيجلية المثالية ، لا الى تدميرها . وليست الفكرة المطلقة هي التي تلد الواقع ولادة سحرية خفية الاسباب . الفكر لا ينتج الكائن . انما الواقع هو الذي يلد الفكر . ويمكن ان تكون الفكرة من مظاهر الانحراف عن جوهر الانسان، (من مظاهر تخلي الانسان عن جوهره) ولكن الانسان لا يمكن مطلقاً ان يكون مظهراً من مظاهر انحطاط «الفكرة المطلقة» aliénation de L'Idée absolue.

والدولة السياسية، خاصة، لا يمكن ان تكون هي التجسيد الخارجي « للفكرة المطلقة » ولا يمكن ان تكون الدولة حقيقة اسمى من الانسان ، وانمـــا يجب ان تكون الدولة في خدمة الانسان . وكان فيورباخ قـــد اوضح هذه النتيجة الحتمية المترتبة على النزعة المادية، في مقال صدر عام ١٨٤٢ في «الحوليات الالمانية » وقد الح خصوصــاً على بيان نظريته في الدين . فهو يرى ان جميع اشكال اللاهوت (ولو نزع عنها الفيلسوف صبغتها الدينية) تؤدي الى انحطاط الانسان ، وفصله عن ذاته . اذ لا يوجد الانسان او الفرد الا بوجود الجنس البشري ، بوجود المجتمع . ولكنه يطلق من ذاته ، خارج ذاته ، افضل مـا في ذاته : الجمال ، والطيبة ، والقدرة ؛ وهو يطلقها في انعكاسات

خيالية تتألف منها الآلهة. وماذا يبقى للانسان ؟ انه عُرِّي من جمالاته ، وأُفقر ، فلم يبق له الا الانانية الفردية !... وعليه ان يستعيد ذاته ، ويتخلص من الانحراف الديني، لكي يحقق ذاته ، انسانيـــاً ، ويستعيد الوفـاق والوحدة مع ذاتـه ومع جنسه البشري .

اذن ، احدث هيجل انقلاباً في المثالية الهيجلية ، منطلقا من مبادئه الخاصة. فإذا كان العقل او الفكر المطلق هو الذي يلد المادة والطبيعة ، بانحطاطه ، فهذا يثبت ان المادة والطبيعة هما ايضاً من عقل وفكر .

(راجع « فلسفة المستقبل » وقد اوردها ماركس وعلق عليها في كتابه « الاسرة المقدسة ») .

وهكذا تحول فيورباخ ، بنقده هيجل واكماله فلسفته ، من الهيجلية الى المـادية . وكان فيورباخ يهدف الى اكمال نقد الدين بنقد الفلسفة المثالية . وقد لاشى هذا الفيلسوف المذهب الهيجلي بفتحه على الواقع وعلى المستقبل، ودمر « ديالكتيكية المدركات والمفاهيم الفكرية المجردة » وهي – كما يقول فيورباخ – حرب تجري بين الالهة ، ولا يعرفهـــا الا الفلاسفة!... » (الاسرة المقدسة)

وتستوحي دراسة ماركس « للمسألة اليهودية » كما رأينـا ، هذه المادية الفيورباخيّة ولكنها كانت بدأت تختلف عنهـــا في

مناحي مهمة، **ونخص منها بالذكر الفكرة القائلة بأن الانحطاط الديني – او انحراف الانسان عن جوهره بوساطة الدين – ما كان ينفصل في نظرماركس عن مظهر آخر من مظاهر « الانحراف » يخضع له الانسان ، وهو المظهر الاقتصادي** [المتاجرة] .

وهـــذا الاستيحاء ، او التأثر ، وهذا النقد الماركسي لموقف فيورباخ ، نجدهما في المقال الثاني من « الحوليات » وقد افرده ماركس لفلسفة الحقوق والدولة .

كان هيجل يرى ان الدولة (وهي التجسد للفكرة المطلقة) تنشيء نظاماً عقلانياً في المجتمع وفي الحياه السيـــاسية ، وهي تحافظ على النظـام . والمجتمع – في نظر هيجل – تنبع اصوله من « الدولة » ؛ والدولة السيـاسية – في رأيه – هي اسمى من الناس الخاضعين لها، وكان ماركس قد اعترف في السابق، وهو يدرس مسألة الكرامين الموزيليين درساً موضوعيـاً « بأن ثمة ظروفاً تحدد اعمال الافراد تحديداً محتوماً ، واعمال السلطات صـــاحبة الامر ، وهذه الظروف مستقلة عـن ارادة الافراد استقلال عملية التنفس عن ارادة الانسان» .

وفي مقال ماركس : (اسهام في نقد فلسفة الحقوق) وفي دراسة للموضوع نفسه انفرد بنشرها ريازانوف (في الجزء الاول من المؤلفات الكاملة – كارل ماركس – فريدريك انجلز) اشار كارل ماركس الى الافكار التي سوف يجد لها في المستقبل

صيغاً اكثر دقة . قال : « ان العلاقات التشريعية واشكال الدولة ايضاً ، لا يمكن فهمها اذا قصرناها على ذاتها ، ولا في نسبتها الى تطور شامل مزعوم، **للفكر البشري**. ان لها جذورها في ظروف الحياة المادية التي يسميها هيجل ، اقتداء بفلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين والانجليز ، باسم « المجتمع المدني » زد على ذلك ان علم تشريح هذا المجتمع المدني، وادراك وظائفه الحقيقية ، يجب ان يُطلبا في الاقتصاد السياسي. (مقدمة كتاب « نقد الاقتصاد السياسي »)

لم يكن تفكير ماركس في عام ١٨٤٤ قد بلغ بعد وضوحه العظيم ودقته الفريدة. وهو رغم ذلك يدلل بقوة على ان نقد الحقوق يجب ان ينطوي كذلك حتماً على نقد المجتمع الذي تعبر عنه هذه الدولة . (راجع ترجمة موليتور – المؤلفات الفلسفية – الجزء الاول الصفحة ٩٥)

وذهب كارل ماركس مباشرة الى ابعد مما ذهب اليه فيورباخ، فوصل الى اساس النظام التشريعي والسياسي الحديث: وهو الملكية الخاصة (ولم يحللها ماركس في ذاتها). فكيف نغير هذا التركيب السياسي ؟ نغيره بتغيير اساسه الاقتصادي والاجتماعي. وكيف يتم ذلك؟ أبالفكر المجرد؟ لا . «فالثورات تتطلب اساساً مادياً ، والنظرية لا تتحقق في شعب الا بمقدار ما تكون قادرة على تحقيق حاجاته. ولا يكفي ان يميل الفكر الى تحقيق هذه الحاجات ، وانما يجب ان يميل تحقيق الحاجات الى

الفكر . » . مـــا هو الشيء الذي يتحتم حدوثه – اذن – ليستطيع المجتمع التحرر من اشكال الدولة المضطهدة ، ولكي يغدو التحرر الكامل امراً ممكناً ؟ ان فرنسة افضل مثـال على ذلك : « لقد تداولت مختلف طبقـــات الشعب الفرنسي مهمة التحرير ، تباعاً ، في حركة دموية فاجعة ، حتى تسلمت هذه المهمة الطبقـة التي تحقق الحرية الاجتماعية بتنظيم جميع ظروف المعيشة الانسانية وفقـــاً لهذه الحرية الاجتماعية . » وهـذه الطبقة هي البروليتاريا . وهي لا تستطيـع التحرر الا اذا حررت المجتمع بكامله . فهناك طبقة من طبقات المجتمع البورجوازي موضوعة خارج هذا المجتمع ؛ وهذه الطبقة تتخذ طابعـاً شاملاً ، لا في المجرد ، وانما بواقع عذابها وآلامها . (انها تجسد كيف يفقد الانسان نفسه فقداناً تامـــاً ، ولذا لا يمكن ان تجد ذاتها الا اذا وجدت الانسانية كاملة . . .)

تدلنـــا هـذه الصيغة المرموقـة على الحيز الذي بدأ تحليل المتناقضات يشغله في فكر ماركس . وتدلنا كذلك على دور نظرية **الانحطاط او الانحراف عن الجوهر** ، الذي يعـانيه الجنس البشري ، ودور النزعة الانسانية ودراسة الحقائق الواقعية .

تنتهي هذه الدراسة بحـكم جديد ينفي قيمة الفلسفـة المجردة « ان الفلسفة لهي رأس التحرر البشري ، والطبقة الكادحة قلبه . ولا يمكن ان تتحقق الفلسفة بدون الغـاء ظروف البروليتاريا – ظروف عبوديتها الاقتصادية ، وهذا يعني الغاء وضع البروليتاريا

نفسه ـ ولا يمكن الغاء البروليتاريا ـ طبقة الكادحين الاجراء ـ دون تحقيق الفلسفة . »

ولا يعني هذا ان ماركس يرمي الى الغاء الفلسفة ، وانما هو يرمي الى تحقيقها réalisation وذلك بتخطي الفلسفة المجردة ، والغاء التجريد من الفلسفة التأملية الميتافيزيقية .

☆ ☆ ☆

لاحقت الشرطة البروسية والفرنسية مجلة « الحوليات » ونشب خلاف في الرأي بين ماركس « وروج » فأجهز على المجلة العاثرة الحظ . فأصدرت عدداً واحداً يتيماً !...

واثناء هذا العام الحاسم (١٨٤٤) احتك كارل ماركس بالاوساط الاشتراكية والشيوعية في باريس .

واسس بعض المثقفين المهاجرين رابطة سموها «رابطة المنفيين» وقد استوحوا عند تأسيسها نزعة انسانية معنوية واجتماعية ، على شيء من الغموض . وكان المفكر « الشيوعي » ويتلنج يهزأ بهم ويرى ان الاجدر بهم « تفصيل ازياء النساء... » وكان قد انفصل عنهم واسس جمعية ذات طابع « شيوعي » عمالي ، وهي رابطة « العادلين » ونشر بعض المؤلفات ذات الاتجاه الشيوعي. ونشر كارل ماركس مقالاً في « فوروارت » وهي صحيفة كان يصدرها المهاجرون ، فعبر عن اعجابه بهذا الاستهلال الرائع تعمد اليه البروليتاريا لبدء نشاطها في حقل الادب . »

بيد ان ماركس سرعان ما لاحظ عيوب هذه الشيوعية البدائية الخشنة ، او « المشاعية » بتعبير اصح ، وهي اقرب الى الصفة الحِرَفية منهـا الى الصفة البروليتارية (الاجراء من عمـال المصانع) ، وادنى الى ان تكون طوباوية خيـــالية لا علمية تجريبية . وكانت رواسب « المشاعية » الزاهدة ، التي نادت بها بعض الفرق المسيحية (الفرقة الانابابتية[1] مثلًا) تختلط اختلاطاً غامضاً بأفكار فورييه ، وسان سيمون ، وأوِن ، وبرودون وكان الكتاب المقدس المرجع الاول لهؤلاء « الشيوعيين »!... ومـــا كانوا يهيئون المستقبل بل كانوا يحلمون بالمـاضي السعيد ، « بالعصر الذهبي » وبالعهود التي سبقت الرأسمــــالية . وما كان يخطر في خلدهم ان المجتمع الحديث يحمل في ذاته ظروف تطوره الاجتماعي (الذي سوف تتمه الطبقة العاملة ، فهذه رسالتهـــا التاريخية) . وكانوا يتخاطبون بكلمة « يا اخي » ويولمون الولائم المقدسة تمهيداً لتعارفهم ، على طريقة المسيحيين الاول . وكان بعضهم انصاراً لتعدد الزوجات او لاشاعة المرأة !...

عرف ماركس هؤلاء ولكنه لم ينضم الى «رابطة العادلين» ، وانمـــا اخضع هذه « الشيوعية » البدائية الخشنة لاعنف النقد ، وقسا بخـاصة على نظرية اشاعة المرأة.. و « الشيوعية » البدائية

---

١) فرقة انشقت عن البروتستانتية ، وكانت ترى ان لا جدوى من تعميد الاطفال وانما يجب ان يخضع المؤمنون لعمادة ثانية عند بلوغهم سن الرشد
المعرب

الخشنة هذه كانت تناهض الملكية الخاصة ، وتريد اشاعتها او تعميمها ، ولكنها لم تكن قادرة على تخطيها بنمط جديد من انتاج المنتجات وتوزيعها . « ان التملك المادي المباشر ، في نظر هذه الشيوعية البدائية ، هو هدف الحياة الانسانية وهدف الوجود . وهي لا تلغي ظروف معيشة العامل الاجير وانما على العكس تجعلها شاملة لجميع الناس!... وهي لا تنظر بعين الاعتبار الى مواهب كل انسان . فعلاقة المجتمع بالاشياء تبقى ، في نظر هذه الشيوعية البدائية ، علاقة الملكية الخاصة . فبدلاً من الزواج، تدعو هذه الشيوعية البدائية الىاشاعة النساء، فتغدو المرأة ملكية عامة!.. ونستطيع القول بان الرغبة في اشاعة النساء هو السر المفضوح لهذه «الشيوعية» البدائية الخشنة... وهي بنفيها الشخصية الفردية لا تكون الا التعبير المنطقي عن الملكية ، التي تعني فعلاً ، نفي الشخصية . » (ماركس)

لم يكن ماركس يرى في هذه « الشيوعية البدائية الا بغاء شاملاً » ونزعة بهيمية ، وجشعاً يتجلى في شكل مقنع ، واخيراً كان يرى فيها رغبة جامحة في « مساواة الغير » . وهذه رغبة تطابق روح المزاحمة — شأنها في ذلك شأن الملكية الخاصة — والمزاحمة تعود بالبشر الى طور من العلاقات ، بهيمي ، فظ ، متأخر، يعني انها تعود بهم الى جوهر المجتمع الهادفة الى الغائه !» ان الشيوعية البدائية ليست الا تكامل الحسد ، والرغبة في التسوية Nivellement ، انطلاقاً من مستوى في المعيشة ،

متمدن ، يوضع نصب الاعين . وهذا يعني نفي العالم كله نفياً مجرداً ، ونفي الثقافة ، والحضارة . » كما انه يعني الدفاع عن الفكرة القائلة بالعودة الى « البساطة » والى مبدأ الانسان الفقير الذي ليس له حاجات ، والذي لم يصل بعد الى حد تخطي الملكية بعد . (المخطوطة الاقتصادية الفلسفية ، عام ١٨٤٤)

مررنا ، اثناء محاولتنا رسم مخطط موجز لنشأة الفكر الماركسي، ببعض المراحل المختلفة: وعلينا الاشارة هنا والتوكيد بشدة على واقع : وهو ان الفكر الماركسي قد نشأ وتكون خلال **نقد « للشيوعية »** . وتتكامل مظاهر التحول من الفلسفة المثالية الى الفلسفة المادية ، عند ماركس ، بالتحول من الطوباوية الوهمية البدائية ، الى علم الاجتماع .

وعلينا التوكيد في الاشارة ايضاً الى واقع آخر : هو ان الاعتراضات الشائعة على بعض الالسن وفي الصحافة المناهضة للماركسية، هي نفسها تماماً تلك الاعتراضات التي وجهها ماركس الى « الشيوعية » البدائية الاولية الحرفية ، الطوباوية الخيالية ، غير البروليتارية ، وغير العلمية . وهذا يدلنا على مقدار جهل النقاد اعداء الماركسية ، ويدلنا على نياتهم السيئة .

ومن ناحية ثانية ، كان كارل ماركس يقدر الشيوعيين الفرنسيين ويحفظ لهم بسالتهم في النضال . ويقول : « ليست الاخوة في هذه الجمعيات ، كلمة فارغة . وانك لتجد كل ما في البشر من نبل ، يشع من هؤلاء الرجال الذين تمرسوا بالعمل

فتصلبت عزائمهم . » وكان عملهم اعظم قيمة من نظريتهم ، وحياتهم ارفع قدراً من آرائهم .

٨ – ماركس وانجلز – قسط انجلز في الماركسية

لم يكتف ماركس بالتردد على العمال « الشيوعيين » (من فرنسيين ومهاجرين) خلال الخمسة عشر شهراً التي قضاها في باريس ، ولم يكتف بالاتصال بويتلنج ، وبرودون ، ولويس بلان ، وبيار ليرو ، وهنري هاين ، وباكونين . وانما كان ماركس ينصرف ايضاً الى دراسة علم الاقتصاد، وكان يأخذه في دراسته مؤلفات الاقتصاديين ما يشبه الحمى، من فرط الحماسة واللهفة ، وكان يهتدي في هذه الطريق بصديقه **فريدريك انجلز.**

وكان انجلز من جماعة اليسار الهيجلي (اتباع هيجل اليساريين) اعتنق الشيوعية عام ١٨٤٢ وكان صاحب تجربة اجتماعية مختلفة عن تجربة ماركس ، وأوسع من تجربة ماركس ، اذا نظرنا اليها من وجهة معينة .

ولم يكن انجلز ينظر الى البروليتاريا نظرة ماركس آنئذ : فقد كانت في نظر ماركس الوسيلة التي تتخذها الفلسفة لتحقق ذاتها . كان انجلز ابناً لصاحب مصنع كبير للنسيج ، فاتيح له ان يشاهد، عن كثب، بؤس العمال في مصنع ابيه، وارسلته اسرته الى مانشستر ، فعكف على دراسة الرأسمالية الانكليزية والوضع الرأسمالي في انكلترة .

ونشرت مجـلة « الحوليات » : « محاولته في نقد الاقتصاد السياسي» عَهْدَ ان كان ماركس ما يزال قليل الاهتمام بالاقتصاد السياسي. واطلع ماركس على محاولة انجلز فوجدها: «عملاً عبقرياً» وكانت هذه المحاولة تتضمن جميع عناصر الاشتراكية العلمية ، وان كانت تعبر عنها بلغة فلسفية . ومن هذه العناصر: التفاوت المتزايد بين الطبقات ، ازمات فيض الانتـاج المائلة نحو الخطر أكثر فاكثر ، وخصوصاً ارتبـاط جميع الابواب او الاصناف les catégories او جميع مبادىء الاقتصاد السياسي وجميـع التناقضات الاقتصادية بالملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وقد كتب انجلز في ما بعد فقـــال : « حين كنت في مانشستر ادركت بصدمة قاسية ، ان جميـع الاحداث الاقتصادية التي لم يكن التاريخ يحسب لها اي حساب ، كانت تلعب في العـــالم الحديث ، على الاقل ، دوراً تاريخياً حاسماً ، وانها هي اساس المنازعات بين الطبقات . لقد ادركت ان هذه المنازعات (في البلدان التي حملتها الصناعة الكبرى الى قمة تطورها) هي قاعدة الاحزاب ، ومصدر الصراع السياسي . »

كان انجلز ينفي دائماً انه اثر في ماركس. والحق انه كان المفكر الاول – والاوحد – الذي يمكن التحدث عن «تأثيره» في ماركس ، او بتعبير اصح ، عن اسهامه في تكوين المذهب الماركسي . لقد تكونت الماركسية ، **ضد** فيورباخ ، **وضد** هيجل ، **وضد** ويتلنج ، يعني انهـــا تكونت من نقد مواقف

هؤلاء ، والاخذ بما يثبت للنقد من افكار هؤلاء النظريين . اما اثر انجلز فكان ، على عكس ذلك ، ايجابياً حاسماً .

فانجلز قدم الى ماركس معرفته بواقع الاحداث الاقتصادية، وقدم اليه مخططاً موجزاً للتحليل ، وهداه ، خصوصاً، الى تقدير اهمية هذه الاحداث تقديراً مبنياً على اسس راسخة . ومقابل ذلك ، عمم ماركس نظرية انجلز ، وكان هذا يحصرها في بلدان الصناعة الضخمة (اي انكلترة وحدها) ثم ان ماركس عمق المبادىء النظرية التي ترتكز عليها الاحداث الاقتصادية ؛ وعلينا أن ننظر الى «الماركسية» على انها عمل مشترك قاما به. والفكر القوي الجبار الذي كان يتمتع به ماركس ، وكان قادراً على متابعة تجريدات المعرفة العلمية في جميع منحنياتها ودوائرها ، وكان معرضاً ، من جهة معينة ، لما يخالط – عادة – هذه القوة الجبارة من عيوب : الضخامة ، والتثاقل في الحركة ، وبعض الميل الى التحرك في اطار المجردات وحدها . وهكذا بقي مذهب ماركس ، حتى لقائه بانجلز ، فلسفةَ البروليتاريا ، اي الفلسفة الموجهة نحو دراسة علم الاجتماع . اما فكر انجلز ، المرهف ، الوقاد ، الحي ، الحاد ، القادر على اقصر السبل ، فقد انطلق مباشرة شطر المحتوى المادي الملموس لعلم الاجتماع، وكان اسبق اليه من ماركس .

وصفات العبقرية هذه ، هي التي اتاحت لانجلز ، بعد وفاة ماركس ، ان يقدم لنا اكمل الشروح واعظمها واوضحها عن

« الماركسية » مضيفاً اليها تطويرات مهمة حاسمة. ويجب ان لا ينخدع المؤرخ بتواضع انجلز وتقديره العظيم لصديقه ، فهو لم يكن « انبغ تلامذة ماركس » ... وانما كان رجلاً ذا عبقرية تساوي عبقرية ماركس وتكملها .

ومنذ التقى الرجلان في باريس ، اول مرة ، شرعا في العمل. وانصرفا معاً الى دحض مذاهب « الهيجليين الفتيان » رفاقهم القدماء . وكان هؤلاء ما يزالون سجناء فلسفة مثالية محض . وكانوا يرون ان الفكر النقدي سوف يغير تاريخ العالم ، معتمداً على قوته الفكرية وحدها ، وكانوا لايضعون الفكرة الهيجلية لانطلاق فلسفتهم ، وانما يعتمدون مبدأ اكثر تجريداً من «**فكرة**» هيجل ، واكثر فردية ، واكثر ذاتية : وهذه النقطة هي: وعي الذات ؛ وهكذا فقدت الهيجلية اليسارية في فلسفاتهم ، كل معنى تاريخي ، وفقدت كل ما يمكن ان يهديها الى اتجـــاه صحيح . ولم يكونوا يرون في التاريخ الا ظروفاً لنشأة « وعي الذات » اي نشأة « وعيهم لذواتهم » هم انفسهم ...

وتضاءلت نظرية المتناقضات حتى انحصرت في التقابل بين الفلاسفة الذين وعوا ذاتهم وبين الجماهير ، بين الشعب . هكذا اصبحت الفلسفة ازدراء « مذهباً » للشعب ، وللجماهير ، وللحياة العملية ، وللمادة ، وللعمل المادي .

وكان الفلاسفة «النقديون» يعمدون الى انتقاد جميع الاشياء ،

كيفما اتفق ذلك ، وبالمنطق الذي يشاؤون ؛ وكانوا يخصون بالنقد ، جميع ما لا ينطوي تحت مذهبهم .

هاجم ماركس وانجلز الاخوان الثلاثة بوير (برونو – وادغار – واغبار) كما هاجما انصار هؤلاء (زيليجا ، وفوشر الخ ...) في مؤلف نقدي لاذع طويل عنوانه « الاسرة المقدسة » او نقد « نقد النقد »!...

كان انجلز – وقد كتب الفصول الاولى من هذه الدراسة – يرى بحق انها على قدر عظيم جداً من التطويل والاسهاب . وكان مجموعها ركيكاً ، ضعيف البنيان ، مشوشاً ، ثقيلاً ، لا ينتظمه تصميم محدد . وادهش القراء الفرنسيين ان يجدوا في هذه الدراسة تحليلاً طويلاً لقصة « اسرار باريس » التي كتبها « اوجين سو » وقد حسبها الفيلسوفان الساذجان نبوءة عن العالم الجديد ، وانجيلاً له ، صادراً عن « نقد النقد » !...

على ان الكتاب يزخر ، رغم عيوبه ، بالصفحات الرائعة التي تجمع التهكم الى العمق .

كان « الناقد النقدي » زيليجا يرى في اماطة الحجب عن الاسرار (ولا سيما في التعليق النقدي على كتاب «اسرار باريس») المهمة الاساسية للفكر النقدي .

اذن هكذا كان مصير الفلسفة الهيجلية معلقاً بمصير كتاب « اسرار باريس » ! ؟.... وهذه المفارقة (ونكتفي بهذه

الكلمة...) كانت تخدم الغايات الفكرية التي يرمي اليها ماركس. وهو يقول: « ان اسرار العرض النقدي لاسرار باريس فيها سر البناء الهيجلي الفكري المجرد »..

« حين أُعمل فكري في حقائق واقعية (تفاح، إجاص، فريز، لوز... الخ...) اكوّن لنفسي تصوّراً عاماً، يعني صورة ذهنية عامة هي فكرة « الثمر ». ثم حين اتخيل بعدئذ ان هذا المفهوم المجرد، المستمد من الثمار الحقيقية الواقعية – اي هذه « الثمرة – الفكرة »، انما هو جوهر موجود خارجاً عني، وانه يكون حقيقة هي: وجود التفاح، والاجاص، الخ... عندئذ أُعلن رأياً تأملياً مجرداً وهو ان التفاحة والاجاصة الخ... هي مجرد اشكال متعددة لجوهر واحد هو « الثمرة » فالثمار الحقيقية الواقعية ليست – في نظر هذا الفكر التأملي المجرد – الا مظاهر ثمر، يوجد جوهرها الحقيقي وقوامها الصحيح في «الثمرة – الفكرة» !... « وعلى الثمرة ان تبحث في مكان ما، عن وسيلة تتيح لها ان تستعيد كونها ثمرة، اي لكي تغدو مادة فاكهية، او ثماراً عادية حقيقية، يمكن ملاحظتها وتمييزها !! ولكن بمقدار ما يسهل الحصول على « الثمرة – الفكرة » المجردة انطلاقاً من الثمار الحقيقية الواقعية، يصعب ايضاً انتاج الثمار الحقيقية انطلاقاً من فكرة « الثمرة » المجردة، بل انه لمن المستحيل التحول من المجرد الى نقيضه دون التخلي عن التجريد.

فالمفكر الميتافيزيقي – اذن – يصدف عن فكرة الثمرة

المجردة ، ولكنه يصدف عنها تأملياً ، صوفياً ، ويتخلى عنها وهو لا يتخلى . انه لا يتخطى التجريد الا في الظاهر . وهو يفكر على هذا النحو تقريباً : « ليست الثمرة جوهرا ميتاً ، دون صفات خاصة مميزة، ودون حركة، وانما هي جوهر حي ، متحرك . والثمار العادية مظاهر للثمرة « المطلقة العليا » ، ففي « التفاحة) تتخذ الثمرة مظهر التفاحة وفي الاجاصة مظهر « الاجاصة »... والثمرة هي مجموعة الثمار ، وخلاصة الثمار ، ووحدتها ، معاً !... والفيلسوف التأملي التجريدي يخص باهتمامه هذه الناحية من نواحي الثمار الحقيقية؛ وهو بلهجة سحرية يشوبها الغموض يقول إن ثمة ولا شك تفاحا واجاصا الخ... ولكن تفاح العالم التأملي المجرد واجاصة ليسا الا « مظاهر » من التفاح والاجاص الخ ... انكم بهذا تهبون الثمار الحقيقية ، قيمة خارقة خيالية وتحولونها الى مجردات... (الاسرة المقدسة ـ ترجمة موليتور المنقحة ـ المؤلفات الفلسفية ـ الجزء الثاني ـ ص ٩٩ ـ ١٠٣) .

يصور ماركس هنا المثالية الهيجلية تصويراً كاريكاتورياً ولكنه تصوير عميق صائب . وهو يوجه نقده الساخر الى **كل نوع من انواع المثالية** ، يستبدل بالواقع كياناً مجرداً مثالياً، فكرياً ، ثم يجهد لادراك خلق الكون والعالم ، وادراك تجسد المجرد في المحسوس ، انطلاقاً من هذه الزاوية المثالية ، من هذا الكيان الفكري المجرد . ان الفلسفة المثالية **تقلب** Renverse

النظام الحقيقي للاشياء ، وتريد خلق المحسوس بوساطة المجرد ، بينا نرى الفكر ينطلق من المحسوس الى المجرد ولا يمكنه العودة نحو المحسوس الا بتخطي المجرد .

هكذا تسقط الفلسفة الهيجلية في هوة « الثرثرة اللفظيــــة » والشعوذة الميتافيزيقية التي تستخرج الواقعي من المجرد (تستخرجه من « الفكرة المطلقة المحض ») وذلك بمعجزة وتجسيد سحري خفي . ان التجريد المحض يزعم، بتخليه عن المحسوس ، انه يبلغ الحقيقة بلوغاً آلياً. فالمفهوم المدَرك، والفكرة « المطلقة المجردة» يعتبران من « الذاتيات الواعية » !...

وهما متشخصان، ومتجسدان ، ومتحققان خارجاً عنا — في زعم هيجل — . وهذه النظرة خاصة من خصائص الطريقة عند هيجل . وهيجل يتسلح بقدرة الساحر العظيم ، لكي يوهمنا بأن الكون خلقته «الفكرة المطلقة» ويقنعنا بما لا يعدو توالي الافكار في رأسه . وقد يحدث ، من ناحية ، ان يعرض هيجل حقائق ملموسة واقعية ، ولكن هذا يزيد في تضليل القارىء وتشويش ذهنه ، فيقتنع احياناً بأوهام هيجل المجردة بسبب ما يقدم الى جانبها من حقائق واقعية ملموسة . ومهما يكن من امر ، فإن علم الظاهرات الهيجلية phénoménologie (لا « منطقه » ، ولا نظريته في الفكرة المطلقة المجردة، وطريقته الديالكتيكية) يشتمل ، في اكثر من موضع على « عناصر تفكير ملموس في طبائع الظروف الانسانية وخصائصها . ولكن المؤسف ان هذه

الظـــاهراتية – بعد ان صورت الاسس المادية ، المحسوسة ، الموضوعية ، لمختلف اشكال الانحطاط في الوعي البشري ، ولا سيما علاقات **السيد والعبد** – اكتفت بفهم هذه الاسس . فهي كما هي في عـالم الواقع ، وهي لا تتخطاها الا مثاليـــاً ، من طريق الفكر المجرد ، والتصور ، وهي لا تدرس هذه الاسس – اذن – الا من زاوية النظر المحض ؛ فهي تربطها بالمذهب الهيجلي ، وتعمد الى ادخالهـا ، كما هي في الواقع ، الى مذهب المعرفة المحض – هذه المعرفة التي تتخذهـــا « الفكرة المطلقة » المجردة لنفسها خلال التاريخ . وهكذا يضع هيجل الكون وضعاً خاطئاً ، وتنقلب فكرته عنه انقلاباً . وهو ينظر الى العـــالم الموجود في ذهنه ، بوصفه عالماً يفوق ، الى ما لا نهاية له ، العـالم المـادي الواقعي ، حقيقة واقعية . وهيجل يعتقد انه استطـاع التحرر فعلاً من هذا العـالم الواقعي ، بالوعي وحده – وبتأملٍ ينصرف عن هذا العالم ، ويخلّفه في اوضـاعه المؤلمة ، « للدهماء » من الناس ، والسواد من الشعب . هكذا يتنبأ هيجل بمجيء « الفتيان » – هؤلاء الذين يعتقدون انهم نقاد شجعـان بواسل ، وانهم من رجال « اليسار »، ولم يكونوا في الواقع الا محافظين رجعيين مثل الهيجليين الشيوخ ، ومثل هيجل الشيخ . (راجع ماركس – الجزء الثاني من المؤلفات الفلسفية ، صفحات ١٠٥ – ١٥١ – ١٥٢ الى ص ١٦٠ – ص ١٦٤ ترجمـــة موليتور ؛ عن هيجل وفيورباخ راجع صفحات ٢٥٠ – الى ٢٥٣ الجزء الثالث ص ٩٣، وتجدر بنا الاشارة ايضاً، في مؤلف «الاسرة المقدسة»

الى صورة سريعة ولكن موفقة ، لتاريخ المادية الفرنسية ـ الجزء الثاني ص ٢٢٣) .

وابتداء من هذا اعلن ماركس (متبنياً مبدأ فيورباخ) أن الانسان هو جوهر كل نشاط انساني ، وكل علاقة انسانية ، وقاعدتها. (المرجع المذكور ـ الجزء الثاني ص ١٦٥) وكف ماركس عن النظر الى المادية بأنها شيء دنيء حقير ؛ فالمادية تفضي الى النزعة الانسانية . (المرجع المذكور – ص ٢٢٤) وهي تفضي ايضاً الى ادراك الانسان ما هو انساني حقاً واعترافه به (ص ٢٣٤) وهذا يعني القضاء على فكرة « التخلي عن الجوهر » l'aliénation ، في صيغتها المثالية . وهذا التخطي طرح القضية الاجتماعية على بساط البحث ، قضية **علاقات الملكية** . (الجزء الثالث – ص ١٣٦ ...)

٩ – من النقد الفلسفي الى نقد الاقتصاد السياسي

يبدو ان ماركس ادرك تمام الادراك ان افكاره ما زالت مشوشة مضطربة ، بدليل انه شرع في اواخر عام ١٨٤٤ في تحديد مذهبه ، وآرائه ، بمواجهة جميع عناصر بحثه ، بعضها ببعض ، والمقارنة بينها . وبينما كان انجلز يعمل في تأليف كتابه « وضع الطبقة الكادحة في انكلترا » كان ماركس يعد العدة لنقد الاقتصاد السياسي ، ويعمل في مخطط موجز لكتاب صدر في ما بعد (عام ١٨٥٩) ، وللجزء الاول من كتاب رأس المال

(صدر في خريف ١٨٦٧) ووجدت مخطوطة ماركس اخيراً ونشرت بعنوان « المخطوطة الاقتصادية الفلسفية » وهي نص صعب ، بالغ الصعوبة ، مشرب بالغموض والتشويش في اكثر مواضعه .

يجهد ماركس لتجديد ماديته، وهو يجاري فيورباخ في هذه الافكار الاساسية :

أ — الحكم بنسف الفلسفة التأملية المجردة ، فلسفة هيجل « التي ليست الا الدين مصوغاً في قوالب من الافكار » ، اي انها شكل آخر من اشكال الانحراف او التخلي عن الجوهر .

ب — « المادية العلمية الصحيحة » التي تجعل من علاقات الانسان مع ذاته (مع سائر الناس) مبدأ كل نظرية .

ج — المبدأ الوضعي المؤسس على ذاته : وجود الانسان بوصفه كائناً جلياً ، كما هو معطى ، بتركيبه العضوي وحاجاته (راجع المخطوطة ص ٤٤) بيد ان فكر فيورباخ يبقى ناقصاً غير متكامل . لماذا وكيف ينحرف الانسان ، بسبب الدين والميتافيزيك ، عن جوهره ويتخلى عن حقيقته ؟ وكيف يطلق هذا الانعكاس من ذاته على غيوم الوهم ؟ لا يجيب فيورباخ عن هذه الاسئلة .

وفيورباخ ، من ناحية ثانية ، يقصر ظاهرة الانحطاط ، ظاهرة التخلي عن الجوهر L'aliénation، على الدين والمتيافيزيك.

وهو لا يفهم ان « التخلي » (الذي اصاب البشر) اكثر تعقداً من ذلك ، واكثر شمولاً واكثر قسوة . ونضرب لهذا مثلاً بسيطاً : ففي الكوخ الحقير الذي يسكنه العامل ، في أيامنا هذه ، يجد العامل ، ثانية ، الكهف الذي كان يسكنه الانسان البدائي ، ولكنه يجده على نحو اكثر انحطاطاً . فالعامل لا يملك اليوم هذا « الكهف الحديث » ! ... (راجع ص – ٥١ وص ٦٥) .

والثالثة أن الانحطاط والتخلي عن الجوهر في نظر فيورباخ هو انحطاط محال ، لا معقول ، ولا سبب له ولا غاية . هكذا يفهم فيورباخ الانحطاط لا اكثر ولا أقل. وهو ينصح الانسان بأن يكف عن بعثرة ذاته وتبذيرها وإطلاق حقيقته خارج ذاته. والانحطاط ، في رأي هذه النظرية ، إنما هو ضرب من ضروب الضلال المتيافيزيقي واللامعقول الذي لا يدري كيف نشأ ولا من أين جـــاء ... – وهو مقدر له الزوال في يوم من الايام (ولا يدري لماذا يزول) بقرار فلسفي ، بعد أن لبث زمنـاً طويلاً بلا طائل . وأخيراً فها هو السراب يتلاشى ! ...

يرى ماركس أن فيورباخ أصاب في إحلال الانسان الحي محل **الفكرة** الهيجلية المجردة المطلقة L'idée absolue et abstraite ولكن فيورباخ لم يدرك المعنى العميق الذي تنطوي عليـــه الفلسفة الهيجلية . إنه لم يدرك ان **للانسان تاريخاً** وان تاريخ الانحراف عن الجوهر البشري هو أيضـاً تاريخ الانسان . وفي

البدء ، لا تتلخص علاقة الانسان بالجنس البشري في علاقة الانانية بالحب . ان الانسان **كائن اجتماعي** . (ص ٢٥ – ٢٧).

وعلى الانسان (الاجتماعي) لكي يصير الى وعي ذاته ، ان يكسب السيطرة على المادة . انه يعمل وينشط ، وهو ليس سلبياً، حيال الطبيعة . وهو بنشاطه وعمله ، يطورها، ويغيرها، ويطور طبيعته الخاصة ، حتى انه يطور احاسيسه وحاجاته (ص ٣٠ – ٣٥) .

وليست علاقة الانسان الفعالة النشيطة غامضة : فهذه العلاقة هي **العمل**، وقد خطر لعلم الاقتصاد السياسي النهجي classique ان يكون العمل هو الاساس الجوهري للانسان ، ولكن الاقتصاد السياسي النهجي لم يفهم هذا الاساس حق الفهم (ص ١٧ – ١٩) .

يتخطى الانسان (الاجتماعي) بوساطة **العمل** ، نمط الحياة في قلب الحياة البكر . انه ينتج ويخلق حوله اشياء من صنعه ، وهذه الاشياء تسد حاجاته ولكنها تستثير فيه حاجات متجددة دون انقطاع ، وتُطور حاجاته الراهنة. ولا ينفصل الغنى الداخلي عند الانسان عن غناه الخارجي ، اي عن قدرته على الطبيعة . وهكذا يصير الانسان « ذاتاً » ، ويصبح وعي ذاته ، من خلال الاشياء التي ينتجها . ومن المحال – اذن – ومن غير المعقول فصل الذات عن الموضوع ، والوعي عن الاشياء . الانسان – في وقت واحد – شيء مادي (الجسد) وذاتٌ (الوعي) .

وهو لا يصير ذاتاً انسانية الا حين يغدو شيئا ماديا انسانيا : شيئاً تتخذه كائنات انسانية أخرى هدفاً لرغبتها ، وحبهـــا ، واهوائها . وهو شيء يُتخذ غاية للفعالية والنشاط ايضاً (ص ٧٥ وما يليها) فتحقيق الذات - اذن - في عـالم الاشياء المادية ، هذا العـالم الذي هو تجسيد خارجي للذات ، ليس بالنسبة الى الكائن البشري (الواقعي او الاجتماعي) فقداً للذات (انحطاطاً، انحرافاً عن الجوهر ، تخلياً عنه) وانما هو على العكس كسب غنىً ، واكتمال..

فيم ينحصر الانحطاط ، او التخلي عن الجوهر ، - اذن - ؟ أهي الثروة التي تكوّن الانحطاط وتخلقه ؟ كلا اطلاقاً. فالثروة (وهي خـيّرة في ذاتها) لا تعدو سبباً من اسباب الانحطاط الا حين يرافقها بؤس ، وفقر ، وانحطاط ، وحرمان ، يعني : حين تكون في أطر الملكية الخاصة ، وحين تتجلى الثروة في هذا المظهر .

ولكن بدا - لسوء الحظ - ان انتاج الثروة والبؤس في وقت واحد امر محتوم. وقد تم النمو البشري وتطور الانسان اثناء تقسيم العمـل . (ص ٩٧ الى ١٠٧) واثناء اللامساواة في الاعمال - واثناء تبادل المنتجات (ص ١٠٦) والاسواق (ص ١٠١) والنقدالمالي (ص ١٠٩ الى ١١٤) وهذا يعني خلال الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والمنتجات .

وبلغ الانحطاط ، [طوال المدة التي استغرقهـا هذا النمو

التاريخي ، وهذا التطور] حداً اصبحت معه ابسط حاجات الانسان عدواً للكائن الانساني ؛ ولا يقتصر الامر على العبد ، او على العامل الذي لا يستطيع كفاية حاجته الا حين يخضع لاستعباد يفرضه عليه الآخرون ، وانما يتخطاه الى السادة الذين علمهم هم انفسهم المال « الاقتصاد والتوفير » ، وحرمان النفس حاجاتها ، « والتنسك » احياناً . فكلما حييت اقل ، ازداد رأسمالك ! . (ص ٤٥) .

واخيراً اضحى فكر الانسان عدواً له . **والتجريد** يؤدي الى ان تنظر المعرفة ـ هذا النتاج الانساني ـ الى ذاتها بأنها حقيقة غريبة عن الانسان ، سابقة لوجود الانسان الحي !..

اذن ، فالتخلي او الانحراف عن الجوهر يتخذ ـ معاً ـ مظهراً مادياً ، ومظهراً فكرياً مجرداً (شكلاً ايديولوجياً)

ومظاهر الانحطاط، من ناحية، لا ينفصل بعضها عن بعض. وسواء أكان الامر يختص بالنقد المالي ، ام بالدين ، ام بالتجريد الميتافيزيقي ، ام بالدولة (مفهوم الدولة ، اسسُها ، وواقعها التطبيقي) نجد ان جميع هذه المظاهر هي مظاهر فاتيشية (تأليه اشياء اجتزائية وثنية) والفاتيشية تعني ان يعير الانسان حقيقة غريبة عن ذاته ، وسلطة تُفرَض عليه، لاشياء طبيعية او لاشياء مادية من انتاجه . وهذه الاشياء المادية (يعني البشر الذين يستخدمونها) تكسب ، على هذا النحو ، سلطة واقعية حقيقية ، وتنجح فعلاً في استعباد الجماهير الساحقة : « فالفاتيشية » تبدو

ـ اذن ـ بوصفها واقعاً تاريخياً ، اجتماعيـاً ، واقتصادياً ، على اعظم درجة من الاهمية .

وغاية التاريخ ؟ انها ليست « **الفكرة** » المجردة المطلقة ، او الروح ، او الانسان المجرد (الوعي وحده) . غاية التاريخ تحقيق « الانساني » تحقيقاً كاملاً ، وذلك بالشيوعية ، وهي الشكل الاعلى ، والاكمل ، من اشكال الحياة البشرية المشتركة المؤسسة على قدرة بشرية عظيمة ، يكون الانسان قد بلغها ، وعلى ثروة وغنى ماديين ومعنويين روحيين .

الشيوعية هي ـاذنـ تخطي الانحطاط ، وهي عودة الانسان الى ذاته بوصفه انساناً اجتماعياً ، عودة كاملة تامة واعية.(تجري خلال كل ما بلغه الانسان في تطوره من غنى وثروة (ص ٢٢ ٢٣) .

يسمح لنـا هذا العرض السريع الموجز بإبداء هذه النتـائج المهمة :

١ ـ لا نجد بين مؤلفات ماركس ما ينطوي على انفصال وانقطاع عن مؤلفـاته السابقة ، ولا نجد في مؤلفاته اي انفراج مطلق غير متصل .

فلنفتح كتاب « المسألة اليهودية » ثانية ، نجد هذه السطور : « المال هو جوهر الانسان المنفصل عن الانسان ! وهذا الجوهر الغريب يسيطر على الانسان والانسان يعبده . »

« لا يمكن تحقيق التحرر الانساني الا حين يعترف الانسان بقواه الخاصة ، وينظمها تنظيماً عضوياً بوصفها قوى اجتماعية ؛ وإلا حين يكف عن عزل القوة الاجتماعية عن ذاته، تحت مظهر قوة « سياسية . »

يستعيد ماركس هذه المبادىء الاولية ، وكثيراً سواها ، في « المخطوطة الاقتصادية الفلسفية » التي ألفها عام ١٨٤٤ . ونجد هذه المبادىء في « المخطوطة » معمّقة ، مضافاً اليها غِنى كبير ، ومتخطّاة بوصفها كانت صيغاً مرتبطة بمثل أعلى ، مثالي ، تخالط النزعة الانسانية المحسوسة (النزعة الطبيعية ، المادية) .

وهكذا ينمو فكر ماركس نمواً عظيماً في حيويته، وتنبت بذوره وتنمو متطورة .

ب – لم تكن نظرية ديالكتيك المتناقضات (النظرية المنطقية ، نظرية المعرفة) التي تحولت من الفلسفة الهيجلية الى فكر قد نشأت ، **في ذلك العهد** . بل ان نظرية الانحطاط (أو التخلي عن الجوهر) الفلسفية هي ، بخاصة ، النظرية التي أسس عليها ماركس فكرته الانسانية .

لم يكن ماركس ، في عهد من عهوده ، « فيورباخياً ». لقد عمد فوراً الى نقد مادية فيورباخ الناقصة ، وإكمالها ، بما اسهمت فيه فلسفة هيجل المثالية من نتائج فلسفية جديدة : اي

بفهم اعمق لفكرة « التخلي عن الجوهر » ، او الانحطاط .

ج – تبدو مخطوطة عام ١٨٤٤ ، اثر فحصها ، كأنها صورة موجزة عن التاريخ المادي للانسان (او عن فلسفة ظاهراتية مادية للفكر البشري) لم تُوَسم من قبل .

د – نحسّ بان المادية التاريخية ، عند ماركس وانجلز أصبحت وشيكة جداً ، اثر مخطوطة ١٨٤٤ ؛ وان كان العالِمان لمّا يعبرا عنها تعبيراً واضحاً دقيقاً .

وسوف يتضح لنا سبب ذلك بعد قليل .

وثمة فكرة واضحة تبرز وهي: نقد الدين ، ونقد الغيبيات ، والدولة . وهذه الفكرة نجد لها اساساً وضعياً ايجابياً في نقد الاقتصاد السياسي .

١٠ – المـــادية التاريخية

اراد ماركس ان يتمّ توضيح افكاره ، ويصوغها في شكل مركّز ، فألف في اذار ١٨٤٥ كتابه الشهير « دراسات عن فيورباخ » .

اعتاد كثير من الماركسيين مراجعة هذه « الدراسات » منفصلة؛ والحق انه لا يُستطاع، ولا يجب عزل هذه الدراسات عن اطارها الصحيح، واطارها هو: اولاً « مخطوطة عام ١٨٤٤»

وهذه الدراسات تلخص المخطوطة تلخيصا مركزاً ، وتصوغ محتواها كله في صيغ موجزة دقيقة. (بأكثر دقة من المخطوطة) ولكنها لا تنجلي عن كل معناهـا الا بوساطة « المخطوطة . »

فلنأخذ الدراسة الاولى وملخصها : « ان العيب الاول ، في كل فلسفة مادية سالفة ، دون استثناء مادية فيورباخ ، هو ان الشيء المادي، والواقع، والعالم المحسوس، لا تنظر اليها هذه الفلسفات المادية الا في شكل من الموضوعية الشيئية الجامدة، او في مظهر من الحدس الحسي ، لا في مظهرها الواقعي الحقيقي بوصفهـا نشاطاً وفعالية انسانية محسوسة ، وبوصفها تطبيقاً عملياً . ان تلك الفلسفات لم تتخل عن النظرة الذاتية الصرف . لهذا رأينـا الجوانب النشيطة الفعالة تنمو – في نظر هذه الفلسفات – نمواً مجرداً ، في مقابل المـادية ، بوساطة المثالية !... وهذه تجهل – طبعاً – واقع النشاطية الفعّالة الحقيقية المحسوسة.. »

ماذا يعني هذا النص ؟ يعني ان النظرية الهيجلية المثالية ، في الانحطاط l'aliénation ، فهمت حق الفهم نشاط الانسان خلال التاريخ ، وفهمت تعقد هذا النشاط وتركيبه ، ولكنها تركت، جانباً ، الاساس الحقيقي لهذا النشاط: العمل، والتطبيق العملي.

اما فيورباخ ، فيعمد الى الحدس المحسوس ، ويستخدمه في فلسفته ، ولكنه ينظر الى الحس نظرة سلبية دون ان يصلها بالنشاط العمـلي التطبيقي (الدراسة الخامسة) وهو ينسى ان الانسان يتحول هو نفسه بتحويل الظروف المحيطة به (الدراسة

الثالثة). وهو يكتفي «بتذويب» العالم الديني « بالعالم الدنيوي» ناسياً ان الفصل بين هذين العالمين له اساسه في العـــالم الدنيوي نفسه وهو الذي تشطره المنازعات (الدراسة الرابعة) . وتذويب الكائن الديني في الكائن الدنيوي لا معنى له الا اذا تجنبنا حصر الكائن الانساني في الفرد المنعزل . ذلك لان الكائن البشري الحقيقي هو مجموعة العلاقـــات الاجتماعية (الدراسة السادسة) ففيورباخ يصدف – اذن – عن واقع التاريـخ ، وينظر اليه نظرة مجردة ، فلا يرى ان الشعور الديني الذي ينتقده هو نفسه نتاج تاريخي واجتماعي (الدراسة الثامنة) ومن هذا استخلصت النتائج التالية : ان وجهة نظر المادية القديمة ، ونقطة انطلاقها ، هما المجتمع البورجوازي ؛ ونقطة انطلاق المــادية الجديدة هي المجتمع الانساني او الانسانية المنظمة تنظيماً اشتراكياً -socia lisée . « الدراسة العاشرة » . « اقتصرت اعمال الفلاسفة على تفسير الكون تفسيرات مختلفة ، والمهم الآن تحويله وتغييره . » (الدراسة الحادية عشرة والاخيرة). والمادية الحديثة ، بانفصالها عن التأملية الوهمية المثالية ، تتصل بالمعرفة والعمل .

تكونت **المادية التاريخية** – إذن (أي علم الاجتماع العلمي) من اتحاد تم بين المادية والمثالية ،

ولنتفاهم حق التفاهم بصدد هذه الصيغة ، ولنحدد معناهـــا بدقة ، لاجتناب التأويلات الخاطئة ، والتفسيرات المغرضة . لم يأخذ ماركس وانجلز الفلسفة المثالية ، بوجه عام ، والمادية بوجه

عام ، كما تؤخذ أجزاء الأدوية ، ليمزجا بينهما ، ويكوّنا تأليفاً Synthése مبهم الشخصية ، يزعمان انه من عملهما وابتكارهما الذاتي .

لقد وجدا الفلسفة المثالية في ذروتها (في مؤلفات هيجل) وهي مثالية محملة بمحتوى موضوعي ، ترود بمفرداتها وروحها التفسيرية التأويلية حركة التاريخ الواسعة المعقدة ، يعني انها تختلف كثيراً عن اي نزعة مثالية محنطة ...

ووجد ماركس وانجلز مادية بدأت تتعمق ؛ مادية تخطت (في فلسفة فيورباخ) النزعة الميكانيكية الآلية البدائية التي كانت تجزم ببرودة وجفاف بأن المادة والذرات الخ ... هي وحدها الموجودة !

كانت هذه المثالية الموضوعية وهذه المادية المتطورة تميلان الى الاتحاد . وقد بلغ من صحة هذا ان مختلف الباحثين ارادوا بلوغ هذا الاتحاد والتعبير عنه (وبخاصة باكونين وبرودون اللذين كان عليهما فيما بعد خوض معركة ضارية ضد الماركسية) وماركس وانجلز انفردا بتحديد اندماج الاتجاهين الاساسيين في الفلسفة النهجية ، انطلاقاً من شكلهما الارفع — ولكن بتطوير هذا الشكل تطويراً عميقاً . وهذا ادى بهما الى انهما حلا المسألة التي طرحها الفكر في زمنهما ، لا بعملية انتقائية تجميعية Eclécctisme او بتأليف تحكّمي Synthése Arbitraire بل بخطوة الى الامام .

بعد ان فهم هيجل فهماً عميقاً ان هناك تاريخاً ، وان «خلق الانسان ذاته بذاته» هو عملية تطورية تاريخية تتم في دورات عديدة وبعد فقدٍ (موقتٍ ، ظاهري) للجوهر الانساني ، عاد هيجل فأخطأ في فهم هذا الانحطاط او الانحراف عن الجوهر alienation . ففي العناصر التي تحقق الانسان ، وفي مجموعة « منتجات الانسان » رأى هيجل انحطاطاً وتخلياً عن الجوهر ، وعلى العكس ، رأى هيجل في قوى الانسان التي تحولت ضده (الملكية ، « والثروة » الخاصتين ، والدين ، ورأس المال ، والدولة) رأى فيها تحقق «الفكر الاعلى المطلق». ولاكتشاف حقيقة التخلي عن الجوهر ، وحقيقة التاريخ ، يجب قلب الفلسفة الهيجلية رأساً على عقب ؛ فقد أحل هيجل الفكرة محل الانسان الحي، و « الوعي » الذي يكشف ذاته ، محل الحقيقة الانسانية الواقعية . يجعل هيجل من الانسان « انسان الوعي » بدلاً من ان يجعل من الوعي وعي انسان واقعي، يعيش في العالم الحقيقي الواقعي .

وهذا الوعي –في نظر هيجل – يتصل « **بالفكرة المطلقة**» او بالفكر الاعلى الذي كان يرى هيجل انه اسمى كثيراً من الطبيعة ، التي يغض من قيمتها هي نفسها انها ادنى مستوى من **الفكر** . ان عناصر الواقع الانساني ـ الطبيعة ، والفعالية الواقعية ، والمعرفة ، او « الفكر » او « **الفكرة** » توجد عند هيجل منفصلة بعضها عن بعض ميتافيزيكياً ، مشتتة موزعة...

اما فيورباخ فهو يحصر الانسان في فرد بيولوجي، منعزل ؛ مستعيناً على ذلك بستار من مظاهر المحسوس المادي ، وفي هذا ايضاً تجريد . فالانسان الفيورباخي ليس الا الفرد البورجوازي، بل الفرد الذي يعد نموذجاً للالماني : فهو عاطفي ، سلبي ، يميل الى العزلة ، (راجع الايديولوجية الالمانية ، ترجمة موليتور ، المؤلفات الفلسفية الجزء ٤ ص ١٦٣ — ١٦٤) .

وفي حدود مادية فيورباخ لا نجد اثراً للتاريخ عنده . فاذا اهتم بالتاريخ ، رأيناه يصدف عن المادية .

في هذا الاتجاه ، يتابع فيورباخ الفلسفة المادية التي نشأت في القرن الثالث عشر وظلت جزئية بدائية ، وهو يتابعها دون ان يضيف اليها تقدماً حاسماً . وهو يهمل ما يعتبر في الانسان فعالية ، ونشاطاً ، ومتحداً نشيطاً عملياً ، وتعاوناً ، وعلاقات اجتماعية .

وفلسفة فيورباخ الانسانية ترتكز على اسطورة : انها انسانية الطبيعة المحض ، والغابات البكر ، او الجزائر التي برزت البارحة من اعماق المحيط الهادي . اما هيجل فقد رأى ان الانسان ليس معطى الا بوصفه كائناً طبيعياً ، حيوانياً ، بيولوجياً ، وان كل ما هو انساني هو من صنع التاريخ ، ويوجد وفقاً لحركة تطور تاريخية . وتوقف فيورباخ عند مبدأ هو اكثر تجريداً ؛ فرأى ان « الانسان » يتوصل الى اكتشاف العنصر الفردي الانساني في الشعور الصرف . والحب او الصداقة ، المحمولان

الى المثالية هما وحدهما ، في نظره ، العلاقات الحقيقية . « وهو لم يستطع – اذن – البتة ادراك العالم المحسوس بوصفه فعالية حقيقية ونشاطاً حقيقياً حياً ، تامـاً ، يقوم بهما الافراد الذين يتألف منهم هذا العالم . » وحين يواجه فيورباخ جماهير البؤساء يلجأ الى « حدس » يخيل اليه المساواة المثالية بين ابناء البشر . هكذا يعود ليسقط في المثالية ، تماماً في الموضع الذي ترى فيه المادية الشيوعية « ضرورة التطور ، والظرف المساعد عليه ، في وقت معاً » (الايديولوجية الالمانية ١٦٤) .

والاتحاد بين هذه المثالية وهذه المادية يحولهما ويطورهما مكملاً اتجاههما وحركتهما الداخلية . وهو ينزع الحدود التي كانت تكتنفهما ، ويجردهما من الجوانب السلبية ، ذات وجهة النظر الواحدة الضيقة . وهو يوحد بينهما في الاسم ايضاً ، لذا علينا ان لا ننظر الى **المادية التاريخية** على انها ابتكار شخصي جاء به كارل ماركس ، وانما هي متطلب الفكر الحي ، وحركة الفكر الانساني وتقدمه خلال القرن التاسع عشر : وعبقرية ماركس وانجلز هي انهما **ادركا تمام الادراك** جانبي المسألة ، (اي : مظهريها ، حديها) واذا كانا وحّدا بين هذين الجانبين ، وحلا بذلك معضلة علم التاريخ ، ومسألة المعرفة في حقل الواقع الانساني ، فإنما تم ذلك باغنائهما هذين الجانبين . وكيف ؟ بتحسس الاحداث الواقعية ، والاحتكاك بها ، واعتماد التجربة الاجتماعية ، والمعرفة التي بلغها العقل حتى ذلك التاريخ ، في هذا

الحقل . وكان للاحتكاك بالاحداث الاقتصـادية الواقعية والاجتماعية ، ونقد الاقتصاد السياسي الذي بدأه انجلز ، دورهما الحاسم . وهكذا تحولت فلسفة الانحراف والتخلي عن الجوهر l'aliénation المثالية التي بدأت تصبح موضوعية ، لتنصب في العالم الناشيء الذي يدرس الانسان التاريخي ، وكذلك المادية الفلسفية الاكثر جرأة . بوساطة هذا العلم جاءت الفلسفة فتخطت ذاتها ، وتطورت ، وتحولت ، وفقدت تجريديتها ، وتحققت في مستوى ارفع من مستواهـا الاول . وحين غدا الفيلسوف مؤرخاً ، واقتصادياً ، وعالماً اجتماعياً ، كف عن الاعتقاد بقدرة الفلاسفة ، وعن التفكير بأن التحول في الفكر من شأنه ان يؤدي الى تهديم العالم الراهن (الايديولوجية الالمانية ج ٧ ص ١١) .

في عام ١٨٤٦ استقر عزم ماركس وانجلز على نشر توضيح دقيق جلي بجميع هذه المسائل ، وكانا يريدان مهـاجمة الفلسفة الشائعة في ذلك العهد ، وتوجيه الطعنة الحاسمة اليها في صميمها ، وهي الفلسفة المثالية المنحرفة ، المتقهقرة عن الهيجلية ، التي كانت ترى ان الفردية الذاتية ، الميالة الى الفوضوية – وعي الانسان ذاته وعياً فردياً – تجيب عن جميع الاسئلة، وتحل جميع القضايا.

عمل ماركس وانجلز معاً منذ ايلول ١٨٤٥ حتى آب ١٨٤٦، ولكن استحال عليهما ان يجدا ناشراً لكتابهما «فتركت المخطوطة لنقد الفئران القـارضة... » وهذا الكتاب (الايديولوجية

الالمانية) الذي عثر عليه ريازانوف ونشره عام ١٩٣٢ بكامله ، هو اول كتاب يعرض **المادية التاريخية** .

خصص المؤلفـــان نصف الكتاب لدحض افكار ستيرنر ، واضع نظرية الفلسفة الفردية الميـالة الى الفوضوية . واستضرى ماركس ضد ستيرنر وعَنُف ، فمزقه إرباً ، كاشفاً قنـــاع « المفكر الجريء » عن رجل بورجوازي ضيق الافق ، افضل صفاته انه دعامة المقاهي في برلين ، تبلـَّد فكره وحسه بـإفراطه في احتساء الجعة ، وهو رغم ذلك يعيش في رضى عميق عن انانيته. وهو اسوأ من هيجل ، ذلك لانه يذيب العـالم الواقعي لا في افكار وحسب ، حتى ولا في «الوعي» ، وانما يذيبها في « الانا» الذاتي . (جزء ٦ ص ١٨١) .

يمكن ان نجد بعض العذر لناشري الكتب في ذلك العهد ، لاحجامهم عن نشر كتاب « الايديولوجية الالمانية » : اذ نجد في القسم المخصص لستيرنر اسهاباً اعتاده ماركس في مؤلفـــاته السابقة . والقارىء يضل في ثنايا معركة قلمية جدلية تتطلب منه معرفة سابقة بالمؤلف المنتقد . ولا يتكشف لنـــا عمق هذه المعركة وشدة ارتباطها بمشاكل ذلك الزمن (سنة ١٨٤٧) الا قليلًا قليلًا. والقارىء الذي يريد ان يستخلص من نقد ماركس لستيرنر عناصر نقد للفلسفة الفردية المعاصرة وتحليلًا عميقاً للفردية الموضوعية المحسوسة ــ هذا القارىء يحسن به ان يتأنى في قراءة هذا الكتاب ، متمهلًا عند تثنيات المناقشة ودوراتها .

اما القسم المخصص لفيورباخ ، ويحتمل ان يكون كتب بقلم ماركس وانجلز ، فيعرض المادية التاريخية عرضاً موفقاً مبدعاً .

« الناس هم منتجو امتثـــالاتهم ، وتصوراتهم ، وافكارهم – الناس الواقعيون الحقيقيون ، العاملون ، الخاضعون لنمو معين ، في القوى الانتـاجية... الوعي هو الانسان الواعي ، وكينونة الناس هي تطورهم الحيوي ، فاذا كان البشر ، واذا كانت ظروف تبدو مقلوبة في الايديولوجيات ، كأنها في حجيرة المصور السوداء ، فهذه الظاهرة ناتجة عن تطور تاريخي حيوي ، مَعيشي ، كما ان انقلاب صور الاشياء على شبكة العين ناتج عن سبب فيزيائي طبيعي . (الايديولوجية الالمانية جزء ٦ ص١٥٧)

وهكذا تكون الافكار والتفسيرات المثـالية **مقلوبة** اكثر منها **خاطئة** . والمادية التاريخية تتفهم الافكار ، وتوليها عنايتها بوصفها وثائق ، وتفسرهـــا ، باحثة عن **ظروفها وشروطها** ، وهذا على نقيض المثالية الجرمانية التي تزعم انها منزلة من السماء. تتخذ المادية التاريخية نقطة انطلاقها من الناس الناشطين العاملين، في حياة الواقع ، واذا عكفنا على تطور حياتهم (الاجتماعية) امكننا فهم افكارهم وانعكاسات اذهانهم .

ليس للاخلاق ولا الدين ولا للغيبيات (الميتافيزيك) **تاريخ مستقل**. (راجع ص١٥٨) ، **لانه لا تاريخ الا تاريخ الانسان**، يعني تاريخ **الناس في مجموع علاقاتهم** . ليس الوعي هـو الذي يحدد الحياة ، وانما الحياة هي التي تحدد الوعي » .

وماذا يصنع المثاليون بالتاريخ ؟ انهم ينفونه او ينسبون اليه مجرى خيالياً ، ويبدلون موضعه الحقيقي.. وكما يفصلون الفكر عن الحواس ، والروح عن الجسد ، كذلك يفصلون التاريخ عن معطيات العلوم الطبيعية ودراسة التكنيكيين . وهم لا يريدون ان يروا مكان ولادة التاريخ في الحياة المادية الارضية الخشنة ، وانما يتخيلون ولادته في ارفع آفاق السماء الغائمة . وعندئذ ، يجعلون منه ، في نطاق اهتمامهم بالتاريخ ، «ذاتاً » او « مبدأ » منفصلاً ، ويقولون: « صنع التاريخ كذا... وسوف يحكم التاريخ بأن... والتاريخ لا يرضى بكذا...» على حين ان التاريخ لا يصنع شيئاً، ولا يريد شيئاً، وهو يرضى بكل شيء... وعلى حين ان الانسان هو الذي يصنع ، ويحيا ، ويريد ، ويناضل . « والتاريخ » لا يستخدم الناس لغاياته الخاصة كأنه « عناية الهية عاقلة... » والتاريخ لا يعدو ان يكون الانسان الذي يتابع اهدافه وغاياته ، يعني ، كما سبق ان قلنا : الناس ، الافراد في علاقاتهم (راجع « الاسرة المقدسة ») .

ولنحاذر من ان نجاري الفلسفة المثالية، فنخلط بين **التاريخ** بوصفه مجموعة احداث واقعية ، **والتاريخ** بوصفه مجموعة من المعارف. والاحداث الواقعية تسبق المعرفة العلمية ، وهذه تجيء إثر تلك، فما هذه الاحداث والوقائع التاريخية ؟ انها **علاقات واقعية** ، وليست غباراً من الاقاصيص والنوادر . وما هذه العلاقات؟ وهل تخفي وراءها حقيقة سحرية خفية ؟ كلا اطلاقاً .

ان « الشيء السحري الخفي » باب من ابواب الفلسفية المثالية. والمثاليون السذج الذين يسقطون في شرك « الايديولوجيات » يكرسون كل شيء — حتى الكفر والالحاد — ولكنهم يكرسون انفسهم بخاصة . ان العلاقات التاريخية هي **علاقـــات اجتماعية** محسوسة ، ولا تصميم خلفياً لها: انها علاقات الافراد في نشاطهم الحي وفعاليتهم التطبيقية العملية . « وما ان تصبح عملية تطور العلاقات الاجتماعية ماثلة للذهن حتى يكف التاريخ عن كونه مجموعة من الوقائع الميتة..» كما هو عند الواقعيين les réalistes والتجريبيين Les empiristes او يكف عن كونه « عملاً خيالياً لذاتيات موهومة . » كما يراه المثاليون . وهكذا يتحتم على التأمل الخيالي التراجع فاسحاً المجـــال للعلم . وبذا تفقد الفلسفة المستقلة (التأملية الخيالية) شرط وجودها . ورغم ذلك تبقى الفلسفة بوصفها (خلاصة النتائج الشاملة التي يمكن استخلاصها من فحص التطور التاريخي .)

وكان ماركس وانجلز (وخصوصاً انجلز) يدققـان بشدة في الاشارة الى هذه النتـائج : نظرية المعرفة ، ونظرية النزعة الانسانية ، وعلم الطريقـة العلمية ، ولا قيمة لكل من هذه النتائج اذا أُخذ منفرداً . ومن غير المعقول استخدامه كما يستخدم التصميم الموجز بدلا من التاريخ العلمي .

يجب ان لا نحـاول – اذن – الرجوع الى « مباديء » للتاريخ ، مجردة ، وانما يجب الرجوع الى الواقـع الذي يسبق

الافتراضات الفكرية ، والى شروط التاريخ الواقعية ، والى ابسط شروطه واكثرها شمولا .

ولكي يستطيع الناس ان « يصنعوا التاريخ » يجب ان يتمكنوا من الحياة وارضاء حاجاتهم الاولية . فأول حدث تاريخي هو - اذن - انتاج الوسائل التي تتيح ارضاء هذه الحاجات ، اي انتاج الحياة المادية . وهذا ، بالفعل ، حدث تاريخي وشرط اساسي لكل تاريخ ، يجب ان يتم في يومنا هذا كما كان يجري منذ آلاف السنين ، وكما يجري في كل ساعة من النهار ، لكي يستطيع الناس ان يستمروا في الحياة . (راجع ص ١٦٥) . والالمان الذين لم يخطر هذا الواقع في اذهانهم ، لم يكن لهم مطلقاً تاريخ حقيقي . وعلى عكس ذلك الفرنسيون . وقد يضاف الانكليز اليهم ايضاً ، وجميعهم وان لم يبلغوا الوضوح الكامل ، والموضوعية الصحيحة ، حاولوا -على الاقل- اكتشاف قاعدة للتاريخ ، وذلك بكتابة تاريخ « المجتمع المدني » وتاريخ التجارة والصناعة الخ...

ومن ناحية ثانية ، فالحاجة وكفايتها ووسيلة كفايتها ، (او اداتها) تستثير حاجات جديدة ، ونرى النشاطية الاجتماعية التي تقوم بها الكائنات البشرية ، تصير الى التعقيد والتركيب ، منذ مراحلها الاولى وظروفها البدئية . ان انتاج حاجات جديدة هو **العمل** التاريخي الاول الذي يقوم به الانسان المنخرط في مجرى العلاقات الاجتماعية (راجع ص ١٦٦) وهذا **العمل**

يفصل الانسان عن الحال البهيمية، وذلك يتم في نطاق المحسوس، لا وفقاً لتعريف كلامي مجرد .

ومن ناحية ثالثة : ليست العلاقات بين الكائنات البشرية مقتصرة على علاقاتهم اثناء تعاونهم لسد حاجاتهم واستخدام الادوات . « وانما هذه العلاقات تشمل علاقة الرجل بالمرأة ، وعلاقة الوالدين بالابناء ، انها تشمل الاسرة . » وبتعبير آخر نقول ان علاقات التوالد الاجتماعي مختلطة بعلاقات الانتاج الاجتماعي . ويجب ان لا تدرس الاسرة وفقاً « لمفهوم » اخلاقي مجرد ، بل كما هي في حياة الواقع .

هذه الشروط الثلاثة لا ينفصل بعضها عن بعض، أنها مظاهر ثلاثه ، « عوامل » ثلاثة للحياة الانسانية ، متلازمة .

ولمجموعها ذاته جانب مزدوج : فمن ناحية ، علاقة الانسان بالطبيعة (علاقة طبيعية ، وفيزيولوجية عضوية) ومن ناحية ثانية ، علاقة اجتماعية ، علاقة الانسان بالانسان ، يعني علاقات الافراد بعضهم ببعض .

وينتج عن هذا ان نمطاً من الانتاج ، معيناً (يعني فعلاً تكنيكياً يقوم به الانسان في نطاق الطبيعة ، في جسمها) هو دائماً غير قابل للفصل عن نمط من العمل الاجتماعي المشترك ، اذ كان تنظيم العمل تنظيماً عضوياً هو نفسه «قوة انتاجية». ان كمية القوى الانتاجية ، وقدرة الانسان على الطبيعة ، هما اللتان

تضعان الشروط المحسوسة لكل مجتمع ، وتخلقان ظروفه . ودراسة كل مجتمع تتطلب مقابل ذلك ، دراسة علاقة الانسان بالطبيعة (العلاقة الطبيعية، والجغرافية،والبيولوجية، والعضويةالخ) ودراسة ادواته (التكنيكية) ودراسة كيفية استخدام هذه الادوات (تنظيم العمل تنظيماً عضوياً) وهذا يعين دراسة القوى المنتجة ، والعلاقات الاجتماعية للانتاج .

لا يمكن فصل العلم بالطبيعة المادية ، عن العلم بالانسان . **الانسان يتميز من الطبيعة ، ولكنه لا ينفصل عنها** ، (راجع « الايديولوجية الالمانية » ص ١٥٤) فكل بحث تاريخي ينطلق – اذن – من الاسس الطبيعية للحياة الاجتماعية ، ولكن دون اغفال للتحولات التي تفرضها الحياة الاجتماعية على هذه الاسس.»

والانسان ، قبل ان يتميز من الطبيعة ، وعن الحيوانات بفكره (بفكر نظري مجرد) يتميز منها ، **في حياة الواقع** ، **وبالفعل** ، **حين ينتج** وسائل بقائه بدلاً من ان يتلقاها من الطبيعة تلقياً سلبياً .

فالواقع – اذن – هو انه : « اذا عاش افراد معينون ، محددون، في علاقات انتاج معينة، نتج عن ذلك علاقات اجتماعية وسياسية معينة ، محددة . »

والواقع ان الشروط التي حللناها في الصفحات السابقة ليست الا الشروط العامة ، الاولية ، يتأسس عليها نظام تطوري معقد

اكثر فأكثر . وعندئذ يتحتم على المؤرخ والعالم الاجتماعي « ان يكتشف ، في كل حالة تعرض للدرس ، ودون الانسياق مع الوهم الايديولوجي او التأملي الخيالي، الصلة بين التنظيم العضوي الاجتماعي والسياسي ، وبين الانتاج . » وهذه الصلة موجودة ، وان كانت مشوشة او معقدة ؛ ويجب اكتشافها ، في كل حال من الاحوال ، **موضوعياً** ، ولا تصدر هذه الصلة عما فكر به او اعتقده الافراد الذين انخرطوا في هذه العلاقات ، ولا « عما كان يمكن ان يبدو به هؤلاء الافراد في نظر انفسهم او في نظر الآخرين. » وانما تصدر هذه الصلة عما كان هؤلاء الافراد حقاً ، في الواقع ، يعني عما كانوا يعملون ، وعن نشاطاتهم وافعالهم .

فكل كيان اجتماعي ينكشف لنا ـ إذن ـ عن وجهين : وجه ظاهر ووجه واقعي حقيقي. ويجب ان ينطلق علم الاجتماع والتاريخ ، من الظاهرات ، ليصلا الى الواقعي والجوهري... شأنهما في ذلك شأن سائر العلوم ، ولكن التاريخ (العلم) يظل خلال مراحل هذا البحث ، يعمل في نطاق التاريخ (الاحداث الواقعية) فالمؤرخ لا يستطيع اطلاقاً تفسير الاحداث معتمداً وعيه الخاص ولا « الوعي » بصورة عامة ، او **الفكرة** ، ان عليه ان يعلم بأنـــه **لا الفكرة** ، ولا **المثل الاعلى** ولا **الفكر النقدي**، كانت هي القوى المحركة للتاريخ . « ان محرك التاريخ هو الانقلاب العملي التطبيقي في العلاقات الاجتماعية . »

والمؤرخ يجد، في كل مرحلة ، وفي كل عهد من عهود

التاريخ « مجموعة من القوى المنتجة ؛ وعلاقة النـــاس بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالطبيعة ، ينقلها الجيل السابق الى الجيل الذي يليه ، وهذا الجيل الجديد يحوّل العلاقة القديمة ويطوّرهـا . »
وهذا هو الاساس الحقيقي لما نقله الفلاسفة الى نطاق آخر وسمّوه « ذات » الانسان ، او جوهره ؛ ووعيه ، وروحه، او فكره.

فهل يعني هذا اننا ننفي الوعي والفكر او العقل ؟ كلا اطلاقاً ! ان الامر ينحصر ، في نظر ماركس وانجلز في **مشاهدة هذه العناصر** (الوعي ، والفكر الخ..) **وهي تولد ،** ومتابعـــة تكوّنهـا من شروطهـا الاولى ، في حركتها التاريخية ، وتطورها التاريخي .

ولا يستطيع الفكر التحرر من واقع يلازمه ، ويخيل اليه انه لعنة حقَّت عليه. فهو مثقل بمادية (تستبين في شكل حواس، وبكلمة مختصرة : في شكل اللغة ؛ فاللغة قديمة قِدَم الوعي . » واللغة (او النطق Le langage) هي ، عملياً ، تطبيقاً «الوعي الموجود بالنسبة إلى سائر الناس ، يعني بالنسبة إليّ ايضـــاً . (ايديولوجية – ص ١٦٨) . هنا يتبين لنا استحالة الفصل بين الموضوع والذات ، بين الشرط والمشروط ، وقد سبق لماركس وانجلز ان أكدا هذا في « مخطوطة ١٨٤٤ » .

ليس وعي الانسان في مستهلّه الا غريزة ، واعيـــة ، « ووعيـاً يقتصر على الاحساس المباشر بمـــا يجاوره ، ووعياً للروابط المحدودة التي تصلنـا بالاشخاص الاخرين او بالاشياء

الاخرى . » . وهذا لا يعدو ان يكون في البدء ، احساسا حيوانياً بالطبيعة ، ويستمر هـذا ما بقيت الطبيعة غير متطورة بفعل الانسان ، ولا ينمو الوعي ولا يتطور الا بازدياد السيطرة العمليـة التطبيقية على الطبيعة ، والا بازدياد الطاقة الانتاجية في العمل ، وتعقد الحاجات والنشاطات والعلاقات وتزايد عددها . ويتـــدخل **تقسيم العمل** هنـا ، لا بوصفه شرطـاً لنمو الوعي وتطوره ، بل بكونه يحدد الشكل الذي يتخذه هذا النمو.

« لا يصير تقسيم العمل واقعيـاً حقيقيـــاً الا منذ اللحظة التي ينشأ فيها الانقسام بين العمل المـــادي والعمل الذهني . فانه في هذه اللحظة يتاح للوعي الانعتاق والانطلاق في تكوين النظرية المحض... ولكن اذا كانت هذه النظرية (اللاهوت ، والاخلاق ، والفلسفة الخ...) تدخل في منازعة ومناقضة مـع الظروف الموجودة السائدة ، فهـذا لا يمكن ان يحصل الا لان الظروف الاجتماعية المهيمنة تكون قد دخلت في مناقضة ومنازعة مع القوى المنتجة الراهنة . »

« وما يفعله الوعي وحده ليس له ادنى فـائدة . ولنحتفظ من ركام الايديولوجيات بهذا الواقع القائل بان العوامل الثلاثة (القوى المنتجة، والعلاقات الاجتماعية، والوعي) يمكن بل يجب ان تدخل في منازعة ومناقضة بعضها مع بعض، بسبب « من ان تقسيم العمل يجعل من الممكن بـل من الضروري ان يكون النشاط المادي ، والنشاط الروحي (الفكري) والعمل الجاهد ،

والمتعة ، والانتاج ، والاستهلاك ، من نصيب فئتين مختلفتين...»

«فتقسيم العمل ، والملكية الفردية تعبيران متعادلان يعبر احدهما [بالنسبة الى النشاط العملي] عما يعبر عنه الآخر بالنسبة الى نتاج النشاط العملي .»

« وفي التناقض بين المصلحة الفردية ، والمصلحة العامة ، تتخذ المصلحة العامة بوصفها دولة ، شكلاً مستقلاً ، متميزاً من المصالح الواقعية من فردية وجماعية، وبهذا تصبح متّحداً مزعوماً، ولكن تقوم دوماً على قاعدة العلاقات الواقعية الموجودة فعلاً - الاسرة ، والجنس ، واللغة ، والتقسيم الواسع في العمل ، والمصالح الاخرى - وبخاصة : **الطبقات**... ويترتب على هذا ان المعارك داخل **الدولة** ، في سبيل الحقوق ، في سبيل ما هو شامل ، ليست الا الشكل الوهمي المتحد، وليست الا المظاهر التي تنشب خلفها المعارك الحقيقية بين الطبقات .

ان افكار الطبقة المهيمنة ، هي ، في كل عهد ، الافكار المهيمنة، وهذا يعني ان الطبقة المسيطرة مادياً في المجتمع، هي ايضاً القوة التي تسيطر فكرياً وروحياً... والافكار السائدة المهيمنة ليست الا التعبير الايديولوجي عن العلاقات الاجتماعية الواقعية المهيمنة - انها ، اي هذه العلاقات ، مُدْرَكة بصورة افكار - اي انها هي الشروط التي تجعل من هذه الطبقة ، طبقة سائدة

مسيطرة ، واخيراً هي : افكار هذه الطبقة ، افكار سيادتها وسيطرتها .

« في هذه الطبقة ، يغدو البعض مفكرين (الايديولوجيون العاملون ، وصناعتهم الرئيسة تنحصر في صناعة الاوهام التي تنظر هذه الطبقة بها الى نفسها..) على حين يسلك الآخرون سلوكاً اكثر سلبية، واكثر تبعية وتلقيا لهذه الاوهام: ولكن الواقع أن هؤلاء هم الاعضاء الناشطون في الطبقة المذكورة ، وليس لديهم الا قليل من الوقت يخصصونه لصناعة الاوهام والافكار عن انفسهم . ويمكن ان يؤدي هذا التقسيم في العمل الى نوع من العداء بين هاتين الفئتين ، ولكنه يتلاشى حين تكون الطبقة في خطر...» (الايديولوجية الالمانية).

كل طبقة صاعدة تنادي بان مصالحها هي مصالح المجتمع كله . وهذا يعني انها تعبر عنها تعبيراً مثاليا ، فتهب افكارها صيغة الشمول ، وتحاول تقديمها بأنها هي الافكار العقلانية الكاملة ، وهي تستطيع ذلك .

ويبقى لهذه الصيغة محتوى حقيقي واقعي ، ما بقيت مصلحة الطبقة الصاعدة (الثورية) مفضية الى (او متلائمة مع) مصلحة جميع الطبقات، باستثناء الطبقة المنهارة ، التي كانت سائدة . هذا ما حدث فعلاً للطبقة البورجوازية حين تغلبت على الاقطاعية .

ولما نجحت الافكار المهيمنة في تقديم نفسها بأنها شاملة ،

وانهـا خارج المصالح السائدة ، وفوق المصالح السائدة ، ادّى ذلك الى الظن بأن الافكار هي التي تسود دائما في التاريخ؛ وفي هذا العهد جرى تجريد **الفكرة** او **الانسان الاعلى** او **الوعي** ، لعرضها كأنهـا هي صانعة التاريخ . لقد استُبعِدت من التاريخ جميع العناصر المادية فاستطاع بعض المفكرين بعدئذ « اطلاق العنان لجواد الفكر التأملي... »

وللوهم الايديولوجي مظهر آخر : فان الوعي يتأخر . وهو يتمثل الحاضر بصيغ سالفة واشكال سابقة . وهذا التأخر في الوعي يفسر بواقع هو ان العلاقـات والمصالح التي تخطتها القوى المنتجة ، تظل عهداً طويلاً مالكة لسلطة تقليدية ، مجمدة ، « مُشيَّأة » Chosifiée تفرضها على الناس ، وذلك في مناحي الحقوق ، والدولة ، وفي تركيب الطبقات. والتناقض بين الوهم الايديولوجي والواقع ، يؤدي ـ اذن ـ الى تناقض في الواقع !

« وهذا التناقض بين القوى المنتجة وشكل العلاقات الاجتماعية قد ظهر واضحا مراراً كثيرة في التاريخ ـ دون ان يؤدي الى انقلاب نهـائي في اسس التاريخ ـ وذلك **بثورة** ، اتخذت صيغاً مختلفه تابعة : مصادمـات بين الطبقات وصراع ، وعراك بين الافكار ، مناقضات في درجات الوعي ، معـارك سياسية الخ.. وحين ننظر من وجهة نظر محدودة ، يمكن ان نظن احدى هذه الصيغ اساساً لجميع هذه الثورات ويسهل هذا اكثر فاكثر ، بمقدار ما يعمد الافراد الذين استثاروا الثورات ، الى

إيهام انفسهم بانفسهم في شأن نشاطهم الخاص واثرهم في هذه الحركات (ويتم ذلك وفقاً لدرجة ثقافتهم ، ووفقاً لمستوى تطورهم التاريخي) . «ان لجميع معارك التاريخ اساسها العميق في التناقض بين القوة المنتجة وشكل العلاقات وصيغتها . »

فلنترك الآن، جانباً، تطور النظرية (التحول من تقسيم العمل الى التبادل ، والتجارة ، ورأس المال..) والتعبير عن هذا التطور ، في كتاب «الايديولوجية الالمانية» ، بقي مبهماً . ويجب ان لا نطلب في هذا الكتاب، بخصوص القضايا الاقتصادية والسياسية ، الا صورة موجزة اولية ، عن المذهب الماركسي .

ولكننا نجد في هذا الكتاب ، النظرية العامة في المادية التاريخية ، وحدها ، مصوغة في وضوح ودقة . ففيم تنحصر هذه النظرية بالضبط ؟

«ان هذا المفهوم عن التاريخ يرتكز على دراسة تطورالانتاج في نموه التدريجي التاريخي ، انطلاقاً من نقطة هي انتاج الحياة ، من خلال البحث لاكتشاف نمط التوزيع القديم المتصل بنمط الانتاج الذي انتج ذلك النوع من التوزيع . وهذا يعني ـ اذن ـ فهم المجتمع المدني في مختلف درجاته اساساً للتاريخ.. » على نحو يتيح لنا ان نتبع اشكال الوعي ، منذ اول نشأتها وتكوينها ، وادراك كنه **التفاعل** بين مختلف مظاهر التاريخ هذه . (الجزء السادس ـ ص ١٨٤) .

ان شروط النشاط وظروفه (وهي معاً ـ **شروط النشاط الفردي** ، والعقبات ، او **الحدود** التي تقيد هذا النشاط ـ راجع ص ٢٣٣) من شأنها ان تنتج في مجرى التطور التاريخي سلسلة متصلة من اشكال التبادل والتوزيع والتجارة. وصلاتها التاريخية ناتجة عن انه عند كل تقدم في القدرة البشرية على الطبيعة ، وعند كل تقدم للقوى المنتجة ، ثم عند كل تقدم للنشاطية الفردية ، يتحتم استبدال علاقات جديدة بالعلاقات السابقة. « **وهذا النمو التطوري انما يحدث طبيعياً** . » ولننعم النظر جيداً في هذه الصيغة ! فهي اساسية جوهريـة (ص ٢٣٤) . ان التطور التاريخي لهو تطور تدريجي **طبيعي** ويجب ان يدَرس بهذه الصفة يعني **موضوعياً** ، علمياً .

فهل يعني هذا ان دراسته تتم **دون وعي** ، ودون افكار ؟ كلا ! لقد سبق ان تحدثنا عن تلك « **الموضوعية المعمَّقة** » التي نجدها ماثلة حتى في العلم الحديث (علم الطبيعة الخ...) والذي لا يتجرد عن « الذات » لمصلحة شيء مادي ، جامد ، خارجي، آليmécanique ففي النمو الطبيعي التدريجي للتطور الاجتماعي **يولد الوعي** الواقعي، الحقيقي، ويتطور. وانما هو يولد في الناس الواقعيين خلال اوهامهم « الايديولوجية » المختلفة .

ولنعمد الى المقارنة : ان النمو التطوري الاجتماعي ، ان عملية التطور الاجتماعية، يمكن (بل يجب) ان تدرَس كما يدرَس نمو الطفل (هذا بعد ان نصرف النظر في هذه المقارنة عن الفروق

العديدة بين الحالين) فإذا اراد انسان ان يفسر الطفل الوليد ، وصرخاته وحركاته ثم تمتماته الاولى « بالروح » و « الفكر » ، **والفكرة العليا** ، فهذا الانسان المثالي ينم عن جنون المثالية الغيبية . فلنتتابع المراحل الحقيقية في المسألة : اولاً ، جسد الطفل ، ثم وعيه . فنحن نرى وعيه يولد وينمو بنمو جهازه العضوي Son organisme ، ونمو قدرته على الحركة ، وفعله ، وقدرته على الاشياء المادية المحيطة به ، ثم بنمو لغته ، ونطقه ، وذكائه . ونمو هذا الطفل يمكن ان نلاحظه ، وندرسه ؛ انه نمو تدريجي طبيعي . ثم ان هذا الطفل موجود ، **موضوعياً** ـ بوصفه عضوية فاعلة ، بالاضافة الى انه يوجد بالنسبة الى نفسه ، « ذاتياً » بوصفه وعياً (او بما له من وعي) . وكلا هذين المظهرين يترتب عليه وجود الآخر ، ويتضمنه او ينطوي عليه . غير ان الوجود الموضوعي ، المادي ، يسبق الوجود **الذاتي** ، **الوعي** ، وهو ـ اي الوجود الموضوعي ـ الشرط لوجود هذا الوعي. وحين يبلغ اولى تمتماته، وتحسسه الاول في مجال الادراك، وحين يأخذ في حب الاساطير وخرافات الجنيات، وحين يبتكر احياناً بعض هذه الخرافات وينسب الى نفسه دوراً فيها ـ في هذه الحال لسنا مجبرين على تصديق ما يقول عن نفسه ، او ما يظن في نفسه ، ولو وجدنا في ذلك بعض السحر والجمال !...

ونمو الانسان الاجتماعي ، وتطور وعيه ، انما يتمان على « **نحو طبيعي** » يعني دون معرفة حقيقية صحيحة (ولكن ليس

دون وعي) الى ان يأتي يوم يبرز فيه الفكر العلمي من هذا النمو التطوري نفسه .

وهذا الفكر العلمي ، وقد كونته الدراسة العلمية للطبيعة ، يجري تطبيقه اخيراً على سلم التطور الاجتماعي. وهذا الفكر **يعرف** السلم التطوري ، **ويدركه** حق الادراك ، وفي الوقت نفسه يستطيع توجيهه وفقاً لتصميم مجموعي شامل Suivant un plan d'ensemble (راجع الايديولوجية الالمانية) وعندئذ يكف التطور الاجتماعي عن ان يكون تطوراً طبيعياً ، ليصبح تطوراً عقلانياً (يجري وفق سنن العقل وتوجيهه) وعلى كل حال ، فالعقل والمعرفة انما يصدران عن سلم التطور الطبيعي نفسه ، **في درجة معينة** من درجات تطوره .

ويترتب على هذا المفهوم امتداد حقل العلم « الموضوع » حتى يشمل الاحداث والوقائع الانسانية (والاجتماعية). ولهذا السبب ألح ماركس وانجلز الحاحاً في التوكيد على وحدة ما بين الانسان والطبيعة، وعلى وحدة علم الطبيعة وعلم الانسان. وعلاقة الانسان بذاته ليست الا المظهر الآخر ، او القطب الآخر ، لعلاقة الانسان بالطبيعة . كما ان استثمار الانسان للانسان (الانقسام الاجتماعي الى طبقات) كان مظهراً من مظاهر استثمار الانسان للطبيعة استثماراً منظماً .

واستمر هذا حتى عصرنا الحاضر ، حيث تتجلى ، دفعة واحدة ، وفي وقت معاً ، شروط تحرر الانسان وشروط

المعرفة العقلانية للانسان . وتمر الانسانية اليوم في مرحلة تعدُّ مستهلّ سنّ الرشد بالنسبة اليها : هـذا التـاريخ الصحيح الواعي ، « المصمَّم » المخطط planifié والمنظم تنظيماً عضويـاً Organisé . والوعي ، (أي الغريزة الواعيـة) اضحت معرفة وعقلاً ؛ وهذه الدرجة الجديدة ، هذه القفزة الى الامام ، أضحت تحولاً تطورياً عظيماً . انها ثورة كاملة .

بقي المؤرخون ، حتى عهـد ماركس وانجلز ، يعنون ، بخاصة ، او يقصرون عنايتهم على الدوافع الايديولوجية (الذاتية) للاعمال التاريخية والوقائع ، دون البحث عن عناصر تكوين هذه الدوافع (عن عناصرها الحقيقية ، الواقعة ، المـادية) اي دون ادراك القانون الموضوعي للتطور التاريخي وتسلسل الوقائـع وعلاقاتها .

وقد بقي التاريـخ ، حتى ذلك العهد ، وصفـاً ، ومجموعة من النوادر والحكايات لا تجمعها صلة ولا آصرة .

وكان التاريخ يبدو ـ من قبل ـ في نظر المؤرخين ، متاهة من المبادرات الفردية ومن اعمال القسوة اللامعقولة . وكان يبدو غبارا من الوقائع والاحداث . ولم يكن علم التاريخ يبلغ الى ابعد من المظهر (الايديولوجي) ولم يكن ينطلق نحو الواقع الذي يستبين خلال المظهر (الظاهرة phénomène) ويفسره . فالتاريخ لم يكن علماً ، وانما كان تمتمات طفولية ينطق بها الوعي الوليد .

وهكذا كان هؤلاء المؤرخون المثـــاليون يهملون سواد الشعب ، يهملون الجماهير ، وكانوا يزدرونها ازدراء واضحاً بيناً. وهكذا كان يزعم الهيجليون الفتيان ، وانصار النزعة الفردية ممن كانوا يدعون « اليسارية »، واستطاع ماركس وانجلز، بدراسة مجموعة الوقائع التاريخية ، والاجتماعية ، « وتبويبها » ، وترتيبها وفقاً لدرجة واقعيتها. وقد اكتشفا تحت هذه الاتجاهات الفكرية والافكار المتناقضة المتنازعة ، وتحت المعـــارك الايديولوجية والسياسية ، الشروطَ المعينة المحددة للوجود الانساني ، وللحياة والانتـاج ، وشروط مختلف المستويات المعينة التي تتحكم بنمو القوى المنتجة ـ وهكذا اكتشفا الحوادث في مجموعها وكليتها ، والقوى الانسانية الاجمالية globale الاحصائية : سواد الجماهير، والطبقـــات الاجتماعية . ان الافراد ـ اي الناس ـ يفعلون . والناس هم الذين يصنعون التاريخ . و « كتاب الايديولوجية الالمانية » يحدد ، لكي يرد على افكار الفرديين ، تحديداً دقيقاً العلاقـاتِ المركبة ، المتحولة ، بين الفرد والطبقة، او سواد الجماهير (راجع المقدمة) . ولكن الفرد لا يصنع التاريخ على نحو فردي ، وهو منعزل .

وسرعان ما تجلت لنا سخافة افتراض ستيرنر ، منذ ان عبر عنه . ان الفرد يعمل داخل شروط معينة وظروف (تسمح له بالقيام بمبادرته وتضع العقبات دونها ، في وقت معاً) .

والفرد يعمل دائما بوصفه ممثلًا او ناطقاً بلسان جمهور معين ، او طبقة .

وعلى رغم التعدد العظيم والاختلاف في مظـاهر التاريخ ، يبقى التاريخ حركـة تطورية نامية واحدة ، وصيرورة شاسعة لا قوانين لهـا الا قوانين الطبيعة ، الا قوانين كل صيرورة . **ان التاريخ يفضي الى علم الاجتماع العلمي ويتلاءم معه .**

فكتاب « الايديولوجية الالمانية » تستخلص منه — اذن — الموضوعات الاساسية **للمادية التاريخية** ، في نقد معمّق للفلسفة الالمـانية ، وللفلسفة المثالية الالمانية المسيحية ، تلك المثالية التي اعتبرها ماركس وانجلز وجهاً مميزاً معبراً .

وهذا الكتاب يهدينا ايضـــاً الى بعض الملاحظات المهمة:
أ — نجد فيه صيغة «للمادية التاريخية » لا تبلغ من دقة التفاصيل واكتمال الامر والنضج مـا بلغته ، بعد ذلك ، في «مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي » بقلم ماركس .

وظل فكر ماركس ، بين عـامي ١٨٤٦ و ١٨٥٩ يتقدم ويتطور ويغنى ، وفي الناحية التي نحن بصددهــا ، اي المادية التاريخية ، يكتسب دقة .

وفي عام ١٨٥٩ عبر ماركس تعبيراً واضحــاً عن مفهوم التركيب الاعلى Superstructure او البناء الفوقي ، « ان مجموع علاقات الانتاج يكوّن التركيب الاقتصادي للمجتمع ،

والقاعدة الحقيقية الواقعية التي يُشَاد عليهـــا بناء فوقي تشريعي وسياسي تفضي اليه اشكال الوعي المحددة المعينة . »

لم يكن ماركس، في عام ١٨٤٦ ، قد حدد تحديداً واضحاً مفهومه عن «نمط الانتاج » و « العلاقات الاجتماعية » فالعلاقات الاجتماعية قد تبدو احياناً علاقات تبادل ، **وتوزيع** ، تقتصر صفتها على انها متناسبة مع **علاقات الانتاج** دون ان تتميز الصلة بينهـــا . وعندئـذ لا نرى بوضوح هل « **علاقات الملكية** » تؤلف جزءاً من القوى المنتجة (جزءاً من العمل ، مباشرة) او هي مظهر آخر من مظاهر عملية التطور؛ وكلمة شكل (شكل الملكية ، شكل الانتاج) تستخدم في اغراض شتى ، وتخفي حقيقة المشكلة . وسوف نرى ان ماركس ما إن يدرك عامَ ١٨٥٩ حتى يصفو فكره ، ويتضح . « **فالقوى المنتجة** » في نظرة تتضمن : الطبيعة ، وتقنيـــة La technique العمل ، والادوات والوسائل ، وتنظيم العمل وتقسيمه .

ونمط الانتاج وعلاقات الانتاج تستبين كلها (اي تظهر ، وتعبر عن ذاتهـــا) في شكلها الحقوقي والتشريعي : اي في **علاقات الملكية** ، واخيراً تتجلى في ذلك الصرح الضخم الشامع المؤلف من كيانات وتراكيب عليا Des superstructures سياسية ، ودينية ، وفنية ، وفلسفية ، وايديولوجية...

وبعض هذه المفاهيم سوف تتحدد تحديداً دقيقاً قبل ١٨٥٩. وهكذا منذ ١٨٤٧ ، يشير مـــاركس لبرودون بأن الآلة

ليست باباً او صنفاً eatégorie اقتصادياً فكرياً ، وانما هي حدث تكنيكي واقعي؛ اما الصنف الاقتصادي ، فهو **الورشة**، والمانيفاكتورة ، يعني الآلة في اطار تنظيم العمل[1] .

وواضح، من ناحية ثانية ، ان نمط الانتاج او علاقات الانتاج تفعل باستمرار في القوى المنتجة ، وتتفاعل معهـا ولا تستطيع الانفصال عنها الا بالدراسة التحليلية ولاجل هذه الدراسة .

وسوف يترك ماركس ، عام ١٨٥٩ ، مسألة الفرد جانباً ، بعد تفكير وروية ، فيقول : « ينخرط الناس اثنـــاء انتاجهم الاجتماعي لوجودهم ، في علاقات معينة ، محـددة ، ضرورية ، حتمية ، مستقلة عن ارادتهم . » وكتاب **الايديولوجية الالمانية** يصور لنا تصويراً واضحاً كيف يفعل الافراد ، وكيف تصير ظروف نشاطهم الى الانفصال بعضها عن بعض، الى « التَّشيُؤ » à se chosifier خارجاً عنهم لتُحدد وجودهم وتعينه .

ب ــ ما محل نظرية الانحطاط او التخلي عن الجوهر théo-rie de l'aliénatin التي كانت المدار الاول لاهتمام « مخطوطة » ١٨٤٤ ، مـا محل هذه النظرية في المادية التاريخية ؟ لم ترد كلمة انحطاط او تخلٍ في الكتاب . ومن ناحية عامة ، عني ماركس وانجلز (طوال معاركهما القلمية ، ولكي لا يعرّضـــا صدريهما

(١) طبعاً يجب ان لا نبتغي في كتاب « الايديولوجية الالمانية » الا بعض الاشارات التي تنبيء عن « رأس المال » .

لسهام الاعداء) باتخـــاذ ما وسعهما من الحيطـــة والحذر ، ولكنهما (كما اعترف انجلز بذلك فيما بعد - راجع رسالته الى بلوخ سنة ١٨٩٠) كانا يبالغـان في هذا الامر . ففي كتاب **الايديولوجية الالمانية** تجشما عنـاء كبيراً لـكيلا يستعملا التعابير الفلسفية . فان استعملاها أحياناً فللسخر والتندر . وهما يقولان في هذا الكتاب، « انه لـكي يستطيع الفلاسفة فهم فكرة التجسد الخارجي للانسان ، فليس لهم الا تخطيهـا في ظروف معينة معروفة... » وبعد هذا يبين ماركس وانجلز للفلاسفة ان شروط هذا التخطي ليست نظرية وانما هي عملية : « يجب ان يكون الانسان قد بلغ مرحلة أُنتجت فيها كمية ضخمة خاصة من الملكية ، مقابل عـالم من الثروات والملكية - وكذلك يجب ان يكون الانسان قد بلغ الى مستوى عـــال من نمو القوى المنتجة » (راجع الجزء السادس ص ١٧٦)

وهـذا النص يشير الى ان المذهب الفلسفي الذي يصف الانحطاط او التخلي عن الجوهر l'aliénation والمأخوذ عن فلسفة هيجل المثـــالية لم يختف عند ماركس وانجلز بسبب مشاغلهما الجديدة . ففي اثنـــاء الحملة القلمية العنيفة (في الايديولوجية الالمانية) يشدد العالِمـــان في التوكيد على **المادية** ، وعلى نقد الفيلسوف المادي فيورباخ وعلى العوامل المتزايدة لغنى المادية . على ان نظرية التخلي - النظرية المثالية في التاريخ - بقيت ماثلة في ابحاث ماركس وانجلز، بل بقيت عنصراً اساسياً في الابحاث.

وسوف تغنى المادية بسبب إسهام تلك النظرية في تكوين المادية.

« يدلنا تقسيم العمل على انه ما بقي الناس يعيشون في المجتمع الطبيعي - أي ما بقي النشاط غير موزع ارادياً ، بل طبيعياً عفوياً - فان عمل الانسان المنبثق عنه يصير دائماً قوة غريبة عنه ، خارجة عن ارادته ، تستعبده وتخضعه لنيرها بدلاً من ان يكون هو المهيمن عليها . » (الايديولوجية ص ١٤٧).

وبسبب تقسيم العمل تنشب منازعة بين مجموع البشر ، وبين الافراد : والافراد يكفّون عن رؤية المجموع وفهمه . وفي اللحظة نفسها من التاريخ ، حيث يرقى افراد البشر الى الفكر ، يكف تفكير الفرد المنقطع الى عمله الجزئي ، عن فهم الكل الاجتماعي ، ويحدث هذا في اللحظة الدقيقة الحاسمة حين يكون الكل الاجتماعي آخذاً بالاتساع والصمود ، وآخذاً في الغنى المادي والفكري ! ويجد كل فرد نفسه خاضعاً لدائرته الصغيرة الخاصة ، وسجيناً في ظروف حياته ، وخاضعاً لكلٍ اجتماعي لا يستطيع ، أي الفرد ، ان يفهمه ، فيعز على فكره ويستعصي على نفوذه وتأثيره العملي . ان تثبيت دعائم النشاط الاجتماعي وتقوية اواصر الانتاج الذي ينتجه الانسان ، وصياغته في (او تحويله الى) قوة لا تخضع لرقابتنا الانسانية ، وانما تخيب آمالنا، وتلاشي حساباتنا . » -- هذه المظاهر كلها ، وهذه الوقائع ، هي من اهم وقائع حركة التاريخ . وهذا التصور الخارجي لشيء داخل الذات ، هذا التجسيد الخارجي cette extériorisation

(و نستعمل هنا تعبير الفلاسفة) للانسان الواقعي ، هو نفسه واقعي حقيقي ايضـــاً : انه يتخذ شكل العبودية ، والرق ، والملكية ، والمنازعات بين الطبقات، واخيراً يتجسد في **الدولة**، هذا المتحد الموهوم الذي يشيد على قاعدة العلاقات الراهنة .

والشيوعية، التي بدأت شروطها تتحقق في ايامنا هذه، سوف تتخطى **الدولة** . فما هذه الشيوعية ، اذن ؟ يحدد ماركس وانجلز مفهوم الشيوعية تحديداً دقيقاً فيقولان انها ليست «دولة» ولا مثلاً فكرياً اعلى . «نحن نطلق اسم الشيوعية على الحركة التي تميل وتتجه جاهدة الى الغاء الحال الراهنة وتخطيها... والغاء الملكية الخاصة ، وتنظيم الانتاج على اساس شيوعي اشتراكي ، يترتب عليها حتماً الغـاء هذا الوضع الشاذ ، وضع البشر الذين يجدون أنفسهم مطرودين خارج نتاجهم الذي يصنعونه بايديهم! » (ايديولوجية ص ١٧٨) .

ويظهر ان **الشيوعية** (بعد ان حددهـا ماركس وانجلز بانها الحركة، وانها تخطي حالة الانحطاط وحالة التخلي من الجوهر الانساني في شروط تاريخية واقعية حقيقية) كانت تبدو وشيكة الظهور ، في نظر ماركس وانجلز .

وماركس وانجلز ، بالتوكيد على المادية ، في هذا المؤلف النقدي ، تخليا او كادا يتخليان عن الديالكتيك ، رغم انهما اعتمداه في بعض اجزاء الكتاب، وجاءا في هذا الكتاب يبينان استحالة الانفصال بين عوامل التاريخ ، تاريخ الانسان بوصفه

عملية تطورية للكل، وللمجموع، وتفاعل العوامل، ومنازعاتها، وتناقضاتها. وماركس وانجلز اعتمدا الديالكتيك الهيجلي ولم ينصا على ذلك.

وكان شغلهما الدائم في هذا المؤلف، متجهاً الى التدليل، في مادية الوقائع والاحداث، على اساس العلاقات الاجتماعية، والى اقامة البرهان على ان الكائن (المادي والاجتماعي) يسبق وجوده الوعيَ، ويضع له شروطه وظروفه، ولاقامة البرهان ايضاً على انه من المستحيل فصل الافكار والوعي عن ظروفها الواقعية وشروطها، ليكوّن منها الفيلسوف المثالي حركة تطورية فكرية مستقلة، وموضوعاً قائماً بذاته، وعالماً من الافكار، «تصعيدياً تصورياً» اسمى من العالم الطبيعي (المادي).

كان ماركس وانجلز يكافحان الفلسفة المثالية، والفلسفة «المادية»، ويكافحان كل فلسفة تصورية تأملية، من وجهة عامة، ولكن بعد ان ادخلا اكتشافات هذه الفلسفات في المادية التاريخية، مطورةً.

ادرك الميتافيزيكي المثالي هيجل قانون التطور البشري. فالانسان يخلق ذاته، اثناء التناقضات، خلال فترات زمنية تاريخية ومراحل «غير انسانية»: وهي الشيء «الآخر» L'autre من الانسان، يعني جانب تقهقره وانحطاطه. في هذا تتكشف المثالية عن ثمرة ثمينة بهية.

ومار كس وانجلز قطفا هذه الثمرة ، دون ان ينسيا ان فيورباخ اشار الى الموضوع الحقيقي الواقعي لعمليـــة التطور التاريخي: الانسان الحي ، ذو اللحم والدم ، الذي يتطور وهو يتقهقر وينحط S'aliène ، ويتقهقر بتطوره . وهذه الثمرة من ثمرات المادية الفلسفية قطفها مار كس وانجلز ايضاً. هنا لا يمكن ان يكون الامر مقتصرا على الفلسفة المجردة المحض . فـالموقف الفلسفي كان موقفاً تأملياً. وهذا الموقف ، وهو النتيجة البعيدة لتقسيم العمل في الازمان السالفة ، يكون بمثابة نشاط مشوه ، ينظر الى الاشياء من جانب واحد: وهو الفكر المجرد «المحض» والمادية التاريخية تتخطى الفكر المجرد ، ولكنها تكمله . لقد ارادت الفلسفة ، في جميع الازمـــان ، ان تبلغ الموضوعية والضرورة الحتمية ، وشمول الفكر ، وفعاليته. وارادت الفلسفة في جميع الازمان ، استبعاد المظـــاهر لبلوغ الواقع الحقيقي . والمادية التاريخية تحقق مطامح الفلاسفة. **وهي ، بتخطيها الفلسفة التأملية التصورية ، ترفع الفلسفة الى مستوى سام .**

ورغم ذلك، فمار كس وانجلز يتركان جانباً في هذا المؤلف، نظرية المعرفة ، والنزعة الانسانية نفسها[1] . وسوف تتضح فيما

---

١) راجع نقد « انسان » الفلاسفة (الايديولوجية الالمانية ص ١٢٧ – ٢٢٥ – ٢٤٤ الخ...) وراجع ، من ناحية ثانية ، انتصار الفرد في الشيوعية: « ان ما توجده الشيوعية ان هو الا قاعدة اساسية لالغاء كل مـــا هو خارج ارادة الافراد ، والذي، على رغم ذلك، ليس الا نتاجـــاً للعلاقات القديمة بين الافراد . »

بعد ، هذه الجوانب من فكرهما ، وتنجلي ، وتجيء لتنصب في مجرى العلم ، حين يهلّ تقدم جديد .

ج — ان جميع اجزاء الدراسة المخصصة **للفرد** (الايديولوجية الالمانية، الجزء السادس ص ٢٢٠ — ٢٤٥) تقدم لنا ملاحظات قيمة تتيح لنا الاطلاع ، ثانية ، على وجه من وجوه المـــادية التاريخية ، صدف عنه ماركس وانجلز فيما بعد .

ان الفلسفة المجردة المحض ، صنيع الفيلسوف المنعزل ، وهي حتما فلسفة فردية . وكتاب « الايديولوجية الالمانية » ينقد — اذن — معاً الفلسفة الفردية المادية (فيورباخ) والفيلسوف الفردي المثالي (بوير — ستيرنر) دون ان يعصم نفسه احياناً من السقوط في ضرب من الفلسفة الفردية !...

وذلك الكتاب يجنح الى نظرية في الفرد الموضوعي المحسوس. فالانسان بصورة عامة ، وفكرة تخليه عن جوهره الانساني وانحطاطه ، ليسا الا تجريدات فكرية . فالفرد موجود عند نقطة انطلاق التطور التاريخي ، وعند غـايته . « تخيل الفلاسفة مثلًا أعـلى لهم ، باسم **الانسان الاسمى** ، الفرد الذي لم يبق خاضعاً لتقسيم العمل . » وذلك دون ان يبحثوا كيف يمكن ان يصرف الانسان النظر عن تقسيم العمل دون ان يخسر بذلك الجانب الايجابي التقدمي من الموضوع . لقد عبروا تعبيراً مجرداً حين صوروا التناقض بين رغبات الناس وبين شروط معيشتهم الواقعية الصحيحة .

ينطلق التطور الاجتماعي والتـاريخي من البهيمية الحيوانية البدائية نحو عصر الرخـــاء والسعة والوعي والحرية . والتقهقر مظهر من مظاهر هـذا التطور الذي يبدو بصورة خاصة (في كتاب « الايديولوجية ») تقهقراً يصيب الفرد . وقد حـــدث نوع من التراخي في العلاقـــات الاجتماعية بالنسبة الى الافراد . ورغم ذلك لا يوجد حقاً الا الافراد الذين ليسوا « مفردين[1] » يتواردون تكراراً الى ما لا نهاية له .

وهم ليسوا كذلك ضمائر واعية « منعزلة » ، ولا عدداً لا يحصى من « الأنا » الخارقة المواهب ، كما كان يعتقد ستيرنر . فالافراد كائنـات واقعية حقيقية . وهم موضوعون جميعهم في مستوى معين من عملية التطور التـــاريخية الانسانية ، وتربط بينهم صلات معقدة ، متحركة ، محسوسة . وهم لا يستطيعون العيش الا في الحياة الجماعية التي يعيشها الجنس البشري ، اي في متَّحَد بشري . وعليهم اليوم ان يخضِعوا لسيطرتهم القوى المنحطة المتقهقرة، اوالتي تؤلف عناصرانحطاطهم وتقهقرهم، القوى التي كانت من صميم جوهرهم وتخلـَّوا عنها فأضحت خارجاً عنهم؛ عليهم ان يستعيدوها ويدخلوهـا ثانية في مجتمع الافراد الذين تعاقدوا تعاقداً حراً واعياً. وهذا من المتطلبات المباشرة للحياة

---

(١) « المفرد » تعبير لستيرنر عن الفرد الممتلىء بفرديته والثائر لامتلائهـا كاملة وقد ادى هذا التفكير بصاحبه الى الفوضوية . راجع كتاب « هـذه هي الفوضوية » آرفون و كتاب « المفرد والملكية » ستيرنر . (المعرب)

الفردية . فالفرد المعاصر يريد ويجب ان يريد تخطي الانفصال بين حياته «الخاصة» التي تنحصر في الفردية وحسب ، وبين حياته الاجتماعية والعامة التابعة والخاضعة للاختصاص، وللجماعة او الفئة (الطبقة) التي يؤلف جزءاً منها ؛ والخاضعة ايضاً لنضاله ضد افراد آخرين (المزاحمة). وهو ينقسم بالنسبة الى ذاته، الى فرد او وعي فردي (داخلي، ينحصر في الفردية ويقتصر عليها فقط) والى فرد عَرَضي، ظاهري، حادثي accidentel (محدد بالظروف الخارجية) . ولكن هذه الحياة العَرَضية هي، على نحو من الدقة والتحديد ، حياة الفرد الاجتماعية؛ فهي -اذن- تؤلف جزءاً من جوهره ؛ و«الحياة الشخصية» أليست هي نفسها عرضية ، خاضعة للمصادفات والظروف، محددة بها؟ لقد تطورت المصالح الشخصية والخاصة، حتى اليوم، في المجتمعات المقسمة الى طبقات، اقول لقد تطورت حتى الآن خارج الافراد والاشخاص «وتطورت بوصفها مصالح طبقة ، واكتسبت استقلالاً حيال الاشخاص الفرديين، وبهذا الاستقلال اتخذت شكل مصالح عامة، ثم دخلت في منازعة مع الافراد الحقيقيين الواقعيين.» ان مجموع المصالح الفردية يبدو للأفراد وكأنه اسمى من فرديتهم ، وفي هذا الاطار ، تتقهقر النشاطات الشخصية والفعاليات هي نفسها ، وتنحرف عن جوهرها ، وتنحط ، وتتشيأ ، وتصير الى انواع من السلوك الاوتوماتية الآلية ، الخارجة عن الاشخاص (وهي التقاليد والعادات) حتى ليظن الانسان ان ثمة حتى في الافراد قوى خارجية عنهم «تحدد الافراد ، وتهيمن عليهم، وتسيطر، وتبدو

لهم مقدسة . » وهذه التقاليد والعـادات ، وهذه الضروب من السلوك التي يعتبرها الفرد كأعمق ما في ذاته واكثره انبثاقاً عن شخصيته الانسانية وتضمناً لهذه الشخصية (هذه التقاليد التي ليست رغم ذلك ، الا تقاليد عرضية طارئة بالنسبة الى الفردية الحقيقية – انما تأتي من الطبقة .)

فماذا يفعل المفكر ذو النزعة الفردية ؟ انه ، بحجة نقد ما هو « مقدس » ، يأخذه دفعة واحدة ، ويرفضه دفعة واحدة ، دون اخضاعه للتحليل. وهذا ما يؤدي، الى ان يجعل من «الفرد» المفرَغ من كل محتواه، « شيئاً مقدساً » جديداً، ويكرسه باسم «الأنا». انه لم يفهم ان «المصلحة العامة» و «المصلحة الخاصة» (يعني الشكل الوهمي والمنحرف عن جوهره، للتطور التاريخي، وشكل انحراف الفرد هو نفسه عن جوهره الخاص، الفردي) ان هما الا وجهان غير منفصمين لحركة واحدة ومظهران آنيان مؤقتان لانحراف الانسان عن جوهره ، وتخليه عنه ، وانحطاطه ، وتقهقره .

ان الفرد المنعزل (المفرد الذي نادى به ستيرنر) ليس الا تجريداً، فهو مفهوم الانسان الشامل ، الانسان العام L'homme ، على حد سواء. وحين يحاول ستيرنر فهم التاريخ ، يتصور ان كل مفكر هو مثقف محدود وهو الذي يسيطر على الآخرين. التاريخ في نظر ستيرنر انما هو من صنع المثقفين المحدودين . وستيرنر ، واضع نظرية الفردية المطلقة ، نظرية «المفرد L'Unique » يؤدي به الامر اخيراً الى ان يضع روبسبير وسان جوست – هذان –

في مستوى واحد مع اينوسّان الثالث او غريغوار السابع ...

هكذا تختفي كل فردية واقعية امام الفرد الستيرنري الفارغ المجرد ، وامام المفرد !. (راجع الايديولوجية الالمانية ج ٧ ص ١٥٣ - ١٥٤)

ان « الفرد » كما فهمه ستيرنر لا يختلف كثيراً عن الانسان كما فهمه فيورباخ، هذا الروبنسون المهجور ، المعزول في الطبيعة البكر ، في جزيرة من جزر المحيط الهادي ، خالية ، عذراء .

ان الفرد المتطور النامي، المنتزَع من الانحطاط والانحراف عن الجوهر الانساني ، والواعي علاقاته مع الافراد الآخرين ، والذي هو سيد هذه العلاقات، هذا الفرد ليس تجريداً موهوماً، وانما هو اكتمال عملية التطورالتاريخي، ومعنى الشيوعية وغايتها.

اذن فماركس وانجلز عزما على خوض المعركة ضد فيورباخ، فشرعا في هذا الكتاب بانشاء دراسة ترتكز على علم الاجتماع وعلم النفس ، درسا بوساطتها النزعة الفردية وحقيقة التخلي عن الجوهر ، والانحراف الذي يصيب الجوهر الانساني الفردي[1].

---

(١) نترك الآن هذا الجانب من جوانب الماركسية ، وقد اشرنا اليه في مؤلف آخر (راجع كتاب « المادية الديالكتيكية » هنري لوفافر ص ٥٨ — ٦٠ . وتجب الاشارة ايضاً في « الايديولوجية الالمانية » الى المقاطع الرائعة عن «الرجل البورجوازي والحب» ص ١٥٧ — ١٥٩ وعن كانت ص ١٨٢— ١٨٦) وعن القومية البورجوازية المحدودة التي جاءت بها الفلسفة الالمانية، هذه القومية التي تنهب الفكر الفرنسي بعد ان عجزت عن نهب المقاطعات الفرنسية !...

وواضح هنا ان ماركس وانجلز رميا ، في هذا المؤلف ، الى تأسيس العمل ، الى حد مـــا ، على التمزق ، والقلق ، والمتطلبات الداخلية العنيفة ، وآمال الافراد في تخطي الانحطاط ، والتخلص من الانحراف الذي اصـاب جوهرهم الانساني ؛ ثم شددا التوكيد فيما بعد ، على المطـــالب الطبقية ، وحركات الجماهير ، على ان تحليلهما للفردية يدخل في مجرى فكرهما ، ولا يناقضه .

وغشي النزعـة الانسانية ، في هذا المؤلف بعض الغموض ، فاختفت كل الاختفاء ، تقريباً ، فكرة «الانسان التام» ، الكلي ، L'homme Total (وهو معنى التاريخ ، واتجاه التاريخ ، ومعنى الشيوعية التي استلهمها ماركس وانجلز حين شرعا في صياغة نظريتهما ابتداء من « مخطوطة عام ١٨٤٤ » ونقول بتعابير اكثر دقة انه يخيل الينا ان هذه الفكرة اختفت لمصلحة النزعة الفردية. وسوف يفهم ماركس وانجلز فيما بعد ، فهماً افضل واكمل ، مـــاهية « الانسان الكلي التام » وحقيقته ، وواقع الفرد الحر ، الذي يعي علاقاته الاجتماعية ، ويعيش في مجتمع حر ملء الحرية .

هكذا نرى ، على كل حال ، كم هو واهن اساس المـأخذ الذي كثيراً ما يوجّه الى « الماركسية » والمتلخص في انها تولت وصرفت نظرها عن مشاكل الفرد والوجدان .

ويجدر بنا ان نعيد الاشارة هنا الى ان الماركسية يجب ان

تُفْهَمَ في جملتها ، في مجموعها، وفي حركتها، لا وفقاً لهذا النص المنعزل ، او ذاك . ولا تختلف الماركسية في هذا ، عن جميع المذاهب الماضية ، او الحاضرة ، او المقبلة...

١١ - العودة الى النضال - معارك قلمية ضد المشاعيين الطوباويين الخياليين (١) ، وضد الفكرة الاصلاحية (٢)

منذ عام ١٨٤٦ اتضحت آراء ماركس وانجلز ، واتخذت صيغها التعبيرية . وبعد تلك الفترة من التأمل والتفكير ، عاد المفكر نحو العمل والنضال - العمل الذي صيرته النظرية الواعية صافياً واعياً .

ونتج عن المادية التاريخية علاقة جديدة بين المذهب الاشتراكي (الشيوعي) وبين الحركة العمالية ؛ ولم تعد هذه الحركة تبدو عرضية طارئة ، صادرة عن «آراء» «وافكار» كان يمكن نشوؤها في اي زمان . فلقد تحددت الحركة العمالية **تاريخياً** بوصفها حركة الطبقة المضطهَدة ، وسعيها نحو تحررها ، ونحو الاشتراكية ، وبوصفها شكلاً (على درجة معينة من الوعي) من اشكال النضال الطبقي عند البروليتاريا ، ضد البورجوازية ، ومن ناحية ثانية ، غـدا من المستحيل ان تبدو الاشتراكية

(1) Les cemmunistes Utopiques
(2) Le Reformisme

والشيوعية بعد الآن و (قد حددتهما حركة التاريخ ، مراحل عليا لهذه الحركة) صروحاً وهمية للمجتمع ، يعود الى بنائها الخيال ، باسم مثل أعلى اخلاقي او جمالي .

عندئذ تتخذ مصالح الطبقة العاملة ، وآمالها السياسية النابعة من صميم حاجاتها ، اتجاهاً دقيقاً محدداً في التاريخ . **والنظرية** (حتى المادية التاريخية نفسها) تبدو بوادر درجة عليا من النضج السياسي عند الطبقة العاملة ، وشارة القدرة على التحقق **العملي التطبيقي** .

وهكذا ترتب – اذن – على ماركس وانجلز اقامة علاقات مع المنظمات العمالية ، لاقناعها بمبادىء علم الاجتماع ، وحقائق التاريخ العلمي ، التي يمكنها وحدها توضيح الحركة العمالية ، وغايتها . « وما ان تبينّا في قرارة نفسينا العزيمة والوفاق، حتى باشرنا العمل. » (انجلز). ومخطوطة الايديولوجية الالمانية التي لم تنشر ، تركها مؤلفاها « لنقد الفئران القارضة » وانصرفا الى الاتصال بالعمال . ونهض على الفور بينهما وبين الطبقة العاملة حاجز : وهو المشاعية البدائية او « الشيوعية الفجة » وزعماؤها ولا سيا « ويتلنج » .

وويتلنج ولد غير شرعي لضابط فرنسي وغسالة المانية !... وكان خياطاً وفيلسوفاً وشاعراً ، وفي ذلك العهد كان اعظم شهرة من ماركس ، وكان محبوباً جداً في اوساط العمال . وبعد محاولة ثورية فاشلة ، في ١٢ نوار ١٨٣٩ ، لجأ

ويتلنج الى سويسرة . وفيهـــا سجن بتهمة نشر « الشيوعية » ثم سلم الى بروسية بتهمة الفرار من الجندية ثم خرج من السجن، وسافر الى لندن حيث استقبل كما يستقبل الابطـال . واصدر كتاباً سماه « الانسانية كما هي ، وكما يجب ان تكون . » وفي العنوان ما يكفي للدلالة على مثالية ويتلنج الطوباوية الميالة الى الوعظ الاخلاقي . وبعد ذلك اسس في باريس « رابطة العادلين» وبث في جميع انحاء اوروبة نوادي وحلقات تسيطر على اجتماعاتها العواطف والاحاسيس ، وروح المؤامرة الرومانطيقية . وكان يسمي مذهبه « الشيوعية الداعية الى المساواة » واسكره ما كان يجده من نجاح و«نفوذ» ، فدخل في روعه انه مسيح الطبقة العاملة ومخلّصها المنتظر. وكان يريد تهديم المجتمع تهديماً فورياً كاملاً ، ليقيم محله — على الفور — دعـــائم المساواة المطلقة ، والعدالة الكاملة !...

ومن ناحية العمل التطبيقي ، عمد ويتلنج ، منذ عام ١٨٤٣ الى تشكيل ما يشبه الجيش ، وقد جمع عناصره من الخـارجين على القانون ، ومن المنبوذين والمتشردين الحـاقدين « والذين يريدون الانتقام من المجتمع » وكان ويتلنج يفاخر بانه يستطيع ان يقلب اوروبة رأساً على عقب ، بأربعين الف رجل، « لاقامة دعائم الشيوعية العادلة » !...

ونشبت معركة ضارية بين ويتلنج وماركس (بين الشيوعية البدائية ، والشيوعية العلمية) وكان مسرح هذه المعركة ، اولاً،

« جمعية العمال الالمان » في لندن ، وبدأت المناقشة بالرسائل (راجع رسالة ماركس الى برودون الخامس من نوار ١٨٤٦) وكان ماركس قد انشأ « لجاناً للمراسلة » في بروكسل وباريس وفي المانية ، وكانت كلها على اتصال بالجمعية في لندن ، وكان ماركس يعتمد هذه اللجان لنشر مبادىء المادية التاريخية ، وتسقُّط الانباء عن الاحداث الاجتماعية والوقائع، والتعرف الى وضع الطبقة العاملة واحوالها في مختلف البلدان . وجرى في الثلاثين من آذار ١٨٤٦ اجتماع مهم في مكتب اللجنة ببروكسل. وتكلم في هذا الاجتماع ماركس وويتلنج . واراد انجلز « ذو القامة الممشوقة ، الانيقة» ان يخوض المناقشة بشيء من التهذيب الرفيع ، والرصانة الانجليزية (كما يروي فيما بعد آنانكوف في صحيفة السائح الاوروبي ١٨٨٠ وفي صحيفة نيوزايت، نوار ١٨٨٣) ولكن ماركس بصوته « الحاد كأنه المعدن الصلب » قاطع انجلز ووجه السؤال الى ويتلنج بشيء من القسوة ، طالباً اليه ان يعرض على الفور الاسس العلمية التي ينطلق عنها في حركته الثورية ، فرد ويتلنج (الذي كان يبدو ازاء ماركس رقيقاً لطيفاً - كما يروي آنانكوف) وجاء في **رد ويتلنج انه لا يجدي خلق نظريات جديدة وان على العمال الاعتماد على انفسهم وحسب ، وأن يحذروا المفكرين النظريين والمثقفين .**

ويتابع آنانكوف روايته فيقول : وفي هذه اللحظة قاطعه ماركس وصرّح قائلاً : « ان خداع الشعب واهاجته دون

تركيز نضاله على قواعد متينة ، والتوجه الى العمال دون ان يكون لديك افكار علمية ، ان هذا معناه تحويل الدعاوة الى لهو احمق ، لا غاية له ولا سبب ، ومعناه العبث بمصائر العمال دون وازع ولا حرج ؛ وهذا يتطلب ، من ناحية ، زعيماً سخيفاً يلتهب حماسة فارغة ، ويتطلب من ناحية ثانية ، حميراً سخيفة تصغي اليه فاغرة الافواه... يجب سحق « النظرية » المشاعية الحرفية ، الطوباوية ، الخيالية الفلسفية ، يجب تطهير المجتمع العمالي !... » .

وقال ماركس ايضاً ان الشيوعية لا يمكن اقامتها فوراً ، في اي مكان شئنا واي زمان ، بقوة التدمير ، وبارادة تحكمية او بقوة المثل الاعلى الخيالي .

وقال ماركس ان الاشتراكية والشيوعية تتطلبان شروطاً تاريخية معينة ، وان في المانيا بخاصة ، يجب ان تستولي البورجوازية الاحرارية (الليبرالية) على الحكم ، وان الثورة الاوروبية الوشيكة الحدوث سوف تهدف الى تكنيس بقايا الاقطاعية وتمهيد الطرق للديموقراطية ، ونموها ، **وانه من المستحيل القفز فوق مرحلة تاريخية وعدم المرور بها .**

حاول ويتلنج الرد بان التحليلات المجردة لا تؤدي الى شيء... وعندئذ قفز ماركس وهز الطاولة هزة شديدة حتى ارتج كل شيء في الغرفة وصرخ :

« والجهل... لم يسبق له ان خدم احداً قط !.. »

وانتهت الجلسة ؛ وغلب ويتلنج على امره امام العمال سكان بروكسل ، ولم يغفر ويتلنج لماركس ما صنعه به أبداً ، بل قضى بقية ايامه يهاجم ماركس ويصوره بصورة الرجل المتكبر الصلف والمثقف ذي التفكير المجرد...

فهل تجدر بنا الاشارة الى ان هذه المعركة لم تفقد شيئاً من اهميتها الراهنة اليوم ؟ فالنزعة العمالية الانعزالية Ouvriérisme وانعزالية اليسار gauchisme (كما يقال بلغة السياسة وتعابيرها) وكره الثقافة الذهنية المعمقة ، وازدراء المعرفة النظرية ، ما تزال ترافق حتى اليوم رواسب «الشيوعية البدائية» او «المشاعية» التي تريد اقامة دعائمها ، على الفور ، والتي تحلم « بالمساء العظيم ».

ان هؤلاء الابطال المزيفين الداعين الى « النضال » يكرهون التفكير ، والدراسة ، وقراءة الكتب « المجردة » . وهم ، في الواقع ، قوم عاجزون ، يحاولون ستر عجزهم باتهام العلم .

ولكن تجدر الاشارة ، توخياً للعدل والصدق ، الى ان انعزالية العمال هذه بدأت منذ سنوات تتقلص وتضمحل ، بعد ان عمرت في فرنسة طويلاً ، ولا سيما في الارياف.

لقد قدر لماركس ان يجد نفسه ، في مناسبات كثيرة ، ازاء رجال « متطرفين » . وقد احتج الشيوعيون اللندنيون على ماركس ، وعلى «غرور العلماء...» فلم يتراجع ماركس ، بل

اخضع الخليط المشوّش (الذي كان يؤلف مذهب «الرابطة») لنقدٍ قاسٍ لا هوادة فيه . واوضح في رسائله «أن» القضية لا تنحصر البتة ، في تحقيق نظام فكري طوباوي خيالي ، وانما الامر يتعلق بمساهمة واعية في عمليـــة التطور التاريخي والثورة الاجتماعية التي تجري تحت أعيننا . » (راجع نشرة «هرفوغت» الصادرة عام ١٨٦٠ ص ٣٦) .

وادركت انتقادات ماركس غايتها، وحققت ما ترمي اليه، فاضمحلت « الرابطة » في باريس ، بعد ان لبثت ردحـــاً من الزمن جمعية سرية للتآمر ونشر الفوضى . وتحول مركز الفكر الشيوعي الى لندن حيث كان القادة (امثال شابر ، ومول) يحسون بأن ايامهم « تتمخض عن عهد ثوري قد يكون من شأنه تحديد مستقبل العالم لمئات السنين . »

وادركوا ، مع ماركس ، ان الزمن قد حـــان لاتخاذ موقف ، وتنظيم الحركة الشيوعية ، واعطائها مناهج ، وتحديد خطتها وتثبيتها . وخلال صيف ١٨٤٦ قدمت « لجنة المراسلة » في لندن وكانت على اتصال مباشر بماركس ، اقتراحـــاً بهذا المعنى. وفي تشرين الثاني ١٨٤٦ نشرت اللجنة الادارية « لرابطة العادلين » تعميماً يطلب الى جميع منظماتها ارسال مندوبين عنها الى لندن في اول نوار ١٨٤٧ .

وجاء مول ، احد قادة « رابطة لندن » في شباط ١٨٤٧ الى باريس ، حيث كان يقطن انجلز ، ثم ارتحـل بعد قليل الى

بروكسل ، حيث يعيش كارل ماركس . ودعا مول كارل ماركس للانضمام الى الرابطة ، ليبث فيها حيوية جديدة. وكان مول مكلفاً بالاتصال بكارل ماركس، والاعتراف بأن مول وانصاره يدركون حق الادراك ان عليهم التخلص من النزعة الطوباوية الخيالية ، ومن النشاط المتآمر ، والتخلص من الجمعيات السرية ، لكي يخوضوا معركة الحياة السياسية ، بمناهج نظرية علمية .

احس ماركس (وكان قد لبث بمعزل عن نشاط الجمعيات السرية ولم يرض الانضمام الى «رابطة العادلين» منذ تأسيسها) احس بأن اللحظة المناسبة قد ازفت ، وفي آذار ١٨٤٧ ، اعلن انضمامه الى «الرابطة» .

وانعقد المؤتمر في اول حزيران ١٨٤٧ ، وحضره انجلز ممثلاً لمنظمة باريس ، وكان ماركس يفتقر الى المال اللازم للسفر ، او لعله كان يريد المراقبة والتربص ، فلم يحضر الى لندن . وعدّلت الرابطة نظامها تعديلاً كاملاً : واتخذت اسم «اتحاد الشيوعيين» وطالب انجلز باسمه وباسم ماركس ، اعتماد نظام داخلي يرتكز على الديموقراطية الكاملة : فالاعضاء المسؤولون يجب ان ينتخبوا انتخاباً، ويمكن تجريدهم من تبعاتهم ووظائفهم باجراء انتخاب جديد . وكان ماركس وانجلز يريان ان هذا التدبير من شأنه وضع حد للمناورات والمؤامرات . والمادة الاولى من دستور الجمعية الجديد كانت تؤكد «على ان غاية الرابطة انما هي قلب البورجوازية ، والغاء المجتمع القديم المؤسس

على المنازعات بين الطبقات ، واقامة مجتمع جديد لا طبقات فيه... » وكان على انظمة الدستور الجديد هـذا ، ان تنال موافقة « المنظمات » المحلية فتصبح - هذه الانظمة - نهائية اثر انعقاد مؤتمر جديد؛ وبقيت الدائرة او المنظمة من عشرين عضواً قاعدة التنظيم العام.

وكان شعار الرابطة القديم « النـاس كلهم اخوة » فصرح ماركس بأن كثيرا من النـاس لا يحرص على مؤاخاتهم . فاقترح شعاراً جديداً : « ايهـا الكادحون في جميع البلدان ، اتحدوا !» ونشر هذا الشعار في صدر العدد الاوحد من الصحيفة التي عزم المؤتمر على اصدارها ، وقد صدر في ايلول ١٨٤٧ .

وبينما كان كارل ماركس يتأهب لخوض الصراع السياسي خوضاً مجيداً ، لم يهجر العمل النظري : تعميق المادية التاريخية.

ولنا على ذلك دليل في مراسلاته . فرسالته الى آنانكوف عام ١٨٤٦ تتضمن عرضاً بارعاً للنظرية :

ما هو المجتمع ؟

انه نتاج نشاطات الناس المتبادلة . فهل الانسان حرٌ في اختيار هذا الشكل الاجتماعي ام ذاك ؟ كلا . اطلاقـاً . هذه - مثلًا - نقطة معينة من نقاط تحول القوى الانسانية المنتجة . انها تطابق شكلًا (او تتناسب مع شكل) من اشكال التجارة والاستهلاك . ولنفترض نقطة معينة ، من نقـاط نمو

الانتاج وتطوره ، فإننا نحصل على شكل مقابل مطـابق ، هو التركيب الاجتماعي او البناء الاجتماعي Structure sociale ، للمجتمع : فثمة تنظيم معين للأسرة ، والمهن ، والطبقـــات ، وبكلمة واحدة : ثمة مجتمع مدني معين . فإذا نظرنا الى هذا المجتمع المدني ، رأينا حياله ما يتناسب معه من الوضع السياسي المطابق ، وهو ليس الا التعبير الرسمي عن هذا المجتمع المدني .

« ومن المهم الاضافة الى ذلك ان النـاس لا يعينون بمحض اختيارهم القوى المنتجة – وهـذه القوى هي اساس تاريخهم – لان كل قوّة منتجة انما هي قوة مكتسبة ناتجة هي نفسها عن نشاط سابق . وهكذا يتضح تماماً ان القوى المنتجة هي حقـاً نتيجة الطاقة العملية التطبيقية للكائنـات البشرية . ولكن هذه الطاقة التطبيقية العملية تحددها هي نفسها شروط وظروف .

وبسبب هذا الواقع وحده (وهو ان كل جيل يجد نفسه حيـال القوى التي اكتسبها الجيل السابق) ينشأ استمرار في تاريخ الانسانية ، وينشأ للانسانية تاريخ .

والانمـاط الاقتصـادية التي ينتج النـاس في نطاقهـــا ، ويستهلكون ، ويتبادلون ، انمـا هي انمـاط واشكال انتقالية متحولة ، تاريخية « وبفضل القوى المنتجة التي اكتُسبت سابقاً ، يطور الناس نمطهم في الانتاج، وبتطويره يحولون جميع العلاقات الاقتصادية التي كانت مطابقة لذلك النمط المعين من الانتاج . »

ورسالة ماركس هذه الى آنانكوف (وكثيراً مـــا يرد

ذكرها ، ولكن خارج اطارها التاريخي) تدلنا بوضوح ودقة على النقطة التي بلغها ماركس عام ١٨٤٦ . وهو يشدد فيها على توكيد العلاقة بين الاجيال «المتعاقبة» ويشدد على واقع يتلخص بأن كل جيل يجد نفسه حيال النتيجة التي جاء بها نشاط الاجيال السالفة . وفي كتاب (الايديولوجية الالمانية) رسم ماركس صورة موجزة لتفسير الوهم الايديولوجي المنطلق عن هذا الواقع عينه ؛ ان كل « جيل » يستخدم الكلمات ، والافكار ، والمؤسسات التي خلفتها الاجيال السالفة التاريخية ، وهو يبدأ باستخدامها قبل تطويرها . وهذا يجري على نحو يتأخر معه الوعي...

فهل كان الفكر الماركسي يتحسس طريقه ، بابدائه هذه الافكار ؟. ام ان هذه النظرية تصدر عن جهد كان يبذله ماركس لصياغة فكره صياغة واضحة مفهومة .

بيد أن ماركس سوف يكتشف ، فيما بعد ، للأوهام ولموضوعية التطور التاريخي ، وتأخر الوعي ، ركائز اعمق ، واسساً اثبت .

وسوف يفرد ، فيما بعد مؤلفاً خاصاً للتدقيق في العلاقات بين الانتاج والتوزيع[1] . « والاشتراكيون » الاصلاحيون Réformistes الذين يظنون ان باستطاعتهم حل « القضية

١) راجع طبعة جيار لمؤلف « نقد الاقتصاد السياسي » – نهاية الكتاب .

الاجتماعية» بتغيير نمط توزيع المنتجات (بسن تشريع ، او انشاء تعاونيات للاستهلاك الخ...) انمـــا هم يخطئون ، بدافع من الجهل . صحيح ان فكر ماركس عام ١٨٤٦ كان يبدو انه يتقبل هذا التفسير: اذا تناسبت العلاقات الاجتماعية ونمطالتوزيع، وتطابقت فيما بينها، تجري عندئذ الملاءمة بين العلاقات الاجتماعية والقوى المنتجة، بتغيير التوزيع. ولكن ماركس عمد، فيما بعد، الى تعميق فكره ، والتدقيق فيه ، ولا سيما خلال معركته الجدلية العنيفة التي خاضها ضد « الاشتراكيين » الاصلاحيين ، غير الثوريين ، ابتداء من برودون .

وهذه الرسالة المهمة الى اانكوف ، وقد ورد ذكرهـــا آنفاً ، تشير الى الموضوعات الاساسية في تلك المعركة القلمية :

« فَهِمَ برودون حق الفهم ان النـــاس يصنعون الانسجة، والخام ، والاقمشة ، والحرير . ولكن ما لم يفهمه برودون هو ان الناس ينتجون ايضاً علاقاتهم الاجتماعية . ولم يفهم ايضـــاً كيف ان النــاس الذين ينتجون العلاقــات الاجتماعية المطابقة لانتاجهم المادي- ينتجون ايضاً الافكار، والآراء ، والاصناف، يعني التعابير المجردة المثالية ، عن هذه العلاقات الاجتماعية نفسها.

«ويترتب على ذلك ان هذه الاصناف او الابواب Les caté- gories ليست خالدة ابدية وانما هي متحولة شأنها في ذلك شأن العلاقات التي هي التعبير عنها. اما السيد برودون فيرى العكس، ويعتقد بأن التجريدات والاصناف الفكرية هي المسببـــات

الاساسية . وفي رأيه ان هذه التجريدات والاصناف الفكرية هي – لا الناس – التي تصنع التاريخ .

« وبما ان الاصناف – في نظر برودون – هي القوى التي يتوقف عليها كل شيء، فليس ثمة من حاجة لتحويل الحياة العملية وتطويرها ، بل على العكس تماماً: يجب تغيير الاصناف الفكرية المجردة وهذا يترتب عليه تغير الحياة الواقعية.. »

لا شك في ان برودون كان ، بكتاباته ، واتصاله المباشر بماركس ، في باريس، أحد «منابع» الفكر الماركسي . ومقابل هذا «افسده» ماركس بالفلسفة الهيجلية . وعندئذ اراد برودون استخدام **الديالكتيك** فعرض مذهبه الاجتماعي في كتابه «مذهب التناقضات الاقتصادية ، او فلسفة الشقاء » .

لم يتحول ماركس قط عن تقدير برودون ، فكان ينسب اليه دوراً فعالاً مهماً في تاريخ الاشتراكية . وعاد ماركس لتفحص الفلسفة البرودونية ، ثانية ، بمقال نشره في صحيفة « سوسيال ديموقراط » عام ١٨٦٥ فكتب ان كتابه الاول « ماهي الملكية ؟ » افضل بكثير من سائر مؤلفاته . فالاشتراكيون الفرنسيون ممن كان مطلعاً على مؤلفاتهم ، لم ينتقدوا الملكية وحسب ، وانما عمدوا الى الغائها ، طوباوياً وخيالياً . فبرودون ، في كتابه هذا ، يكاد يكون بالنسبة الى فورييه ، ما كان فيورباخ بالنسبة الى هيجل. فاذا قارنّا فيورباخ بهيجل وجدنا الاول هزيلاً جداً. ورغم ذلك سيطر بعد هيجل،

وذلك لان فيورباخ شدد في التوكيد على النقاط التي تستثير نقمة الوجدان المسيحي . «هذه النقاط المهمة جداً في تقدم النقد الفلسفي ، التي خلفها هيجل في ظلال سحرية صوفية . » ويقول ماركس ان برودون يقف ، منذ هذه اللحظة ، لكي يحكم على المجتمع ، فينظر من وجهة نظر بورجوازي صغير .

وعلى الرغم من الجرأة الظاهرة في صيغته الديالكتيكية «الملكية هي السرقة» فإنه لا يقدم لنا اي تحليل تاريخي للملكية. وهو يخلط بين الملكية في عهد الرومان ، والملكية الاقطاعية، والملكية الرأسمالية ، في صيغة مجردة . وهو ينسى ان السرقة ، بوصفها اغتصاباً للملكية ، تفترض وجوداً مسبقاً للملكية . (ماركس – المقال المشار اليه) .

وحين اراد برودون في مؤلفه « فلسفة الشقاء » تحديد مذهبه تحديداً دقيقاً، وتطبيق الديالكتيك الهيجلي على المسائل الاقتصادية والاجتماعية ، ماذا فعل ؟

راح برودون ، في كل علاقة اقتصادية واجتماعية يتميز -ديالكتيكياً- جانبين : جانباً صالحاً، وآخر سيئاً . وهكذا يواجه ، كما يقول ماركس متهكماً[1] جميع حوادث التاريخ ، كما ينظر البورجوازي الصغير الى الرجال العظماء : فنابليون فعل خيراً ، ولكنه ايضاً فعل شراً كثيراً... هكذا يظن برودون انه يطبق المنهج الهيجلي وهو ينسى الأهم في الطريقة الهيجلية :

١) شقاء الفلسفة ـ ماركس ـ الفصل ٢ ـ الملاحظة الرابعة .

حركة التاريخ التي تتم (في نظر هيجل) **بوساطة الصراع** بين جانبي التناقض ، بولادة شيء جديد يخرج من هذا الصراع . وهكذا ليس ثمة « جانب صالح » نحتفظ به « وجانب سيء » ندعه ، نطرحه جانباً ، وانما ثمة صراع مستمر...

ينسى برودون ان البروليتاريا «الجانب السيء» من المجتمع البورجوازي هي ايضاً جانبه الصالح الحسن . بما ان البروليتاريا تتضمن في ذاتها الامكان العملي الطبقي لازالة هذا المجتمع البورجوازي . ان برودون لم يفهم الدور التاريخي الذي تقوم به الطبقة العاملة، انه لم يفهم العمل النضالي L'Action. انه يبحث عن صيغ ادبية ، مثيرة ، طنانة ، فارغة . وحين يقول : « من هذا الجانب... ومن الجانب الآخر... » يظن نفسه عالماً بالديالكتيك ، وإنْ هو في الواقع الا مناقضاً نفسه بنفسه . انها « نقيضة حية » – كما يقول فيه ماركس – تترجح بين رأس المال والعمل ، بين الاقتصاد السياسي (البورجوازي) وبين الشيوعية . وهو يلهو كالبلهوان بتناقضاته الشخصية ، ويصوغها صياغة المفارقات الرائعة وفق حاجات غروره . وهو يستثير جهاز الديالكتيك كله ، ولبلوغ اي غاية ؟ -- للوصول الى النزعة الاصلاحية المسكينة ، وللوصول الى فكرة تنادي بامكان الغاء « الجانب السيء » من المجتمع البورجوازي (والجانب السيء هو البروليتاريا -- الطبقة العاملة الكادحة الاجيرة) وذلك بانشاء مؤسسة للقرض المجاني للعمال ، وبمصرف للشعب الخ !.

صحيح ان برودون لم يكن (في مؤلفه بؤس الفلسفة) قد اندفع بعد في الواقعية التطبيقية المزعومة المتمثلة في القرض المجاني ومصرف الشعب ، وكان ما يزال طوباوياً خيالياً، ولكنه كان يعرض افكاره الطوباوية الخيالية في ثوب فلسفي علمي .

يقرر برودون ان **قيمة** Valeur السلع ناشئة فقط عن **كمية العمل** اللازم لانتاج هذه السلع ، وبرودون يقدم الينا ، بكل سذاجة ، نظريته بانها نظرية ثورية ، وانها نظرية المستقبل ؛ وما هي في الواقع الا نتائج تشريح المجتمع البورجوازي التي عرضها ريكاردو عرضاً « علمياً » منذ سنة ١٨١٧ مكملاً اعمال آدم سميث .

كتب ريكاردو ، في الصفحات الاولى من مؤلفه « **مبادىء الاقتصاد السياسي** » (الترجمة الفرنسية باريس سنة ١٨٣٥) :

« ليست المنفعة هي التي تضع مقياس قيمة التبادل (لسلعة من السلع) رغم ان السلعة لا تخلو من المنفعة اطلاقاً ، ولا تستغني عن كونها نافعة .

« ان الاشياء التي تعتبر نافعة تستمد قيمتها التبادلية من مصدرين : ندرة وجودها ، وكمية العمل اللازم للحصول عليها » « ثمة اشياء ليست قيمتها متعلقة الا بندرتها . وهذا شأن التماثيل،

---

(١) يعرف الناس جميعاً كيف تعاون **برودون** مع البونابارتية بعد عام ١٨٥٢ ، هذا التعاون الذي لم يهدف الى مصلحة الشعب .

واللوحات الفنية الخ ... وهذه القيمة تتوقف فقط على اولئك الذين يرغبون في الحصول على هذه الاشياء ، وتتوقف على ممكناتهم المادية ، واذواقهم ، واهوائهم . »

« ان اكبر عدد من الاشياء التي نرغب في امتلاكها انما هي من ثمرات الصناعة ، وحين نتحدث عن السلع ، فإننا لا نقصد الا السلع التي يمكن ان تزداد كميتها بوساطة الصناعة التي يقوم بها الانسان ، والتي تشجع المزاحمة على انتاجها . »

« وهذه نقطة على اعظم درجة من الاهمية في الاقتصاد السياسي؛ لانه ليس ثمة معنى كان السبب في اخطاء كثيرة كالمعنى المبهم المفتقر الى الدقة ، الذي يدور حول كلمة « قيمة » Valeur » .

بيّن ريكاردو ، تبعاً لهذا المبدأ، انّ ثمة عملا مجمّعاً في رأس المال . وقد بين ان الاجر ، والكسب (الرأسمالي) خاضعان لحركات ارتفاع وهبوط ، وذلك دفعاً لاطراد احدهما ضد الآخر ، اطراداً عكسياً ، دون التأثير على قيمة المنتوج .

وبدلاً من ان يعمق برودون هذا التحليل، ويفحص الشروط التاريخية والاجتماعية التي يتخذ منتوج العمل الانساني ، في نطاقها ، شكل بضاعة ، وينقطع عن كونه « قيمة استعمالية » Valeur d'usage ليكتسب « قيمة تبادلية » Valeur d'échange ؛ وكان برودون يتخيل انه اكتشف حقيقة خالدة

وصنفـاً اقتصاديا مطلقـــاً ! une catégorie économique absolue . وبرودون يعمد الى التأليف synthèse بين القيمة النافعة ، والتبادل ، في ما يسميه « القيمة المؤلفة » او المركبة Valeur constituée . وبعد هذا يستسلم برودون لتـــأثير الاقتصاديين السطحيين العاديين الذين لم يكونوا علماء وانما كانوا دعاة يعملون في خدمة النظام الاجتماعي القـــائم ، وهؤلاء الاقتصاديون كانوا دائماً يطمحون الى التدليل على ان المجتمع الراهن (الرأسمالي ، البورجوازي) محكوم بقوانين اقتصادية خالدة، صالحة ، طيبة، لا يمكن ان تتغير . وبما ان هذا المجتمع محكوم بقوانين خالدة ، فيجب ان يكون ـ اذن ـ خـالداً : « وبوسعنا تفسير هذا المجتمع بالجوهر الثابت لكل مجتمع سابق، وهذا الجوهر انبثق من جميع المجتمعات خلال التاريخ وظهر في القرن التاسع عشر واضحاً جلياً !... » وهؤلاء الاقتصاديون يرون ان القانون الاساسي ـ الطبيعي، الثابت ، الخير ، العادل، معاً ـ ان قانون هذا المجتمع هو « تبادل المتعادلات » .

وفي سوق التبادل يتلقى كل انسان ـ كما يزعمون ـ وتحت شكل آخر ، المعادل الصحيح الكامل ، لما يعطي . والعـامل يتلقى ـ كما يزعمون ـ لقاء عمله ثمن هذا العمل ، اي مـا يعادله من المال وهو الاجر . وصاحب المشروع الرأسمالي يأخذ ، لقاء نشاطه ، وروح المبادرة التي يتحلى بها ، حصته وهي : الربح . ولقاء الخطر الذي يرضى المرابي بالتعرض له ، يتلقى : الفائدة .

فالاجور، والارباح ، والفائدة ، هي ، كما يزعمون ، **عائدات** كل من هؤلاء ، يعني ما **يستحق** كل منهم (وذلك يتم ، في زعمهم، على هذا النحو ، وفقاً للانصاف المطلق والعدالة، وتمشياً مع قوانين المعادلات البسيط .) من مجموع ثروات المجتمع .

ويقر «الاشتراكي» برودون نظرية المعادلات (او نظرية تعادل القيم Théorie des équivalences هذه النظرية البورجوازية ، دون ان ينقدها ، ودون ان يحاول فهمها . ولكنه يريد ان يكون «اشتراكياً» ولذا يفسر هذه النظرية على طريقته الخاصة . فكمية من العمل معينة ، **تعادل** ، تماماً ، المنتوج الذي اوجدته كمية العمل هذه ، وكل كمية عمل (نهار عمل ، مثلًا) تعادل كمية اخرى من العمل ، اذا قيستا بمدة زمنية واحدة متساوية .

اذن : فالانسان يتلقى ، لقاء كمية من العمل واحدة ، متساوية ، منتوج انسان عامل آخر . فالمساواة الكاملة ـ مساواة المعادلات او القيم المتعادلة ، هي التي تخضع لها او يجب ان تخضع لها المبادلات .

فلنستخلص الآن ـ هكذا يفكر برودون ـ من هذه المساواة الاقتصادية التي تحققت فعلًا (في النظام الرأسمالي) ـ فلنستخلص ما يترتب عليها من نتائج سياسية ، واخلاقية ، وهذه المساواة تتيح لنا تحديد «النسبة العادلة» الصحيحة التي يجب

ان يتلقاها العمال من مجموع المنتوجات . ويحق لهم ان يتلقوا معادل عملهم – في حين ان الرأسمالي يأكل دائماً من هذا المعادل المستحق ، « المشروع ... » اقتصادياً ... فليس الرأسمالي الا نوعاً من انواع المختلسين اللصوص .

في فصل مهم من فصول «شقاء الفلسفة» بين ماركس كيف ينزلق برودون من العلم الى الطوباوية الخيالية، وكيف ينحرف عن الواقع الى الوهم، وكيف ان هذه الطوباوية الخيالية تنطوي على الاقرار بما تزعم انها تتمرد عليه : يعني العالم الرأسمالي .

مثلاً : ان منتوج ساعتين من عمل العامل، «زيد» مثلاً، لا يعادل منتوج ساعتين أُخريين من عمل العامل « عمرو » ، او « فلان » . وهذا الخلط بين « قانون المعادلات » الذي نادى به الاقتصاد السطحي العادي ، وبين النظرية العلمية في القيمة ، يؤدي الى اوهام لا اساس لها ولا غاية . ان قيمة منتوج ما ، يمكن ان تقاس بساعتي عمل ، ليس هو عمل «زيد» ولا « عمرو » ولا «فلان» (وهم افراد ذوو طاقات وقوى وكفاءات مختلفة) وانما هو **عمل اجتماعي وسطي** . وهذا العمل الاجتماعي الوسطي يطابق انتاجية الكل الاجتماعي الذي ندرسه ، ويطابق المستوى المعين الذي بلغته القوى المنتجة .

ولنضرب مثلاً محدداً بدقة ووضوح. وان كان مثلاً بسيطاً. ونحن نستعيره – اذن – من الوقائع الاقتصادية الاولية البدائية في بساطتها ، والتي تُخطيت منذ زمن طويل ، والمغلفة

اليوم بوقائع اشد تعقيداً وتركيباً : ونحن نستعير هذا المثل من زمن الحرفية – وقد اضحى بعيداً – وزمن انتـــاج البضائع انتاجاً بسيطاً . فالاسكاف «زيد» – مثلًا – يصنع زوجاً من الاحذية في مدة ١٠ ساعات، وإسكاف آخر «عمرو» يصنع هذا الزوج من الاحذية، هو عينه ، بمدة عشرين ساعة . فهل نذهب الى القول بأن «قيمة عمل» زيد **تعادل** قيمة عمل فلان ؟ وان قيمة هذا العمل تقاس بزمن العمل المستغرَق ؟ عندئذ يؤدي بنا هذا القول الى سخافة ومحالية لا اساس لها ولا غاية .

وهذا يعني قولنـا : ٢٠ = ١٠ . ان برودون يرتكب هذه المحالية –وقد رأينـا جميع الاقتصاديين من خصوم الاشتراكية والماركسية يلبثون مدة قرن كامل يأخذون على ماركس هذه «السخافة» وينسبونها اليه ، رغم انه افتتح دراساته الاقتصادية بنقد هذه السخافة !.. والحقيقة هي ما يلي : ان القيمة البضاعية التجارية لزوج الاحـذية هي محدودة فعلًا بمدة العمل الضروري لصناعته ، **ولكن بمدة العمل الاجتماعي الوسطي** par le temps du travail social moyen.

وفي هـذا المثل الذي نضربه ، اختصرنا المجتمع – افتراضاً وتجريداً – الى حرفيين اثنين ، فنلاحظ ان صناعة زوجين من الاحذية تتطلب ٣٠ ساعة من العمل. وهذا الرقم تحدده الادوات المستخدَمَـــة . ودرجة مهارة كل منهما.. الخ... اذن فكل زوج من الاحذية يساوي **١٥ ساعة من العمل الاجتماعي الوسطي.**

ولكن غير المعقول عندئذ المنـاداة بمبدأ مساواة سطحية Égalitarisme فان كنت اؤكد ان «زيداً» «وعمرواً» لهما الحق بنيل التعويض نفسه لقـاء المنتوج نفسه ، فانني اجور على العامل المـاهر ، لمصلحة العامل البليد . فـانا أعمد ، بحجة تنظيم التوزيع ، الى التسوية ، بادئاً من الاسفل (ومرتكزاً على الحد الادنى أساساً للتنظيم) . وانا احـول ــ بذلـك ــ دون نمو القوى المنتجة: ولكن هل يمكن تصور هذا ؟ فلكي يعرف زيد وعمرو قيمة منتوجهما ، عليهما ان يقدماه **الى السوق** ، ويقدراه **بالنقد ، بالفضة ، بالمال** ، فالنقد هو **المقياس المشترك الوحيد** ، الذي يمكن تصوره واعتماده في تحديد قيمة البضائع . فاذا حاولت مثلا التفكير في اعطاء كل شغيل بطاقة او شهادة تثبت انه عمل كذا ساعات ، وان له الحق في منتوج هذه المدة من العمل ، فانا لا استطيع ان اعلم ما هي البضائع التي تعـــادل وتطابق ــ اجتماعيـاً ــ هذه المدة من العمل . فالنقد هو وحده الذي يمكنه القيام بهذه المهمة ، مهمة الوسيط بين اعمال الافراد . فاذا فكرنا في حـال مجتمـع يحتوي انواعاً من الاعمـال جد متباينة ـ وهذه حال المجتمع الحديث ـ فعندئذ تبدو اللامعقولية بارزة للعيان ، في اوضح شكل . فهل اعمد الى اعطاء عامل حرفي بطاقة تثبت انه عمل عشر ساعات ــ مثلا ــ فتضمن له هذه البطاقة ان ينـال ما يعادل منتوج عشر ساعات في مصنع حديث بلغ اقصى حد من التطور والنمو ؟ ! هذا يؤدي بنا الى سخافة متزايدة ، فزوج الاحذية الذي صنعه الحرفي قد يساوي

– اذا طبقنا هذه النظرية الغريبة – سيارة !... ونقول بتعبير ادق ان هذه الطوباوية الخيالية لا تؤدي الى شيء البتة : فنظام التبادل ينهار ، ومجموع العلاقات الاجتماعية ، بدلاً من ان يطرأ عليه التحول والتغير شطر التقدم، ينفرط وينحل... فالطوباوية الخيالية التي نادى بها برودون، مع جهازها الديالكتيكي والفلسفي، ليست الا طوباوية خيالية حرفية ، وهي تطابق ايضاً الشيوعية البدائية ، ورغبتها في التسوية السطحية .

ويحسن هنا التوكيد على الملاحظة بأن نظرية « المساواة السطحية» البرودونية واوهام « المشاركة العادلة » في منتوجات العمل ، لم تفقد اهميتها ونفوذها اطلاقاً .

فكثير من العمال ما يزالون يعتقدون بأن صاحب العمل الرأسمالي ان هو الا «لص» او ما يشبه « اللص » يستأثر لمصلحته بجزء من منتوج العمل .

ونظرية « برودون » الجريئة « الملكية هي السرقة » تؤدي في الواقع الى **الفكرة الاصلاحية** ، فثمة من يظن أنه يكفي اتخاذ التدابير القانونية او الاخلاقية ليتلاشى هذا النهب وتلك السرقة ، اللذان يقع العامل ضحيتهما .

لقد بيّن ماركس، منذ كتابه « شقاء الفلسفة» ان الرأسمالي ليس محتالاً نهاباً ، ولا لصاً سارقاً . **وهو يمكن ان يكون – فردياً – انساناً شريفاً كاملاً** . وهو يدفع ثمن العمل بقيمته

في سوق العمل . ولكن المزاحمة بين العمال تنزل دائماً من قيمة العمل، **نحو الحد الحيوي الادنى**، الذي يكاد يكفي غذاء العامل. وهكذا، رغم ان الرأسمالي يكون على الصعيد الفردي ، انساناً شريفاً ، خلوقاً ، خيراً ، متمسكاً بالفضيلة ، ولكنه يحقق ، رغم ذلك ، كمية من **الربح** . فليس اذن الرأسمالي الفرد هو المطروح على بساط البحث ، وانما النظام الرأسمالي ، بقوانينه الداخلية . وليس بوساطة الاخلاق والمعنويات ، ولا بوساطة التشريع يمكننا تغيير العالم وتطويره. بل يجب الغاء نظام اقتصادي يكون فيه العمل بضاعة وسلعة، ولهذا يجب الغاء هذه البضاعة هي نفسها ، وهذا من شأنه ان يطرح على بساط البحث قضايا اوسع كثيراً من قضايا الاخلاق والتشريع .

حين يطالب الاصلاحيون Les réformistes للعامل بمنتوج عمله الكامل، فذلك يعني انهم يقومون بغوغاة لا معنى لها. وهذا اما ان يعني ان تعطى الاحذية للاسكاف، والخبز للخباز الخ... وهذا سخيف مضحك ، واما ان يعني ذلك ان نعطيه « قيمة عمله كاملة » ، ولكن في قولنا كلمة قيمة Valeur نكون قد اقررنا جميع العلاقات الاجتماعية الجائرة التي نزعم اننا نحاربها .

ونحن نرى ان « قيمة العمل » او « سعره الطبيعي » او «سعره العادل الصحيح »، في النظام الرأسمالي ، هو : «الأجر». وهذا يعني اننا عدنا ، بتعابير اخرى ، الى تبني النظرية البورجوازية في « العائدات » « والمعادلات ».

ولنُشِر هنـــا الى نقطة في اعلى درجة من الاهمية : نحن نستطيع ان نجد في مؤلف « شقـــاء الفلسفة » نقداً للفكرة الاصلاحية ، ومخططاً موجزاً لنظرية الأجر ، ورأس المـال ، ولكن مخططاً موجزاً ، وحسب .

وفي هذا الكتاب لم يكن ماركس قد اوضح، بعد، سر المجتمع البورجوازي ، وسر العمل بالاجرة Travail Salarié . وانما نجد فيه تفسيراً للربح الرأسمالي ، يرتكز ، بالدرجة الاولى، على تزاحم العمال فيما بينهم : وهذه المزاحمة تنزل سعر العمل في السوق الى الحد الحيوي الادنى ، (الذي يكاد يكفي العامل غذاءه والمحافظة على حياته ...) ورغم ان ماركس يكتب قائلا : « ان اجر العامل ، يعني القيمة النسبية او ثمن العمل، انما تحدده مدة العمل الضرورية لانتاج كل ما هو ضروري لامداد العامل والمحافظة على بقـائه . بمـا أن العمل هو نفسه بضاعة ، فاننا نستطيع قياسه ، بسبب صفته هذه ، بمدة العمل الضرورية لانتاج العمل — السلعة ، او العمل — البضاعة . »

وعلى الرغم من هذا لم يلاحظ ماركس — يومئذ — مـا يترتب على تحليله هذا من نتائج كثيرة .

لا نجد في كتاب « شقاء الفلسفة » **نظرية القيمة الزائـدة ، وهي الحجر الاساسي في تحليل رأس المال .**

على ان ما نجد في بعض اجزاء هذا الكتاب من اضطراب

ظاهري اكثر منه واقعياً ، لا يغفر أخطاء بعض المفسرين الذين اعتقدوا انهم وجدوا في مؤلف ماركس « قانوناً » أطلق عليه « فرديناند لاسّال » اسم قـانون النحاس Loi d'airain ، وهو اسم سوف يغدو شهيراً .

لعل انصار « قانون النحاس » هذا أن يكونوا ثوريين ، ولما كانوا يهدفون الى الاجهاز على نظام اجتماعي ، يرون انه نظام جامد ، وحشي ، متصلب ، جائر ، ثقيل ، كـــأنه عبء او كتلة من الصخر ، ولذلك كانوا يريدون هم ايضاً عملاً ثورياً ، مبـاشراً ، صلبـــاً ، وحشياً ، انهم بلانكيون اكثر منهم ماركسيين .

وهم باسم « قـانون النحاس » هذا سوف يحددون موقفهم ضد العمال – مثلاً – وضد نضال العمال في سبيل **زيادة الاجور**، زاعمين ان هذه الزيادة لا تعني شيئاً في الواقع ولا تجدي شيئاً، وان هذا القانون يعمل عمله دائماً، وان نطاقاً « جهنمياً » يلاشي فائدة الزيادات في الاجور، وان الرأسمالية سوف تفيد من هذه الزيادات حتى نهاية الرأسمالية !...

ولكن لما تبين لهؤلاء الثوريين ان العمل الثوري – الذي يستطيع تغيير هذا المصير ، في زعمهم ، تغييراً مفاجئاً – لما تبين لهم ان هذا العمل مستحيل عليهم ، بما لديهم من وسائل ، فإنهم تحولوا هم ايضاً الى «اصلاحيين» سطحيين . مثلاً ، حين لاحظوا الدور الذي تلعبه المزاحمة بين العمال ، انصرفوا الى التخفيف من

اهمية هذا الدور ، وحدّته ، بوساطة النقابات ، ولكنهم قصروا النضال العمالي على هذا المطلب ، المشروع ولا شك ، ولكنه محدود الاهداف...

وسوف نرى كيف تحول فردينان لاسال، الذي كان يظن نفسه ماركسياً ، ثورياً ، الى « اصلاحي » سطحي .

علينا — اذن — ابداء ثلاث ملاحظات مهمة :

أ — ان فكر ماركس لم يكن قد تحدد تحديداً كاملاً دقيقاً في سنة ١٨٤٦ . وكانت نظرية رأس المال تتضح اتضاحاً بطيئاً . واما فكر ماركس السياسي فلم يكن قد تميز الا قليلاً من موقفين سوف نعمد الى تحليلهما في صفحات تالية : الموقف البلانكي ، او نظرية الاستيلاء على الحكم بضربة ثورية عنيفة ، ونظرية «الثورة الدائمة » التي كانت ترى ان البروليتاريا تستطيع مواصلة نضالها الثوري ، دون توقف ، ودون اللجوء الى مراحل وسيطة ، حتى تبلغ الاشتراكية والشيوعية .

اما الفكرة الاصلاحية، فاتخذ ماركس موقفاً ضدها . وان كنا نحس احساساً او نحدس حدساً بالمعنى الدقيق لهذا الموقف الماركسي يومئذ ؛ اذ لم يكن قد اتضح تماماً . وكان من الضروري ان تحدث وقائع سنة ١٨٤٨ وان ينتشر البيان الشيوعي ، وان يخوض ماركس وانجلز غمرات النضال العملي الواقعي ، لكي يتحدد هذا الموقف تحديداً دقيقاً واضحاً .

ب – لم تكن **التعابير الماركسية والالفاظ الماركسية** قد تحددت بعد . وكما اشار انجلز في مقدمته لكتاب « شقاء الفلسفة » : « اكاد اقول انه من غير الضروري الاشارة الى ان اللغة في هذا الكتاب لا تنطبق على اللغة في كتاب **رأس المال**، ففي هذا الكتاب « شقاء الفلسفة » ما زال ماركس يتحدث عن العمل بوصفه بضاعة ، ويتحدث عن بيع **العمل** وشرائه بدلاً من الحديث عن **قوة العمل** .

وسوف نرى في صفحات تالية ، بوضوح اكثر ، على اي شيء ينطوي هذا الاختلاف في التعبير . ونكتفي بالاشارة الآن الى ان هـــذا الاختلاف يدلنا على ان نظرية القيمة الزائدة Théorie de la plus - value لم تكن قد وردت بعد .

ج – في هذا المؤلف « شقاء الفلسفة » يرد ماركس رد فعل عنيف قوي – واحياناً رد فعل مبالغ في العنف والقوة **ضد الفلسفة** ، ويكفي العنوان للدلالة على ما نقول .

كان ماركس في هذه الفترة ينظر الى تاريخ النمو التطوري الاجتماعي بانه « ممكن ملاحظته تجريبيـاً » (وهذه تعابير « الايديولوجية الالمانية » .

واستنتج ماركس – اذن – في هذه الفتره ، بصدد المادية التاريخية ، ان علم الانسان ، سواء في الاقتصاد ام في التاريخ ، ام في علم الاجتماع الخ...) هو علم يرتكز على **المـــلاحظة**

والتجربة . تماماً مثل سائر العلوم « التجريبية » التي تدرس الطبيعة . والتاريخ هو تدرّج طبيعي للنمو التطوري الاجتماعي، يعمد الضمير العملي الى فهمه .

وينتج من هذا استبعاد الفكر الفلسفي، والمنطق والديالكتيك. على ان فكر ماركس يظل فكراً ديالكتيكياً ، وهل كان في وسعه ان يكون غير ذلك ؟ لقد كونته الفلسفة الهيجلية ، ولم يجد في الوقائع والاحداث الا توكيداً لفكره، فبقي في كتابه « شقاء الفلسفة » يفكر ديالكتيكياً . وهو يحلل ما تنطوي عليه الوقائع والاحداث من تناقضات ، ويحلل التناقضات الموجودة في فكر برودون ، مبيناً بلا انقطاع كيف **ان الطريقة التي يعتمدها برودون ليست حقاً ديالكتيكية** . فبرودون **يعزل** جوانب الواقع المتناقضة ، بعضها عن بعض ، بدلاً من تحليلها في مجموعها ، في **علاقاتها**، ومفاعلاتها المتبادلة . وهو يطلق عليها، بعد ان يعزلها بعضها عن بعض، تسميات اخلاقية معنوية، اوغيبية ميتافيزيكية : فثمة – في نظره – للأشياء : جانب خير ، وجانب سيء ، وكان برودون يظن انه اكتشف حقائق خالدة؛ وهو لم يفهم **الحركة**، والصراع الداخلي العميق الناشب بين قوى الطبقات المتناقضة ، ولم يفهم ما في هذا الصراع من غنى ، ولم يفهم القفزة التاريخية ، الى الامام ، نحو مجتمع جديد.. الخ ...

ومع ذلك ، فماركس ، في كتاب « شقاء الفلسفة » (وهذا

مـا يجعل الكتاب على شيء من الغموض) لا يقتصر في هجومه العنيف عـلى « ديالكتيك » برودون الخـاطيء المجرد ، بل هو يهاجم كل طريقة ، وكل نظرية ديالكتيكية .

وبمقدار ما نستطيع فهم هذه النقطة الغامضة وتوضيحها ـ وهي أن التناقضات الاجتماعية والتاريخية، كما كان يفهمها ماركس (وفي الدرجة الاولى، **الطبقات**، وظاهرات المزاحمة، والتنافس الخ...) انما كانت في جوهرها **احداثاً ووقائع**، تمكن ملاحظتها تجريبياً. فلا حاجة ـ اذن ـ الى ربطها بنظرية عامة ، في المعرفة ، وفي منهج التفكير . بل يكفي ملاحظة الاحداث الواقعية ، وربطها فيما بينها ، كما يفعل العالم الطبيعي مثلاً ، وهو ازاء الظـاهرات الفيزيائية، دون ان يهتم بشيء آخر، ودون الحاجة الى «فرضيات تأملية فكرية سابقة » .

ونقول بتعابير أُخرى، لكي نضع المسألة في موضعها الصحيح، ان **المادية التاريخية** ، كما كانت تبدو لماركس في سنة ١٨٤٦ ، يخيل الينا انه كان من الممكن المقارنة ـ بمعنى من المعاني ـ بينها وبين الوضعية positivisme وهذا الاسم أُطلق على التعاليم التي انبثقت عن تفكير أُوغست كونت ، وكانت تزعم بان الفكر العلمي او الفكر الوضعي مستقل عن اي فلسفة، وعن اي نظرية عامة في الاشياء والفكر[1] . فالوقائع وعلاقاتها تكفي العالِم ،

---

(١) ثمة فرق جوهري بين تفكير ماركس عام ١٨٤٦ وتفكير اوغست كونت : لم يكن ماركس يعتقد في وجود اي « لغز » او « سر » ولا في

سواء اكان عالم فيزياء ام عالم اجتماع ام مؤرخاً .

ويدل « شقاء الفلسفة » على ان ماركس كان قد جمع واستوعب كمية ضخمة من الوثائق والمعلومات ، عن تاريخ الرأسمالية ، وعن ادوار الانتقال من الرأسمالية التجارية والمانيفاكتورية (منذ اوائل عهود الرأسمالية حتى القرن الثامن عشر) الى الرأسمالية الصناعية ، وكذلك عن تمركز رؤوس الاموال . وكان يملك ايضاً كمية ضخمة من الوثائق والمعلومات عن تاريخ الطبقة الكادحة التي كانت تستمد عناصرها في اول عهدها من بين الهائمين في آفاق الارض، والمشردين الذين افلسوا بسبب ازمة الاقتصاد والمجتمع عند نهاية القرون الوسطى . وأول مرة في تاريخ الفكر الحديث، جاء ماركس يرسم مخططاً موجزاً لهذا التاريخ ، تاريخ الطبقة الكادحة ، ويبين اتساع مأساتها الدامية الربداء ، منذ ورشات العمل الاجباري Workhouses في زمن هنري الثامن (الذي امر بشنق ٧٠٠٠٠ عامل كادح) ومنذ عهد الملك الطيب هنري الرابع حتى عهد المصانع الحديثة الكبرى .

وماركس يبين كيف ان الطبقة الكادحة ، من فئات

وجود اي مجهول لا تمكن معرفته ، خيء وراء « الظاهرات »، وانما على العكس، كان ماركس يسخر بمادة الالغاز والاسرار ، وكان يرى بأن وظيفة المعرفة العلمية انما هي تبديد السر الاجتماعي وكشفه وازالة اسباب اللغز الذي يعانيه الانسان في داخل ذاته .

المشردين المحشودين للعمل الاجباري ، والسخرة ، تحولت — موضوعياً — الى طبقة ، ثم الى طبقة واعية **لذاتها** ، ولنزاعها مع الطبقة السائدة ، وواعية لرسالتها التاريخية .

كان الامر يتعلق ، في نظر ماركس ، **باحداث تاريخية** ، وعلاقاتها ، فيما بينها . وما ان تطرح مسألة الطريقة او المنهج ، حتى ينهال ماركس ، بسيل من السخر اللاذع ، على الفلسفة الهيجلية ، ومـا تعتمد من ديالكتيك . لم يكن يرى في هذه الفلسفة وفي ديالكتيكها سوى « عقل غير شخصي » منعزل عن الافراد. (راجع الفصل الثاني ، ميتافيزيك الاقتصاد السياسي ، الملاحظة الاولى .)

« هل يجب ان ندهش لان كل شيء ، عند التجريد الاخير — لان ثمة تجريداً لا تحليلاً — يظهر لنا في شكل صنف Catégorie او باب منطقي ؟ هل تجب الدهشة لاننا اذا نزعنا شيئاً فشيئاً كل ما يؤلف فردية منزل ما ، وبتجريده عن مواد البناء التي يتألف منها ، وتجريده عن الشكل الذي يتميز به ، عندئذ لا يبقى لديك الا جسم ؟ واننا اذا جرّدنا هذا الجسم من حدوده لم يبق لدينا الا المدى او المكان ؟ واننا اذا جرّدنا هذا المكان من حدوده انتهى بنا الامر الى ان لا يكون لدينا غير الكمية المجردة والصنف المنطقي.. وهكذا انطلاقاً مع التجريد على هذا النحو لا يبقى لدينا من جوهر الاشياء الا الصنف المنطقي. وكما انه بسبب الانطلاق في التجريد ، حوّلنا كل شيء

الى صنف منطقي ، كذلك ليس لنا الا تجريد مختلف الحركات من كل صفة مميزة للحصول على الحركة في الحالة المجردة ، على الحركة الشكلية الصرف ، على الصيغة المنطقية الصرف للحركة . فاذا كنا نجد جوهر الاشياء كلها في الـ Catégories او البنود المنطقية ، فاننا نتخيل عندئذ اننا نجد ايضاً المنهج النهائي المطلق في الصيغة المنطقية للحركة . وعن هذا المنهج الحديث يتحدث هيجل بهذه العبارات : « المنهج (او الطريقة) هو القوة المطلقة ، الواحدة ، النهائية ، اللامتناهية ، التي لا يمكن ان يستعصي عليها شيء ، انه ميل العقل الى استعادة ذاته ، والتعرف اليها في جميع الاشياء... »

وماذا فعل برودون ؟ لقد سار في اثر هيجل ، وكما شخّص هيجل العقل والمنهج او الطريقة La raison et la méthode وجسّدهما ، جاء برودون وشخّص المجتمع وجسّده . وهو ينسب اليه اهدافاً ، ونيّات ، واهواء ، وتأليفات Des syn- thèses ، ظلت مدة طويلة تنضج في ذهنه الخاص ، ذهن المجتمع !...

واذ لم تكن الاصناف الاقتصادية الا تجريدات نظرية ، نحصل عليها بملاحظة العلاقات الاجتماعية وتحليلها ، فإن برودون يقف موقف الفيلسوف الحقيقي ، وينظر الى الاشياء نظرة معكوسة ، فلا يرى في العلاقات الاجتماعية الا تعبيراً عن هذه المبادىء ، عن هذه الاصناف . » والدورة الدموية ، في نظره ،

انما هي نتيجة من نتائج نظرية هارفي !...

ما هذه الطريقة اذن ، اي هذا المنهج ؟ انها تجريد الحركة ، انها الحركة في الحالة المجردة ، انها الصيغة المنطقية لكل حركة ، يعني اخيراً : حركة العقل المجرد في ذهن الفيلسوف.. « وفيم تتلخص حركة العقل المجرد ؟ انها تضع ذاتها ، ثم تناقض ذاتها ، ثم تتألف ، وتصوغ ذاتها في موضوع ، ونقيض ، وتأليف... او انها بتعبير آخر تؤكد ذاتها ، ثم تنفي ذاتها ، ثم تنفي النفي؛ وكيف تفعل ذلك ؟ ذلك من شأن العقل La Raison نفسه وشأن فلاسفته الوهميين .

«وما ان يفلح هذا الفكر في وضع ذاته موضوع الـ Thèse حتى ينشطر – وهو المناهض لذاته!... – الى شطرين ، الى فكرين متناقضين ، ايجابي ، وسلبي ، الـ « نعم » والـ « لا » وصراع هذين العنصرين المتنازعين الـ « نعم » والـ «لا» المنطويين في النقيض L'antithèse يؤلف الحركة الديالكتيكية ، وحين تصير الـ « نعم » «لا» والا «لا» « نعم » وحين يصير « النعم » «لا» في وقت واحد ، تتوازن الاضداد، وينفي بعضها أثَـرَ بعض ، ويشل البعض فعالية البعض الاخر!... »

ومن الواضح ان ماركس هنا يعنف حين يرسم صورة هزلية كاريكاتورية للديالكتيك الهيجلي .

وهو يفتح ثانية ابواب الحملة القلمية على هيجل . ورغم ذلك

لا تخلو تعابير هذه الحملة من اصابة هدف ، وبُعد نظر . ويتابع ماركس حديثه (المرجع المذكور) :

« ان دمج هذه الافكار المتناقضة يؤلف فكراً جديداً ، هو تأليف مـــا بين تلك الافكار المتناقضة . وهذا الفكر الجديد يزدوج ايضاً الى فكرين متناقضين يندمجان ، همـــا ايضاً ، في تأليف جديد. ومن عملية التوليد هذه تولد مجموعة من الافكار.. وهذه المجموعة من الافكار تمر بالحركة الديالكتيكية نفسها... خذ هذه الطريقة وطبقها على بنود الاقتصاد السياسي وابوابـه ، تحصل على منطق الاقتصاد السياسي ، وميتافيزيك الاقتصـــاد السياسي . »

(وسوف نرى في صفحات تالية كيف استخدم ماركس هو نفسه هـذا المنهج وطبقه عـــلى ابواب الاقتصاد السياسي ، من عـــام ١٨٥٧ ، ولكن دون ان يأتي بميتافيزيك للاقتصاد السياسي !...)

وهو يتابع نقده ، ويذهب فيه الى اقصى مداه : « وبتعابير أُخرى ، نقول انك تحصل على الاصناف الاقتصادية التي يعرفها الناس جميعاً، مترجمة، او منقولة الى لغة لا يعرفها الا الاقلون... وتبدو هذه الاصناف كأن بعضها منبثق من البعض الآخر ، وكأنها متصلة الحلقات ، وذلك بفعل الحركة الديالكتيكية وحدها .

ومن ناحية ثانية ، « فاننا لم نعرض حتى الآن الا ديالكتيك هيجل الذي نجح برودون فيما بعد برده الى اضيق الحدود ، واكثرها تفاهة...» ولكن هيجل، برغم ذلك ، هو الذي ضيّق من حدود «كل ما جرى ، وكل ما يجري ايضاً ، وحصره في حدود مـــا يجري في عقله الخاص...» وهكذا لم تبق فلسفة التاريخ الا تاريخ الفلسفة – وتاريخ فلسفة هيجل وحده ! – فلم يبق ثمة من تاريخ وفقاً لترتيب الازمنة . وانما هناك – في نظر هيجل – توالي الافكار في ذهنه وحسب . وكان يظن ان بوسعه بناء العالم بحركة الفكر ، بينما هو لا يقوم الا باعادة بناء الافكار الموجودة في اذهان جميع الناس ، وهو يعمد اليها وينسقها وفقاً « لمنهجه » الخاص...

من الصعب ان يوفق الانسان الى صياغة حكم على الديالكتيك – الهيجلي – أقسى لهجة ، واكمل جذرية من هذا الحكم ، ولا شك في ان ماركس كان يوقن ، عام ١٨٤٦ ، بان هذا الحكم حاسم مبرم لا رجوع عنه .

ولم تكن القضية ، في السابق، تكميل ديالكتيك هيجل ، وتحسينه وتعميقه . فلقد حـــكم ماركس على الفلسفة الهيجلية ، وبحكمه عليها كان يثور على منطقها ومنهجها !...

وسوف يكتب ماركس في عام ١٨٦٥ (المقال المشار اليه آنفاً والوارد في سوزيال ديموقراط ») «لقد بينت كم كان ضئيلاً نفاذ برودون الى لغز الديالكتيك العلمي .. كانت طبيعة

برودون تحمله نحو الديالكتيك ، ولكنه بعجزه عن فهم الديالكتيك العلمي ، لم يستطع الوصول الى غير السفسطة . »

وبين عامي ١٨٤٦ و ١٨٦٥ اجتاز الفكر الماركسي ـ اذن ـ مرحلة جديدة ، فهذا المقال يتحدث عن « الديالكتيك العلمي » ولم يكن هذا الديالكتيك قد ورد ذكره عام ١٨٤٦ ، ولم تكن قد صدرت الا صيغة للمادية التاريخية . فماركس وانجلز اثناء الجهود التي بذلاها لاكتشاف عناصر الحقيقية ، او المحتوى Le contenu ، صدفا موقتاً عن مسائل **الشكل والمنهج** . ولم تكن دراستهما لحركة التاريخ قد ارتبطت ، بعد ، بنظرية كلية شاملة وعقلانية ، عن التطور التاريخي ، وعن الصيرورة ، والمعرفة والفكر .

علينا اذن ان لا نلتمس في كتاب « شقاء الفلسفة » الصيغة الكاملة للطريقة المادية الماركسية . كما انه لا يجدر بنا التماس نظرية **رأس المال** العلمية في هذا الكتاب .

ويجب ان نحتفظ من هذا الكتاب ، قبل كل شيء ، بالنقد ـ الحاسم ـ لفكرة الاصلاحية الاجتماعية Réformisme social والبحث عن تحديد دقيق وعملي تطبيقي لوضع الطبقة العاملة السياسي[1] .

---

(١) اذن ففي مقدمة كتاب « مختارات من ماركس » (١٩٣٤) خطأ حين ذهبت الى ان « المادية الديالكتيكية » كانت قد نشأت منذ ١٨٤٥ - ١٨٤٦ وقد صححنا هذا الخطأ في كتابنا « المادية الديالكتيكية » (انظر ص

وكذلك علينا الانتباه الى هذا الملحظ المهم : حين يتمتع انسان ما، -برودون مثلاً - بموهبة طبيعيةولم يتح له ان يفكر تفكيراً ديالكتيكياً ، فمن الممكن دائماً ان يصبح سفسطائياً لا اكثر ، اذا لم يرتفع الى مستوى سامٍ ، بتأسيس فكره على الاحداث الواقعية والعمل .

١٢ = ثورة ١٨٤٨

خلال هذه السنوات ، كان تأثير «نادي الدراسات» ، الذي اسسه ماركس في بروكسل ، ينمو نمواً سريعاً ، ويزداد . وكان ماركس يفتتح كل اجتماع في هذا النادي ، باستعراض للاحداث الجارية ، هو - برواية بعض الشهود - « رائعة من روائع الوصف الشعبي، تتساوى في قوتها وفي روحها الساخرة» وكثيراً ما كانت جيني ماركس تنشد الاشعار ، ثم يدور الرقص والغناء .

وكانت الشرطة تهتم بالنادي اهتماماً كبيراً ، وكانت تنسب اليه في تقاريرها نظرية « اقتسام الاموال بالمساواة.. » (نظرية الاقتساميين تلك الشهيرة...) وهـذا يعني ان الشرطة كانت

---

٦١ - ٦٣) وهو خطأ وارد في كثير من الدراسات التي تعرض الماركسية ، ولا يسأل مثلاً : ما هي الروابط الحقيقية بين « دراسات عن فيورباخ » والمادية التاريخية من جهة وبين نظرية رأس المال ، من جهة ثانية .

تنسب الى ماركس هذه الشيوعية البدائية الجافية التي كان ماركس يحاربها بضراوة وشدة .

ألقى ماركس في النادي ابحاثه الاولى التي تعرض الاقتصاد بالمعنى المعروف للكلمة ، وقد نشر فيما بعد ، جزءاً من هـــذه المحاضرات بعنوان « لوهنارбايت اونـــد كابيتال » : « العمل بالاجرة ، ورأس المال »

وخلال عام ١٨٤٧ ، ازداد نشاط **الديموقراطيين** في جميع البلدان الاوروبية ازدياداً عجيبــاً . واسست جمعية « فراترنل ديموقراط» فروعاً لها في جميع البلدان الاوروبية الكبرى ، وفي خريف عام ١٨٤٧ نشر جماعة « فراترنل ديموقراط » بياناً أُممياً يدعو الى تأليف « منظمة يمكن ان ينتمي اليها الناس من جميع الجنسيات » . ونشرت الصحيفة الانكليزية « النورثرن ستار » رسالة من « الشيوعيين الديموقراطيين الالمـــان » موقعة باسم ماركس وانجلز . وكانت عملية الاحتكاك ، والود المتبادل ، تتكاثر وتزداد، اذن، بين الممثلين الاوروبيين للديموقراطية، وبين الشيوعيين الماركسيين .

وكانت الشيوعية **العلمية** (في مواجهتها يومئذ المرحلة الثورية التي كانت وشيكة الحدوث، بوصفها مرحلة نحو التطور الاقتصادي والاجتماعي المقبل) تضـع حداً لانعزالية المشاعيين الطوباويين الوهميين. وكيف يمكن ان تتحد الشيوعية البدائية (التي كانت تريد ان تحقق المساواة فوراً بقلب المجتمع الراهن !) كيف

يمكن لهذه الشيوعية ان تتحد مع الديموقراطيين والتقدميين ؟ لقد بدأ نفوذ ماركس يتدخل ويؤثر اثره في السياسة الاوروبية.

وكان ذلك العهد من اجمل العهود في حياة ماركس . كان هو العهد المرح السعيد ، فقد وجد ماركس نفسه (او كان يظن انه يجد نفسه) مسيطراً على فكره ومذهبه، وبدأت اولى اعراض الحركة الثورية تظهر واضحة لنظره النابه . والظاهر ان ماركس كان يعتقد ـ يومئذ ـ انه يمكن الانتقال ، بلا توقف ، من الثورة الديموقراطية الاوروبية الى الاشتراكية والشيوعية ، « بثورة دائمة » . وكانت ابواب الآمال تنفتح على مصاريعها ، دون ان تحدها حدود ، وكان ماركس في الثلاثين من العمر ، يحس ببهرة الصبا ، وعنفوان الشباب ، والعبقرية ، والحب السعيد .

ويروي«ويدمير» اخبار رحلات ماركس وزوجه واصدقائهما في ضواحي بروكسل. « وكانت رحلات مرحة الى حد الجنون.» ويصف ستيفان بورن (وهو عامل مطبعة اضحى استاذاً في جامعة برلين ثمّ صار « اصلاحياً سطحياً ») يروي في مذكراته مرح ماركس وسعادته في هذه السنوات ، الى جانب جيني التي «تناسقت صفاتها الجسمية مع عظمة قلبها ونفسها» (س . بورن)

على ان ماركس بدأ يعاني صعوبة الوضع المادي بعد ان رزق ولدين (لورا وادغار) في ايلول ١٨٤٥ ، وكانون الاول

١٨٤٦ . (وهل تجب الاشارة الى انه رفض بعد زواجه كثيراً من العروض السخيـة التي كانت تيسر له – لو قبلهـا – حياة سعيدة ناجحة ؟!...)

وكان مقرراً ان يجتمع المؤتمر الثـاني « لرابطة الشيوعيين » في خريف ١٨٤٧ . وكان من المتفق عليه ان يعمد هذا المؤتمر الى دراسة منهج سياسي واضح محدد. فوضع انجلز منهجه ، في صيغة من الاسئلة والاجوبة، تشبه صيغة الكتب التي تعلم قواعد الدين Catéchisme (وكان هذا الشكل كثير الانتشار في اوساط « الشيوعيين » وكانوا ما يزالون مشربين بروح ديني غريب).

وضمَّن انجلز هـذا الكتيب قواعد الاشتراكية العلمية ، غير ان عمله لم يعجبه ، فأهمله .

وعين فرع الرابطـــة في باريس انجلز ممثـلاً عنـه في مؤتمر لندن ، اما فرع بروكسل فسمى ماركس. وكان ماركس مسافراً الى لنـــدن كذلك ، لتمثيل التجمع الديموقراطي في بروكسل ، بمؤتمر « فراترنل ديموقراط » الذي انعقد في التاسع عشر من تشرين الثاني ١٨٤٧ . وفي اليوم التـالي افتتح مؤتمر الشيوعيين . وتكلم فيه ماركس مبيناً ان الثورة الاوروبية سوف تبدأ ، وان سقوط المجتمع القـــديم هو الشرط الاول لتأسيس مجتمع جديد لا يرتكز اطلاقـــاً على المنازعات بين الطبقات .

وكان ماركس – اذن – يطالب الشيوعيين ، من الوجهة السياسية بالاتحاد مع الديموقراطيين في النضال الثوري المقبل . وباسم « التجمّع الديموقراطي » وبالتـــالي ، باسم « فراترنل ديموقراط » اقترح ماركس عقد مؤتمر عـــام لجميع المنظمات الديموقراطية ، وقبل اقتراح ماركس ، وعين مـكان الاجتماع وزمانه . وكان على هذا المؤتمر العالمي الانعقاد في بروكسل في الخامس والعشرين من تشرين الاول ، ١٨٤٨ . ولم يعقد هذا المؤتمر ابداً . فقد سبقته الثورة الاوروبية وكانت اسرع منه .

استمر المؤتمر الشيوعي في لندن عشرة أيام . وكان على ماركس وانجلز خلال هذه الايام العشرة مضاعفة الجهود ، وبث التعاليم ، والعناية باعضاء « رابطة العادلين » القدمـاء ، لتبديد الحذر والمخـــاوف التي كانت تراود الكثيرين ازاء « العلماء » « والمبادىء المجردة »... ونجح ماركس وانجلز في ادراك هذه الغاية، وانتزاع كل ما له صلة بالمؤامرات، من منظمات «الرابطة». وبقيت الرابطة جمعية سرية لانها كانت غير مشروعة وغير مصرح بها من قبل الحكومات في اكثر بلدان اوروبة. ولكن شكلها هـذا المؤقت لم يبق متضمنـاً اية تعاليم سرية ، او اي تبشير سحري غـامض بنوع من « الديانة الانسانية الحديثة » او اي ايديولوجية لفرقة سرية . لقد تحولت الرابطة فصـارت منظمة سياسية واضحة الاغراض (تعمل سراً او علانية وفقاً لموقف السلطات منها) وكانت سرية حتى في انجلترا الليبرالية الاحرارية،

ولكن كان لهذه الرابطة مناهج سياسية معروفة معينة .

وظل مركز اللجنة المركزية معيناً في لندن ، على ان ماركس اضحى هو الموجه النظري للرابطة . فكاف مع انجلز بوضع منهج سياسي ، في اسرع وقت ممكن . ولا يعرف هل عرض انجلز على المؤتمر كتابه « مبادىء الشيوعية » ولكن المعروف فقط ان اهالي لندن اعربوا مراراً عدة في الاشهر التالية عن غضبهم لتأخر ماركس وانجلز في وضع المنهج بل انهم فكروا باتخاذ تدابير قاسية بسبب تأخر « المواطن ماركس » عن تسليم المنهج في الموعد المحدد .

انطلق ماركس من نص انجلز ، وارتكز عليه في صياغة المنهج ، ولكنه حوّره تحويراً عميقاً .

فالبيان الشيوعي اذن هو نتيجة لعمل مشترك بين ماركس وانجلز، ومن المستحيل فصل نصيب كل منهما في هذا العمل المشترك . ولكن الصيغة النهائية ، يعني الحركة ، والتعابير ، والصيغ ، وقوة هذا المؤلف كلها من عمل ماركس ، وماركس وحده . وقد اراد انجلز إنصاف صديقه فقال هذا القول وردده مراراً .

وأُرسلت مخطوطة البيان الشيوعي الى لندن حوالي اول كانون الثاني ١٨٤٨ ، وفي هذه الفترة كانت الازمة الثورية الكبرى قد بدأت. ومنذ تشرين الثاني ١٨٤٧ افتتحت سويسرة

الاحداث الثورية .

ولنذكّر هنا ، في اختصار ، بظروف هذه الحوادث :

قرر المجلس الاتحادي السويسري طرد اليسوعيين من البلاد، فاحتجت الكانتونات (المقاطعات) الرجعية على هذا القرار وألفت «السوندرباند » او الرابطة الانفصالية . وناصرت الدول الكبرى جميعها « السوندرباند » ووعدت بمؤازرتها عسكرياً . ولكن رئيس الديموقراطيين السويسريين اكسينيبين كان لحسن الحظ ، رجلا قوياً يتمتع بمضاء العزيمة وشدة البأس . وكان يعرف انّ جو ايطالية بدأ يزمجر منذراً بالثورة . فأعلن : « اذا تدخل الاجنبي في امورنا، اطلقت جيوشنا نحو منطقة اللومبارديا وناديت بالجمهورية الايطالية » فلم تتحرك الجيوش النمساوية ، التي كانت قد تجمعت على الحدود السويسرية ! وهزمت « السوندرباند » سريعاً ، بعد ان فقدت المعونة الحقيقية التي انتظرتها من الرجعية الاوروبية . ونستطيع ان نتصور بهجة المؤتمرات الديموقراطية والشيوعية حين تلقت انباء سقوط « لوسرن » عاصمة الكانتونات (المقاطعات) الرجعية ، ومركز « السوندرباند » .

وهكذا ادى نضال الديموقراطيين ، الجريء الصامد ، في بلد صغير حرّ ، الى تراجع القوى الضخمة التي كانت تؤلف «الحلف المقدس» الرجعي، واصيبت هيبتها في الصميم ، وانهارت ولا سيما هيبة النمسا .

وفي كانون الثـــاني ١٨٤٨ ثار الديموقراطيون في جنوبي ايطالية... وابتدأت ثورة ١٨٤٨...

ونشبت ازمة اقتصادية ، وكانت ازمة خطيرة بالنسبة الى ذلك العصر ، فمهدت لزلزلة الاوضاع في اوروبة ، وانضمت الى الازمة دعاوة الليبراليين والديموقراطيين والشيوعيين وتعاليمهم الجديدة . واقفلت جميع المصـانع في المناطق الصناعية ، خلال شتاء ١٨٤٨، وكانت البطالة، ولا سيما بين عمال النسيج ، واسعة الانتشار، وكان البؤس عميقاً شاملاً . وامتدت الازمة فأصابت بلجيكا اصابة شديدة ، وكان الليبراليون قد استولوا على الحكم منذ عام ١٨٤٧، ودللوا على عجزهم عن مواجهة المسائل الجديدة النـــاشئة عن الازمـة الاقتصادية . وتسلم الديموقراطيون والراديكاليون (واعضاء التجمع الديموقراطي ، يعني كـارل ماركس) قيادة الحركـة السياسية . وكان ماركس وانجلز ينتظران ان تنهـار ، بين يوم وآخر ، جميع قلاع الرجعيـة الاوروبية، واولها الامبراطورية النمساوية « وهي المصنوعة من قطع مسروقة من هنا وهناك... » وكانت تتحقق شيئاً فشيئاً جميع الظروف لانهيار ضخم، ولقفزة الى الامام في تاريخ العالم.

« ويروي ستيفان بورن انه في مساء الرابع والعشرين وقد دخل القطارالمقبل من الحدود الفرنسية الى محطة بروكسل، اعلن قائد القطار: «العلم الاحمر يرفرف فوق مدينة فالانسيين» فهتف من كان هناك من الشبان الالمان المنفيين : « تحيا الجمهورية » .

ولكن احداث برلين كان لها في بروكسل وقع معكوس ، غير متوقع ، فقد اقنع الليبراليون الديموقراطيين بانهم – يعني الديموقراطيين – سوف «يقومون بالثورة من الاعلى»، ويعلنون الجمهورية هم انفسهم . وكانت الحكومة الليبرالية قد جمعت ، خلال هذه المحادثات ، عدة فرق من الجيش، تثق بها ، وحشدتها حول بروكسل . واجتمع المجلس النيابي ، وقام النواب الديموقراطيون يصرحون بان الحرية التي انطلقت من باريس سوف تصل الى بروكسل، فأجابت الحكومة بان هذه الحرية وصلت الى بروكسل بالفعل! فأرتج على النواب الديموقراطيين وصمتوا...

ومنذ ليل ٢٧ شباط حتى الثامن والعشرين منه ، حاول الديموقراطيون القيام بتظاهرات ، ولكن الحكومة عمدت الى تفريقها بالقوة المسلحة. ووضعت الحكومة «الليبرالية الاحرارية» قائمة باسماء لاجئين ديموقراطيين، ومن البدهي ان اسم ماركس كان وارداً فيها ، وهو رئيس « التجمع الديموقراطي » وأُبلغ قرار النفي في الثالث من آذار ١٨٤٨ . واعتقل بعد قليل . واقتيدت جيني ماركس هي نفسها الى السجن ، بتهمة التشرد ، وحبست مع المومسات ، ثم مثلت امام قاضي التحقيق فأبدى دهشته الكبرى لان اولاد ماركس لم يعتقلوا ايضاً .

وتدفقت من كل الجهات احتجاجات الصحافة اليسارية والرأي العام : من فرنسة ، ولا سيا انجلترة ، وانهال سيل من البرقيات على الحاكمين البلجيكيين فاضطروا الى التراجع ،

واطلاق سراح جيني وكارل ماركس ، وايصال ماركس الى الحدود الفرنسية . وهذا ما حدث فعلًا وسط حركة الجيوش الدائة. وكانت الفرق البلجيكية التي شلت الحركة الديموقراطية تتجه الآن نحو الحدود الفرنسية ، وكان الليبراليون البلجيكيون يرمون الى دعم موقفهم ، واستثارة حركة وطنية انعزالية ، مناهضة للديموقراطية ، فكانوا ينشرون الاشاعة بان « الحمر » الفرنسيين سوف يجتاحون بلجيكا...

هكذا بدأت ثورة ١٨٤٨ بخيانة كبرى قام بها الليبراليون، ولهذا مغزى بعيد .

وفي فرنسة كانت حماسة الايام الاولى من عهد الجمهورية مستمرة بل كانت في تصاعد وازدياد . وكان العلم الاحمر والعلم المثلث الالوان يرفرفان جنباً الى جنب ، على المحطات ، وفي الشوارع المزدانة ...

وثمة بعض التفاصيل المثيرة للفضول : فقد استغرقت رحلة ماركس بين بروكسل وباريس اربعاً وعشرين ساعة . وكانت الخطوط الحديدية ، في اماكن كثيرة ، منتزعة ، والمحطات محروقة ، والعربات منهوبة . ومن فعل ذلك ؟ لم يكن الثوار هم الذين قاموا بهذه الاعمال وانما هم اصحاب الفنادق وسائقي عربات الخيل الذين كانوا ناقمين لمزاحمة السكة الحديدية !...

وكان البيان الشيوعي وشيك الظهور حين وصل ماركس

الى باريس حيث وجد انجلز في انتظاره .

ولنترك هنا موقتاً ، قصة الاحداث والنضال الماركسي عام ١٨٤٨ ، عامدين الى تحليل هذا البيان الذي يلخص خطة الشيوعيين ويركزها على اسس موضوعية .

القسم الثاني

من « البيان الشيوعي » حتى كتاب « رأس المال »

١ – البيان الشيوعي

يقطع بيان ١٨٤٨ الصلة ، عن عمد، مع جميع الذين يسميهم ماركس « سياويي الثورة » (راجع مقال ماركس عن كتاب « المتآمرون والجمعيات السرية » جيسماتو سجيب ، الجزء السابع ص ٣٠٠ – ٣٠١) . وهو يقرر علمياً امكان وضرورة تطوير اجتماعي ليست الثورة الا مرحلة من مراحله .

من هو **الشيوعي** ، بمعنى الكلمة الحديث ؟ في القرن التاسع عشر ، وفي القرن العشرين ، في عهد التقنيــة La technique الراقية المتطورة ، وعهد الصناعة الضخمة ، ما معنى ان يكون الانسان **شيوعياً** ؟ يحدد **البيان الشيوعي**، تحديداً عقلانياً، معنى هذه الكلمة . «ان يكون الانسان شيوعياً» لا يعني ان يكون

له راي مختار من بين سائر الآراء ، وفقاً لمصادفات التفضيل والانتقاء والمناسبات ؛ ولا هو كذلك ، صفة موروثة اصيلة عند بعض الافراد يكونون شيوعيين كما يكون الانسان اشقر او اسمر... وكما «يولد» الانسان بعينين زرقاوين او سوداوين. وهذا لا يعني ايضاً ان يكون لدى الانسان عزم على مداواة جميع الآلام البشرية بعاطفة توصي بتعميم الحب على البشر او بنزعة انسانية طوباوية او حلم كريم – او باللجوء الى انقلاب فجائي شامل يطرأ على الاوضاع .

ان يكون الانسان شيوعياً، معناه، من الناحية الجوهرية اتخاذ موقف علمي من قضايا المجتمع والانسان .

يبدد **البيان** جميع التأملات الأخرى التي علقت بكلمة « شيوعي » ، وهو لا يحذف الشفقة او الكرم او المثل الاعلى الهادف الى احقاق العدالة . وانما هو يخضعها كلها للفكر العلمي ، ويجعلها منوطة به وتابعة له، ويعتبرها عواطف خيرة، مشروعة، شرط ان يوجهها العقل . من يتفحص الحائق الاجتماعية الانسانية تفحصاً عقلانياً علمياً ، دون اوهام مسبقة ، وافكار مقررة سلفاً ، يصير شيوعياً . وهو يكتسب هذه الصفة وان لم يعرف انه اكتسبها . وعلى العكس ، ذلك الذي يزعم انه شيوعي ، دون ان **يعرف** او دون ان **يحاول معرفة** الاحداث الانسانية الواقعية ، **معرفة عقلانية**، هذا الانسان من الصعب ان يستحق اسم « الشيوعي » .

ليست الشيوعية « وضعاً ، او حالة » ، وانما هي **حركة** .
هكذا قال ماركس قبل ان يضع البيان الشيوعي .

اذن فالشيوعية ليست « حالة » او « وضعاً » للاشياء يمكن اقامته فوراً باصدار قرار او مرسوم.. ولا هي حالة او «وضع» يستطيع عدد معين من الافراد، يتمتعون بارادة او بعزم نضالي اعظم ، ان يفرضوه على الانسانية .

الشيوعية **مرحلة** من مراحل التاريخ . وهذه المرحلة ، هذه الفترة من فترات التاريخ البشري ، يمكن فهمها حين تدرس **حركة** التاريخ ، وعالم الاجتماع (العلمي) يدرك – عندئذ – كيف تتجه هذه الحركة نحو الشيوعية بمثل ضرورة اتجاه الطفل شطر سن الرشد والبلوغ – طبعاً اذا اتيح له مواصلة نموه وتطوره !...

وليس ثمة ما يؤكد لنا ان الشيوعية هي آخر مراحل التاريخ ، واكبر الظن انها ليست الا شكلا مؤقتاً من اشكال النشوء الانساني . ولكنها اسمى درجة يمكن فهمها اليوم ويمكن التنبؤ بها علمياً .

وماركس لا يهتم بما سوف تكون الشيوعية ، من حيث التفاصيل . وهو ينفي عن نفسه صفة النبوة ، وينفي انه راجم بالغيب. والنبوءات العلمية تترك المجال واسعاً للمبادرة، والابتكار والحرية الانسانية. وبتعابير اكثر دقة، نقول ان هذه النبوءات

تدل على ان هذا النصيب من الحرية الانسانية يعظم اكثر فاكثر بالنسبة الى مـا هو عليه اليوم ، وفي ظل الشيوعية يضحى هو السائد ، وعندئذ يبتكر النـــاس في العهد الشيوعي ، نمط حياتهم ، على نحو من الحرية يمكن التنبوء به اليوم في مجموعه ، لا في تفاصيله . مثلا ، نحن نستطيع القول بان وجود الشيوعية يفترض درجة عـالية جداً من سيطرة الانسان على الطبيعة ، ويفترض انتاجاً مادياً هائلا في ضخامته ، يحرر الانسان من الهموم المادية التي كانت قبل ذلك العهد تحد من حرية البشر ، وتقيد حياتهم . ونستطيع القول بان عصر الحرية هذا يفرض ان لا تكون الوسائل التقنية الضخمة وادوات الانتاج وآلاته ملكاً لافراد (ملكية خاصة بافراد) . وبدون هذا الشرط تتحول وسائل الحرية فتضحي وسائل للاستعباد .

وكيف يحيا الناس في ذلك العصر ؟ كيف يحبون ؟ كيف يفكرون ؟ نحن لا نستطيع التنبؤ بذلك ، بما ان ذلك العصر سيكون عهد الحرية !

ولا يكون لتنبؤات سابقة أوانها كهذه ، الا اهمية ثانوية. واذا استطعنا وصف منازل البشر كما ستكون عام ٥٠٠٠ فما فائدة ذلك في اعادة بناء فرنسة الحاضرة التي خربتها الحرب؟..

يدرس **بيان** ١٨٤٨ درساً عقلانياً ، وعلمياً ، **الحركة** التـاريخية كما كانت تبدو عندئذ في **اتجاهاتها** ، وفي الوجهة التي

تتخذها — في واقعها وصيرورتها العميقين — تحت مظاهر الحياة الايديولوجية والسياسية السطحية الصاخبة .

الشيوعي، كل انسان يهتم دائماً بتحديد الفترة الزمنية والنقطة التي يجتازها البشر ، من مجرى التاريخ - ويبذل اقصى جهوده للامساك باقرب حلقة من السلسلة ، وتوجيه الاحداث والبشر في اتجاه الصيرورة والمستقبل والتطور ، ولاي غاية ؟ لادراك هذه المرحلة من مراحـــل التـاريخ التي تعني سن الرشد تبلغه الانسانية . والشيوعي يعمل عـلى ادراك هذه المرحلة المنشودة باقل ما يمكن تضحيته من الآلام والدماء الانسانية .

اما المراحل الماضية من تاريخ البشرية فكانت :

أ — المشاعية البدائيـة ، **والبيان** يتحدث عنهـا حديـ غير مباشر ، واثناء نقد رواسب هذه المشاعية وعوالقها (نقد النزعات الطوباوية الخيالية — البيان الشيوعي ، القسم الثالث ، اولاً ، حرف أ) غير ان ملاحظة اضافها انجلز تذكر هذا العصر المشاعي البدائي ؛ لقد درسه انجلز ، صديق ماركس ومكمل نظريته ، وخصه بابحاث ضافية . وقد اثبت انجلز انـــه كان ثمة عهد من الحياة الاجتماعية السابقة لنشوء الطبقات والسابقة للتاريخ المعروف.

ب — المجتمع المؤسس على الرق ، او المجتمع القديم .

ج — الاقطاعية في مختلف انماطها ومظاهرها . (الاقطاعية الأسيوية ، الاقطاعية الاوروبية) .

د – المجتمع البورجوازي الرأسمالي الذي اجتاز هو ايضا مراحل عدة : مرحلة الرأسمالية التجارية ، ثم مرحلة الرأسمالية المانيفاكتورية ، فالصناعية .

(ولا يتحدث **البيان** عن الرأسمالية **المالية** ، وهي مرحلة ابتدأت فقط بعد وفاة ماركس وانجلز، فعمد لينين الى دراستها مستخدماً طريقتهما . وقد حلل الاعراض التي تعانيها الرأسمالية المحشرجة المنازعة ، ونجد هذا التحليل في كتب لينين ولا سيما كتابه عن **الاستعمار** .)

يبدأ البيان الشيوعي – اذن – بهذا التأكيد الاساسي :

« لم يكن تاريخ كل مجتمع من المجتمعات ، حتى ايامنا هذه، الا تاريخ الصراع بين الطبقات . الانسان الحر ، والانسان المسترَق ، الاشراف ، والعامة ، والبارون والقنّ ، رئيس الطائفة المهنية والعامل – وبكلمة واحدة : المضطهِدون والمضطهَدون، خاضوا جميعاً حرباً متواصلة، بعضهم ضد البعض الآخر ... » وهذا الاضطهاد المستمر ، هذا الصراع (وهو احياناً خفي صامت، واحياناً عنيف بيّن) « كان ينتهي دائماً اما بتطوير المجتمع وتغييره تغييراً ثورياً ، واما بفناء الطبقتين المتنازعتين . »

وفي مطلع النسخة (التي طبعت عام ١٨٨٣) اضاف انجلز هذه الملاحظات الدقيقة التي تعبر تعبيراً كاملاً عن قواعد المادية التاريخية ، يعني قواعد التاريخ وعلم الاجتماع العلمي :

«ان الفكرة الرئيسة التي تهيمن على **البيان الشيوعي** – وهي ان الانتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الناتج عنه ، يكوّنان حتماً ، وفي كل عصر ، قاعدة التاريخ السياسي والفكري لهذا العصر ؛ وان التاريخ بالتالي، كان (منذ انحلال ملكية الارض المشاعية القديمة) تاريخ الصراع بين الطبقات...

ولكن هذا الصراع بلغ اليوم مرحلة لا تستطيع فيها الطبقة المضطهَدة المستثمَرة (البروليتاريا، الطبقة الكادحة) التحرر من الطبقة التي تستثمرها وتضطهدها دون ان تحرر -في الوقت نفسه، والى الابد- المجتمع كله من الاستثمار والاضطهاد ، ومن صراع الطبقات. وهذه الفكرة الرئيسة يرجع الفضل فيها الى ماركس . (ونحن نعرف حقيقة ما يجب التفكير به ازاء رأي انجلز ، وهو الذي يختفي دائماً ، ويمحي تواضعاً ، براً بذكرى صديقه ماركس .)

وكيف يتم هذا التغيير ؟ ان استيلاء الطبقة الكادحة على السلطة السياسية ، وتغيير الدولة نفسها بوصفها اداة سياسية للتطوير الاجتماعي ، امران يؤلفان مرحلة ضرورية من مراحل التاريخ .

وتجدر بنا الاشارة الى ان كثيراً من المؤرخين او الايديولوجيين قد يعترفون بمبدأ صراع الطبقات ؛ ومن وجهة خاصة ، يمكن فهم صراع الطبقات بدرجات تتفاوت وضوحاً ، ويمكن معالجته بروح رجعية او حتى بروح فاشستية . من الممكن فهم التاريخ،

الى درجة معينة من الفهم ، والصراع ضد حركة التاريخ . وليس هذا عملًا عقلانيـاً ولا شك ، ولكنه ممكن التصور ، وممكن الحدوث ، بل انه كثير الحدوث...

ولهذا السبب كتب ماركس الى ويدمير ، عام ١٨٥٢ : «ليس لي الفضل في اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع الحديث. فالمؤرخون البورجوازيون[1] سبقوني فعلًا في عرض النمو التاريخي لصراع الطبقات، والاقتصاديون البورجوازيون سبقوني الى تشريح هذه الطبقات تشريحاً اقتصادياً . ويتلخص الجديد الذي استحدثته ، في اثبات هذه الامور :

اولاً — ان وجود الطبقات لا يرتبط الا ببعض المعارك المحددة ، التاريخية ، المرتبطة هي نفسها بنمو الانتاج .

ثانياً — ان صراع الطبقات يؤدي حتماً الى ديكتاتورية البروليتاريا .

ثالثاً — هذه الديكتاتورية هي نفسها تؤلف فقط مرحلة الانتقال نحو الغاء جميع الطبقات ونحو مجتمع بدون طبقات...»

وبتعبير آخر نقول : حين ينفي بعض الايديولوجيين وجود الطبقات وصراع الطبقات ، فإنهم يتراجعون عما وصل اليه

---

(١) رأينا في صفحات سابقة ان الامر يختص بمؤرخين فرنسيين : تييري ، مينيه ، غيزو ، تييرس ، الذين كانوا ، ولا سيما الآخران ، رجعيين با كمل ما تكون الرجعية...

المؤرخون البورجوازيون انفسهم من حقائق.. انهم يخادعون انفسهم ، بل انهم - بمعنى من المعاني - يكذبون ، وذلك لان اولئك الذين يتسلمون قيادة السياسة البورجوازية يعلمون حق العلم [بوساطة التطبيق العملي] ان الطبقات موجودة ، وان صراع الطبقات موجود ، ومن جهة أخرى ، فهؤلاء المؤرخون الذين يتصفون **بموضوعية نسبية جزئية** ، ليسوا ماركسيين بسبب ذلك ، شأنهم في ذلك شأن رجال الدولة الذين نتحدث عنهم . فالماركسي هو ذلك الذي يعرف هذه الحركة التاريخية ويرضاها مع جميع ما يترتب عليها من نتائج ، - هذه الحركة التي كانت تبدو لماركس بعد حوادث ١٨٤٨ - أنها « تتطلب حتماً ديكتاتورية البروليتاريا . »

ويُستنتج من هذا ان السياسة ليست متعلقة بافكار مجردة ، وليست متعلقة بالمطامح الفردية الا تعلقاً جزئياً سطحياً . ولا يمكن ان تنفصل السياسة عن احداث واقعية اعمق : صراع الطبقات ، والعلاقات الاقتصادية ، وتطور القوى المنتجة .

وفي ما يختص بالحاضر والمستقبل ، تتحدد مراحل المجتمع الحديث ، **اقتصادياً وسياسياً** ، وهذه المراحل هي :

ا - الديموقراطية . سوف نرى في صفحات تالية العلاقات الصحيحة الدقيقة بين الديموقراطية وديكتاتورية البروليتاريا . ولنسارع منذ الآن الى القول بان ماركس يعرّف **ابتداء من البيان الشيوعي ديكتاتورية البروليتاريا فيقول : انها استيلاء**

على الديموقراطية بكسب الديموقواطية من قبل البروليتاريا .
(وكذلك الاستيلاء على القومية) ، فتطور القومية ينقسم — اذن — الى مرحلتين : ففي باديء الامر تأتي الديموقراطية البورجوازية التي تغطي وتقنع وتخفي ، تحت مظاهر كثيرة ، سيطرة البورجوازية على البروليتاريا ، يعني تخفي ديكتاتوريتها الفعلية الواقعية المفروضة على البروليتاريا. ومن ناحية ثانية، فهذا الشكل السياسي يتيح للصراع ان يتسع . ثم ينقلب الوضع : اذ يحدث **تقدم في الديموقراطية ، يغير وجهها ومعناها** : فتضحي «ديموقراطية» للبروليتاريا ، ولمجموع العمال، وتضحي ديكتاتورية على البورجوازية ، التي تضطر الى التخلي عن امتيازاتها الاقتصادية والسياسية ، يعني عن ملكية وسائل الانتاج الضخمة الكبرى ، وعن ادارة الدولة ، بعد ان كانت منظمة وفقاً لحاجات البورجوازية .

ب — **الاشتراكية** ، بعد ان تستتب اوضاع الديموقراطية، وتكتمل (اي بعد اقامة « ديكتاتورية البروليتاريا ») يمكن الانتقال الى الاشتراكية ؛ وتتميز هذه المرحلة تميزاً جوهرياً بنمو عظيم هائل في وسائل الانتاج، ونمو الثروة الاجتماعية ، التي تشرف على ادارتها دولة ديموقراطية ، كأكمل ما تكون الديموقراطية ، تمثل مصالح المجتمع بأكمله . وهي تتميز ايضاً بزوال الطبقات زوالاً تدريجياً ، وتلاشي المنازعات الطبقية (الصراع بين الطبقات) . والدولة الجديدة ، اداة الصراع

الطبقي ، واداة صراع البروليتاريا ضد البورجوازية ، تتلاشى شيئاً فشيئاً بانتصار البروليتاريا ، وتشييد مجتمع بلا طبقات .

ج ـ الشيوعية ـ المؤسسة على وفرة الخيرات والثروات الاجتماعية ، وهي عهد تسوده الحرية، وعصر يزدهر فيه الانسان اكمل ازدهار؛ فهو يحتم، مع زوال الطبقات، زوال الدولة[1]. وتبلغ هذه المرحلة حين يستطيع المجتمع ان يعلن « ان من كل حسب طاقته ، ولكل حسب حاجاته . » في ذلك العهد ، حين تتدفق من كل صوب، منابع الثروة الاجتماعية، ويتخطى الحق البورجوازي الضيق الافق ، (المؤسس على الاعتراف البخيل المقتر، لهذا الفرد او لذاك بحقه في انتاج ما يزال محدود الكمية) وسوف تتضح لنا غاية الوضوح نظرية ماركس عن هذه النقطة المختلفة (وقد سبق عرضها في البيان الشيوعي) سوف تتضح لنا هذه النظرية، فيما بعد، في نصوص مهمة نوردها في مكانها المناسب وزمانها .

يترتب على هذا المخطط نتيجة مهمة ، الى اعلى درجة من الاهمية : الاشتراكية والشيوعية مرحلتان او فترتان **متواليتان** من فترات التاريخ . وبما انه لا يمكن عزل مرحلة تاريخية ،

(١) راجع في موضوع بناء الدولة وتركيبها نصوص « المسألة اليهودية.» والاسرة المقدسة الخ.. لماركس فهي تتكامل مع التعاليم المفصلة في البيان الشيوعي. راجع ايضاً النصوص التي سوف نشير اليها في صفحات تالية ولا سيما الـ « ملاحظات على هامش مناهج الحزب العمالي الالماني » ماركس .

والنظر اليها نظرة نهائية، منفصلة، فهاتان المرحلتان (الاشتراكية والشيوعية) تتداخلان، وتنفذ احداهما الى الاخرى، وكل واحدة منهما هي، من وجهة معينة، مرحلة انتقال شطر مرحلة أخرى...

فليس ثمة اذن اي سبب يبرر الفصل بين هاتين المرحلتين «وان يكون الانسان اشتراكياً» و «لا يكون شيوعياً» او العكس، مفارقة غريبة مضحكة، ومغامرة ايديولوجية عجيبة فاشلة. كما ان هذا تحوير لمعنى هاتين الكلمتين، حدث بعد ماركس، اثناء معارك ايديولوجية سياسية، في ظل الديموقراطية البورجوازية[1]، وان يريد الانسان الشيوعية، دون ان يريد الاشتراكية، وهي - اي الاشتراكية - المرحلة الوسيطة الانتقالية، امر سخيف، غير معقول، مناقض لفكر مؤسس الاشتراكية العلمية، كارل ماركس. ومن الناحية المقابلة: ان يريد الانسان الاشتراكية، دون ان يريد الشيوعية، [وهي المرحلة التالية للاشتراكية، في مراحل التاريخ]، يؤدي ايضاً الى السخف واللامعقولية. هذا ان لم يكن هذا الموقف

(١) هذا الاضطراب والتشويش في فهم معنى الكلمتين يحول دون فهم كثير من الناس لابسط وقائع التاريخ المعاصر. فروسيا السوفياتية ما تزال بعيدة عن ان تكون قد بلغت الشيوعية، فهي ما تزال الآن في مرحلة بناء الاشتراكية، فمن الخطأ - اذن - بل من السخافة النظر الى روسيا السوفياتية بانها بلاد «الشيوعية» او بانها «دولة شيوعية»، والمدهش، بل السخيف اللامعقول ان نرى اشتراكيي البلدان الاخرى ينتقدون روسيا السوفياتية انتقاداً عنيفاً!..

يخفي وراءه نيـة خفية مبيتة : وهي وقف التاريخ عند مرحلة معينة من تطوره ؛ وليس ثمة ، في مؤلفات ماركس ، ونضاله، اي مبرر لهذا الانفصال . والنظرية الماركسية بكاملها تتطلب ، في الحاح شديد ، **وحدة** الطبقة العـاملة ، في نضالها السياسي ، ووحدة الحزب الذي يعبر عن هذا النضال وهذا العمل .

هذا هو في خطوطه الكبرى، المذهب السياسي الذي يعرضه **البيان الشيوعي** ، عرضاً ضمنياً في بعض النقـاط ، ومفصلاً في نقاط اخرى .

ولماذا تجب ازالة سيطرة البورجوازية، بوصفها طبقة ؟ ولماذا يكون ذلك ممكن الحدوث ؟

ذلك ليس فقط لان هذه السيطرة تصبح قاسية ، ساحقة ، اكثر فاكثر . فقد تكون هذه السيطرة ـ في عهد من العهود ـ جبرية ، وقد تكون قدراً محتوماً ترزح فيه جماهير الناس ، ويبهظ كاهل الانسان ، لا يمكن الخلاص منه؛ فثورات العبيد، في العهود القديمـة ، لم تزعزع سيطرة السادة ، زعزعة جدية . وقد « تكون العدالة غير ممكنة التحقيق في هذا العالم... وقد يكون الواقع مؤلماً بطبيعته ، وقد يثبت العلم ان الصراع بين الواقعي والمثالي معضلة لا حل لها (وهذا ما يؤكده الدين ـ مثلاً) ... غير ان هذا البيان الشيوعي» يبين، بتحليل دقيق ، كيف ولمـــاذا يجب ان تتلاشى البورجوازية . وهو يبين ان تغير العـالم ليس رهيناً بمثالية ما ، بل ان هذا التغيير تتطلبه ،

وتتنبــأ به ، بالحاح ، حركة الواقـع ، وصيرورة التاريخ ؛ ان المثاليـة الهادفة الى العـدالة ، ليست الا من **اعراض التاريخ** ؛ وهي لا تبدو الا بوصفهـا شارة او علامة تشير الى ان عهداً جديداً قد بدأ . فاذا تحققت مثـاـالية العدالة هذه ، فسوف يتم تحقيقها في زمنها الملائم ، وساعتها المناسبة ، ولا تتم بقوة المثالية وحدها...

أ – للبورجوازية **رسالة تاريخية .**

فليست القضيـة اذن تنحصر في الحكم على البورجوازية ، اجمالاً ، وتجريدياً ، باسم الاخلاق .

لقد « لعبت البورجوازية في التاريخ دوراً ثورياً اساسيـاً » بقلب renversement جميع العلاقات الاجتماعية. « لقد دمرت العلاقات الاقطاعية ، البطريركية ، الرعائية، الفطرية ، وداستها بالاقدام » فلم تترك من صلة بين الانسان والانسان الا صلة الدفع نقداً. » ويا لها صلة قاسية لا ترحم!... وفي مياه الحساب الاناني الثلجي المجمد، اغرقت النشوة الدينية، والشرف الفروسي، والحساسية البورجوازية الصغيرة.. واحلت محل الحريات العديدة التي اكتسبت بغالي التضحيات ، حرية واحدة ، لا ترحم هي : « حرية التجـارة !.. » لقد قامت البورجوازية باصلاحات ثورية دائمة في « ادوات العمل » وهذا يعنى « في العلاقات الاجتماعية » ولانهـا قامت بتطوير القوى المنتجة ، استطـاعت قلب شروط الحيـاة الانسانية القديمة . « لقد اوجدت البورجوازية ، منذ

انتصارها – الذي لم يمض عليه اكثر من قرن – قوى منتجة تفوق بالعدد والضخامة ما اوجدته جميع الاجيال السابقة مجتمعة.»
لقد اكتسحت العالم اجمع، وحملت جميع الشعوب، حتى اكثرها تأخراً، على التجارة، والصناعة، والرأسمالية، – وخلقت السوق العالمية.

هذا التطور الاقتصادي حتم وقوع انقلابات سياسية: «لقد تم ايجاد وسائل الانتاج والتبادل (وعلى قاعدتها شيدت البورجوازية) في داخل المجتمع الاقطاعي؛ وعند درجة معينة من نمو وسائل الانتاج والتبادل هذه، كفَّت الشروط التي كان المجتمع الاقطاعي يقوم في داخلها بالانتاج والتبادل، وكف التنظيم الاقطاعي للزراعة والمانيفاكتورة – وبكلمة واحدة: النظام الاقطاعي في الملكية – كفت هذه كلها عن ان تطابق القوى المنتجة وهي في اوج نموها وتطورها. فقد كانت تلك الشروط تعيق الانتاج وتعرقله بدلاً من ان تساعد عليه. وكان يتوجب تحطيم هذه القيود. فحطمت.» وعوضاً عنها نشأت المزاحمة الحرة، مع تكوين اجتماعي وسياسي مطابق لها: «لقد توج العمل الثوري البورجوازي، في الحقل الاقتصادي، بالثورة السياسية» (ثورة ١٧٨٩ في فرنسة).

ب – غير ان «الرسالة التاريخية للبورجوازية انتهت.» «فالبورجوازية تشبه الساحر الذي غدا لا يقدر على كبح جماح القوى الجنهمية التي اطلقها.» فأزمات تزايد الانتاج Surprodu-

ction او فيض الانتاج عن الحـــاجة ، وهي بدعة جديدة في التاريخ ، بعودتها دورياً ، كانت تطرح اكثر فأكثر ، على بساط البحث ، قضية وجود المجتمع البورجوازي . »

وقد اضحت القوى المنتجة قوية جداً بالنسبة الى هذا المجتمع، الذي اصبحت علاقاته الاجتماعية (يعني علاقات الملكية فيه) بدورها ، عراقيل في وجه النمو والتطور . « ان الاسلحة التي استخدمتها البورجوازية لدحر الاقطـــاعية، تُصَوَّب اليوم نحو البورجوازية نفسها » وقد انتجت البورجوازية ايضاً الاشخاص الذين يستخدمون هذه الاسلحة : وهؤلاء هم البروليتاريون « طبقة العمال الكادحين المعـاصرين ، الذين لا يعيشون الا اذا وجدوا عملا ولا يجدونه الا اذا كان يزيد في رأس المال. » وهم مضطرون الى بيع انفسهم يومـــاً فيومـاً . وهم يخضعون لجميع خضات السوق، وهم مستثمَرون اكثر فأكثر ، محمولون على ان لا يكونوا اكثر من ملاحق للآلات . وهم لا يتلقون ثمناً لعملهم الا كلفة انتاج هذه البضاعة – يعني عملهم– يعني تماماً ما يكاد يكفي للمحافظة على بقائهم .

« ولكن الصنـاعة بنموهـا ، تؤدي الى تضخيم عدد العمال الكادحـين » البروليتـاريين ، وهي **تمركزهم** ، يعني تجمعهم في مراكز ، في تكتلات جماهيرية تزداد في ضخامتهـــا اكثر فأكثر . وهم يزدادون قوة ، ويزدادون وعياً لقوتهم ، في حين ان مجموع الطبقة الكادحة يبلغ درجة من الوحدة والتجـــانس،

تتعاظم اكثر فأكثر ، بسبب ان استخدام الآلة استخداماً عاماً ، يساوي بين شروط الحياة . « والطبقة العاملة تنظم نفسها في طبقة ، اذن : في حزب سياسي . »

ويميل الصراع – اذن – في المجتمع البورجوازي الى ان يكون صراعاً دائماً : فيعيش المجتمع في حالة استعداد للحرب ، دائماً : مصادمات بين البورجوازية والاقطاعيين – بين عناصر البورجوازية في بلد واحد – ومصادمات بين بورجوازيات بلدان مختلفة ، ومصادمات بين البورجوازية والعمال ، وهذه المصادمات كلها تتشابك ، وتتضاعف ، وتزداد عمقاً وخطورة . وخلال هذه المعارك المتعددة ، وفيها تلعب البروليتاريا دوراً – ودوراً تتعاظم اهميته اكثر فأكثر – تستعمل البروليتاريا ثقافتها السياسية وتربيتها ، وينحل المجتمع القديم ، ويصيب اجزاءه التفكك . « فالطبقة العاملة هي وحدها الطبقة الثورية حقاً » ان شروط المجتمع القديم الغيت فعلاً بوساطة شروط وجود البروليتاريا . والبروليتاريا هي **النفي** الواقعي لشروط وجود المجتمع القديم . فهي لا تستطيع اذن ان تؤدي الى طبقة مسيطرة جديدة . » « لا يستطيع العمال الكادحون الاستيلاء على القوى المنتجة الاجتماعية الا بالغاء نمط التملك الذي كان من خصائص هذه، وبالتالي، الغاء كل انماط التملك التي كانت سائدة حتى ايامنا هذه... »

ومن بدهي ، في الخلاصة ، ان البورجوازية تصبح عاجزة

اكثر فأكثر ، عن ان تحتفظ بمركزها بوصفها طبقة مسيطرة ، وان تفرض على المجتمع شروط معيشتها الخاصة ، قانوناً حاسماً ، نهائياً . « انها لا تستطيع الاستمرار في السيطرة ، وذلك لانها لم تبق قادرة على ان تؤمن لعبدها نفسه معيشة تتلاءم وعبوديته .. »

ووجود البورجوازية يضحي غير متلائم مع وجود المجتمع ، « ان الشرط الاساسي لوجود الطبقة البورجوازية وتفوقها هو تكديس الثروة في ايدي الخاصة ، وتكوّن رأس المال ، وازدياده » .

والشرط في وجود راس المال هو العمل الاجير ، او العمل بالاجر . وهذا العمل بالاجر يرتكز على مزاحمة العمال فيما بينهم . وتقدُّم الصناعة يقيم مقام انعزال العمال ، الناتج عن مزاحمة بعضهم لبعض ، اتحاداً ثورياً بوساطة التجمع والتعاضد . وهكذا ينسف نمو الصناعة الضخمة ، تحت قدمي البورجوازية ، الارض التي اقامت عليها نظام انتاجها ، واسباب تملكها . والبورجوازية تنتج – او تخلق – حفّاري قبرها ، قبل انتاجها اي شيء آخر !. «وسقوطها وانتصار البروليتاريا امران محتومان ، آتيان ، يتساويان في الحتمية . »

* * *

في هذه الحال ، ماذا يفعل الشيوعيون (اي : ماذا يفعل اولئك الذين يفهمون التاريخ ويريدون دفع الحركة التاريخية حتى نهايتها ...) ؟

ان افكارهم السياسية لا ترتكز البتة على افكار ، ومبادىء مبتكرة ، او مكتشفة من قبل هذا المصلح او ذاك... « فأهدافهم تُعَدُّ هي التعبير عن الحركة التاريخية التي تجري تحت اعيننا ، وعلى مشهد منا ، والتي تهدف الى تعديل علاقات الملكية ـ وهذه العلاقات تهدم كل يوم ، الملكية المكتسبة بالتوفير ، والعمل ، والاستحقاق : ملكية الفلاح الصغير ، والبورجوازي الصغير . وكما ان الثورة الفرنسية مثلاً ، الغت الملكية الاقطاعية لمصلحة الملكية البورجوازية ، كذلك من مميزات الشيوعية انها تلغي **الملكية البورجوازية** ، وهذه الملكية انما هي « آخر واكمل تعبير عن نمط الانتاج والتملك المؤسس على المنازعات بين الطبقات، وعلى استثمار الناس بعضهم لبعض . » يعني على الملكية الخاصة . ان البورجوازية المؤسسة على الملكية الخاصة تلغي هذه الملكية بالنسبة الى اكثرية افراد المجتمع الذي تسيطر عليه ! (يعني : تحرمهم اياها وتستأثر بها)

في هذا الاتجاه ، تسير حركة التاريخ ؛ فكيف يؤخذ على الشيوعيين ارادتهم في الغاء ما يسير فعلاً ، في طريق الالغاء ؟

تزعم البورجوازية ان الشيوعية تريد الغاء اساس الحرية ، والنشاطية الحيوية والاستقلال الفردي . ولكن الواقع « ان رأس المال ، في المجتمع البورجوازي ، هو المستقل ، الشخصي ، اما الفرد الذي يعمل ، فهو خاضع ، تابع ، محروم شخصيته . » (وهذه الصيغة الرائعة تدخل في **البيان الشيوعي** نظرية الانحراف

عن الجوهر او الانحطاط L'aliénation ، ونظرية الوثنية الاجتزائية fétichisme .

« ان الغاء حالة كهذه هو الذي تطعن فيه البورجوازية وتسمّيه الغاء الفردية والحرية... والامر يتعلق فعلاً بالغاء الفردية البورجوازية والاستقلال البورجوازي والحرية البورجوازية . »

وما ان يكف العمل عن امكان تحويله الى رأس مال ، الى مال ، الى ريع عقاري ، وباختصار ، الى طاقة اجتماعية يمكن حصرها وحكرها ؛ وبكلمة أخصر : ما ان تكف الملكية عن استطاعتها التحول الى ملكية بورجوازية، حتى يعلن بان الفرق قد الغي!... وهكذا يُعترف بأنه عند الحديث عن الفرد، لا يُقصد غير الملاّك !.. غير « ان الشيوعية لا تجرد احداً من قدرته على تملك المنتوجات الاجتماعية . وهي لا تجرده الا من قدرته على استعباد عمل الآخرين ، واستثماره بوساطة هذا التملك . » . ان مفهوم البورجوازية المغرض يدعوها الى اعلان العلاقات الاجتماعية المتحولة ، قوانين ازلية خالدة للطبيعة والعقل ، رغم ان تلك العلاقات ان هي الا متحولة ، انتقالية ، تاريخية ، منبثقة عن نمط من التملك والانتاج، عابر ، متحول. « يدلنا التاريخ على ان الافكار والمؤسسات تتغير بتغير شروط المعيشة . فالفرد والاسرة ، حسب مفهوميهما عند البورجوازية، وكذلك الامة، والدولة، تتغير كلها بسبب النمو الاقتصادي والاجتماعي، وسيطرة الطبقة العاملة ، سيطرة سياسية ، والغاء الطبقات . »

ان اول مرحلة من مراحل الحركة التي يشترك فيها الشيوعيون اشتراكاً واعياً ، هي الاستيلاء على الديموقراطية (كسب الديموقراطية) والاستيلاء على الوطن من قِبَل البروليتاريا. والبروليتاريا تفيد من تفوقها هذا « لانتزاع رأس المال كله من البورجوازية ، وتركيز وسائل الانتاج كلها في ايدي الدولة - يعني في ايدي الطبقة العاملة المنظمة في طبقة حاكمة - لزيادة كمية القوى المنتجة ، باقصى سرعة ممكنة . ولا يمكن ان يتم هذا في البدء ، الا بخرق قسري لحق التملك البورجوازي ولنظام الانتاج البورجوازي ، يعني باتخاذ تدابير قد تبدو قاسية ، من الناحية الاقتصادية ، ولكنها تتخطى ذاتها بذاتها ، خلال حركة التطور الاقتصادي ، وهذه التدابير ضرورية كوسائل ، وهي التي تقلب نمط الانتاج بكامله . »

ويذكر **البيان الشيوعي** منجملة هذه التدابير الانتقالية (نحو الاشتراكية فالشيوعية) : الغاء الريع العقاري (الريع الذي يتلقاه ملاكو الارض دون ان يعملوا فيها) وفرض الضريبة التصاعدية على الارث الرأسمالي التي قد تصل الى حد الغاء هذا الارث...

- مصادرة اموال المهاجرين والمتمردين (على النظام الجديد).

- العمل لتمركز القرض ، ووسائل النقل ، والانتاج الصناعي الضخم ، في يد الدولة الجديدة .

- العمل الاجباري للجميع (« الذي لا يعمل لا يأكل»)

– دعم الاقتصاد الزراعي بجميع الوسائل الهادفة الى تطويره وانمائه والغاء التباعد بين المدينة والريف .

– تربية جميع الاولاد تربية مجانية عـامة ، بالغـــاء شغل الاولاد في المصـانع ، ولكن يصار الى تربيتهم بادماج التربية والتثقيف النظريين ، بالتطبيق العملي والتكنيكي .

بهذه التدابير الانتقالية نبلغ مرحلة جديدة من مراحل المجتمع ، فيضحي المجتمع تشاركاً حراً ؛ والنمو الحر لكل انسان يضحي الشرط لنمو الجميع نمواً حراً .

« وبعد ان تزول المنازعات بين الطبقات زوالاً نهائيـــاً ، خلال التطور ، وبعد ان يتركز الانتاج كله في ايدي الافراد المتشاركين ، عندئذ تفقد السلطة العامة طابعها السياسي . والدولة ، وهي سلطة الطبقة المنظمة ، تزول بزوال الطبقـات . وعندئذ يكون عهد الشيوعية ، بكل ما تعني الكلمة .

وعلى الشيوعيين ان يُخضعوا لنقد دائم الايديولوجيات الناشئة عن وعي معين للمسألة التي يطرحهـا التاريخ ، ولكن التي تميل الى تحويل حركة التاريخ عن مجراها الصحيح ، او وقفها ، او ارجاعها الى الوراء... وعليهم بخاصة ، ان يُخضعوا لنقد دائم جميع النظريات الطوباوية الخيالية ، وجميع اشكال «الاشتراكية» البورجوازية الصغيرة والرجعية (التي اخذت تفيض فيضاً غزيراً وتتكاثر في اوروبة منذ عام ١٨٤٨) والشيوعيون ، بتركيزهم

عملهم ونضالهم في تحليل علمي للتاريخ ، يكشفون عن كل ما يكوّن اصالة الطبقة العاملة ، واستقلالها التاريخي ، والحركة السياسية الخاصة بها . والشيوعيون ، في علاقاتهم بالاحزاب الاخرى ، التي تنتسب الى هذه الطبقة العاملة، يضعون في المرتبة الاولى المصالح العامة ، والعليا ، للطبقة العاملة بمجموعها .

«وهم يمثلون دائماً ، وفي كل مكان، مصالح الحركة الاجمالية، الكلية . » ويترتب على هذا ان الشيوعيين ، رغم تميزهم الواضح عن سائر الاحزاب المعارضة ، الاخرى ، لا ينفصلون عن هذه الاحزاب انفصالاً نهائياً ، وهم يناضلون ، في وقت واحد ، في سبيل المصالح المباشرة للطبقة العاملة، وفي سبيل مستقبل الحركة؛ وهم يتعمقون في البحث عن افضل الوسائل لبلوغ هذه الاهداف، في كل حالة ، وفي كل وضع ، وفي كل بلد . وهم يهدفون الى ان يحشدوا ، حول طليعة البروليتاريا والجماهير العمالية الكادحة نفسها (المستفيقة شيئاً فشيئاً على الوعي السياسي) اوسع الجماهير، بما فيها من الاجزاء التي تنفصل عن الطبقة السائدة لانها ، [هذه الاجزاء] ادركت ان **البروليتاريا تحمل في ذاتها المستقبل.** (ومن هذه الاجزاء ، نخص بالذكر المفكرين البورجوازيين الذين استطاعوا ان يفهموا ـ نظرياً ـ مجموع الحركة التاريخية).

ونوجز بأن الشيوعيين يدعمون في جميع البلدان كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم . « وفي جميع هذه الحركات يضعون ، قبل كل شيء، مسألة المُلكية ـ مهما كان

من درجة النمو الذي بلغته) يضعون مسألة الملكية بوصفها مسألة اساسية للحركة . واخيراً فالشيوعيون يعملون على اتحاد الاحزاب الديموقراطية وتفاهمها في جميع البلدان .

بعد ان بينا هذه الامور ، ماذا ينبغي لنا ان نطلب في البيان الشيوعي الصادر سنة ١٨٤٨ ؟

علينا ان لا نبحث فيه عن مذهب مكمّل ، ومبادىء او قواعد ليس علينا الا استخلاص النتائج منها ، ويمكن تطبيقها آلياً وتلقائياً على جميع المناسبات التاريخية والظروف .

يجب قراءة مؤلفات ماركس ، بروح ماركسية ، يعني بروح انسان لا يوجد في نظره حقائق مطلقة خالدة نهائية ـ بل تحليلات موقتة للحركة التاريخية ، تختلف في درجة عمقها .

جاء **البيان الشيوعي** تعبيراً عميقاً عن الحركة التاريخية ، وقد ابرز منها الاتجاه والجوهر : السير نحو الشيوعية .

بيّن ماركس ، واقام الدليل ، بصيغ دقيقة متينة ، على وقائع تاريخية في اعلى درجة من الاهمية : البروليتاريا، وكيانها الاجتماعي ، ورسالتها التاريخية ، واستقلالها السياسي ، وبالتالي ، امكان سياسة مؤسسة على هذا الاستقلال ازاء البورجوازية الحاكمة .

يجب ان لا نبحث في **البيان الشيوعي** عن نبوءات مسبقة لما سوف تكون الشيوعية ـ ولا عن صيغ تحدد مسبقاً ظروف

الثورة الجديدة وشروطها .

فالبيان الشيوعي ادرك وعيّن الحركة في جوهرها العميق ، ولكن في خضوعها للمناسبات التاريخية ، كما كانت عام ١٨٤٨ - وكذلك في نسبتها الى الفكر الماركسي ، في ذلك العهد ، في تلك الدرجة من درجات تطوره .

وهذا يعني انه لا يجدر بنا ان نطلب في **البيان الشيوعي** ما ليس فيه ، وما لا يمكن ان يكون فيه . **وهذا يعني ايضاً انه** لا يجدر بنا البتة ان نهمل القاء الاضواء على نصوص البيان الشيوعي بوساطة **نصوص ماركس وانجلز التي تلت البيان الشيوعي** .

ولا يمكن اطلاقاً تعريف الماركسية ، (وهي مذهب الحركة ، والمذهب الذي هو في حركة) تعريفاً سكونياً ستاتيكياً . ولكن **هذا لا يعني ان بوسعنا تأويل الماركسية كما** نشاء ، و«مراجعة» الشيء الجوهري والمكتسب فيها ، وتعديله ، وتحويره ، على نحو تحكمي كيفي ، وانما **يجب ادراك هذا** الجوهري المكتسب ، **في حالة حركته** .

يدلنا **البيان الشيوعي** على عناصر الاستراتيجية الوسيطة والانتقالية ، والأحلاف الممكنة ، والاعداء السياسيين ، والايديولوجيين .

والبيان الشيوعي لا يتضمن كلمتي «ديكتاتورية البروليتاريا»

فهذا التعبير يظهر اول مرة في رسالة وجهها ماركس الى ويدمير ، سبقت الاشارة اليها . وهو نتيجة لتجارب السنوات الثورية بين ١٨٤٨ – ١٨٥٠ . لقد ادرك ماركس ان الحركة المنشودة المنتظرة يجب ان تتضمن ، او بتعبير اصح ، كان يجب ان تتضمن انشطاراً ثورياً اعمق مما قدر : وذلك بسبب جبن الطبقات غير العمالية ، او خيانتها، او سلبيتها ، وكذلك بسبب القسوة التي اعتمدتها البورجوازية الفرنسية المنتصرة على الملكية ، ازاء حلفائها العماليين في حزيران ١٨٤٨ .

وسوف نرى ان كومونة باريس جاءت، فيما بعد ، بعناصر جديدة، وتفاصيل دقيقة جديدة ، أضيفت الى نظرية ديكتاتورية البروليتاريا ، وأكملتها . ولكن هذا لا يعني ان هذه النظرية صحيحة اطلاقاً في جميع الازمنة ، وجميع الامكنة .

لا يحلل **البيان الشيوعي** « الازمة الثورية » تحليلاً كاملاً . وهذا المفهوم نفسه ، (المفهوم عن الازمة الثورية) بقي غامضاً، وكان ما يزال يتضمن ، بشيء من التشويش والاضطراب ، عناصر مختلفة ، سبق ورودها في كتابات ماركسية سابقة ، وهذه العناصر هي :

أ – مفهوم **ازمة اقتصادية** تطرح وجود المجتمع البورجوازي على بساط البحث .

ب – مفهوم **ازمة اجتماعية** تأتي نتيجة لتمركز اقتصادي

متزايد ، وفقر يصيب الطبقـة العـاملة ثم يزداد حتى يصبح فقراً شاملاً .

ج – مفهوم **ازمة سياسية** تتيح قلب المجتمع البورجوازي.
والعلاقات بين مختلف هذه العناصر لا تتكشف عن كل تعقيدها الا في ضوء الاحداث الواقعية، وكذلك بفضل تعميق ماركس لنظريته .

ولم يكن النمو التطوري الثوري قد ظهر بعد ، في عهد « البيان الشيوعي » ، وفي البيـــان الشيوعي ، بجميع مسائله وقضاياه ، وبكل شموله واتساعه ؛ ويبدو لنا ان ماركس كان يظن، رغم اعتقاده بأن مجيء الشيوعية معلق على شروط متعددة، ولا يمكن ان يكون الا مؤدّى مرحلة تاريخية ونتيجة لها – على الرغم من هـذا ، يبدو لنـــا ان ماركس كان يظن ان مجيء الشيوعية غدا وشيك الوقوع . وكان يتصوز ، بعد استيلاء البروليتـــاريا على السلطة السياسية ، اثر ازمة اوروبية ، سيراً متواصلاً نحو الشيوعية ، دون فترات توقف ، ودون فترات تراجع مؤقتة . وكان يبدو انه ما يزال يتصور عهداً من الثورة الدائمة ، تنحصر ، باديء الامر ، في ثورة سياسية ، ثم في تطوير اجتماعي سريع، بوساطة الدولة السياسية التي استُولي عليها بتلك الثورة .

ودراسة الرأسمالية ، التي عادت الى انقاذ موقفها اثر زلازل ١٨٤٧ ، هذه الدراسة هي وحدها التي اتاحت لماركس تعميق

هذه المفاهيم الاساسية وابرازهـــا . وسوف يطوّر ، بخاصة ، تحليل الازمة الاقتصادية (في كتاب « رأس المال ») ، والخطة العـــامة التي وردت في **البيان الشيوعي** ، والعنصر الجوهري الاساسي في هذا **البيان** سوف يحتفظ ماركس بهما ، امـــا التأكيدات التي يتضمنها في اطاره العام ، فسوف يعيد ماركس النظر فيها ويعمقها (ولكنه لن يتخلى عنها ليأتي بسواها كما يزعم البعض !...)

يجب ان لا ننسى - اذن - ونحن نقرأ البيان **الشيوعى** ، انه سبق كتاب « نقد الاقتصـــاد السياسي » بعشر سنوات ، وسبق اول جزء من اجزاء « رأس المال » خمسة عشر عامـاً . وهذا المؤلف الاخير « رأس المـال » هو وحـده الذي يتضمن تحليل الرأسمالية والمعرفة العلمية بها : بتركيبها ، وبنائهـــا ، وتكوينها ، وحركتها الداخلية ، ووضع الطبقة الكادحة وممكناتها السياسية .

٢ - ١٨٤٨ - ١٨٥٠

وصل ماركس الى باريس (في آذار ١٨٤٨) والعـــاصمة الفرنسية تسبح في جو من الرومـــانطيقية الثورية ، والنشوة المخمورة . وكان اللاجئون الالمان ، بخاصة ، منصرفين الى تنظيم « كتيبة » ثورية محاربة ، وكانوا يتخيلون انه عند اول اطلالة

من الكتيبة الثورية على المانية ، تهبُّ المانية هبَّة رجل واحد ، وتثور على مضطهديها .

وعارض ماركس هذه المحاولة معارضة مبنية على العقل والرصانة ، والجد . كان يرى انه لا يجوز اللعب بالثورة ، فالحركات الرومانطيقية الخيالية ، والتصرفات المتحمسة الجوفاء ، والتظاهر بالبطولة ، تتدخل في الموقف السياسي تدخلًا تحكمياً مشوشاً ، مرتجلًا، فتشوشه، وتشله ، لانها تفسح المجال لمؤامرات العدو . واستجاب الشيوعيون لنداء ماركس ، فلم ينضموا الى تلك « الكتيبة » الشهيرة : لقد ناشدهم ماركس البقاء في باريس والانضمام الى المناضلين في المعركة القادمة ، وكان يرى انها محتومة الوقوع. واثار تعقله الرصين الرجال الذين كانوا مدفوعين بحماستهم واوهامهم . فوصموه « بالخيانة » ، « والجبن »!... واضطر ماركس الى قطع علاقاته بالمنظمات الديموقراطية الالمانية ، محافظاً على اوثق الصلات بالديموقراطيين الفرنسيين الاكثر تقدمية (لودري – رولان...)

وفي اول نيسان ، غادرت « الكتيبة » باريس ، في ابهة فخمة ، ولكن دون ان يكون لها هدف معين ، او منهاج . وعند اول لقاء مع جيوش الامراء الالمان، أُبيدت الكتيبة حتى آخر رجل فيها...

وفي اليوم نفسه ، غادر باريس ايضاً ، معظم اعضاء « رابطة

الشيوعيين » ، قاصدين المانية ، وغادروا العاصمة الفرنسية فرداً فرداً ، دون ضجة ، ولكنهم كانوا يضعون نصب اعينهم هدفاً واضحاً وبرنامجاً معيناً: إذكاء النضال الثوري في الشعب الالماني، وتوجيهه...

عاد ماركس الى مدينة كولونيا ، واتجه انجلز نحو الوبرتال، وآخرون نزلوا في برلين ، وبريسلو ، وماياتس . واينما حلوا كانوا يحاولون ان يبثوا روحاً جديدة في المنظمات العمالية القائمة، او ان ينشئوا منظمات جديدة؛ وكانوا يُعملون خصوصاً للتوحيد بين الديموقراطيين والاشتراكيين والشيوعيين ضد العدو المشترك: سلطة الامراء ، الاقطاعية والعسكرية .

وكان الموقف قد اضحى بالغ التشويش والتعقيد ، وشديد الخطورة بسبب العمل الجنوني الذي قامت به « الكتيبة ـ الثورية»... وعرف الرجعيون كيف يستغلون هذا العمل لبث موجة من الذعر . فكان الالمان سكان الجنوب والغرب يتصورون ان المصيبة حلت بهم فعلاً ، وان بلادهم اجتيحت ، وان مدنهم لن تلبث ان تحرق ، وقراهم لن تلبث ان يجتاحها الجمهوريون . وظلت كلمة الجمهورية زمناً لا توقظ في النفوس الا شعوراً من الرهبة والرعب ، بعد ان استثارت في مطلع عام ١٨٤٨ حماسة كبرى .

فالجمهوريون ، والاشتراكيون ، والشيوعيون ، [وقد خلط

الرأي العـــام بينهم] اعتُبروا اعداء البلاد والشعب ، وكانت الانبـــاء الكاذبة المختلقة ، عن بربرية الجمهوريين ووحشيتهم، تملأ الصحف الرجعية ، وتجد الصدى حتى في اوساط البروليتاريا . هكذا كانت عواقب خطأ سياسي ، سببته نزعة رومنطيقية ثورية خيالية ، واوهام قوم بسلاء حقـاً، ولكن لا مذهب لهم ولا منهج ، ولا طريقة .

انصرف ماركس – مع مراسليه في كولونيا ، غوتشالك وويليش – الى العمل بقوة وعزم لاصلاح الموقف .

واتسعت «الرابطة العمالية» التي اسسها غوتشالك، واكتسبت نفوذاً عظيماً . ففي نهاية حزيران كانت الرابطة تعد ثمانية آلاف عضو . وتأثر الرجعيون في كولونيـــا بهذه القوة ، وشرعت صحافتهم تحمل حملة عنيفة : « انقطع العـــمال عن العمل ، وهم لاهون بعقد الاجتماعات ، وهم اليوم يضربون نساءهم ، ويوردون اطفالهم موارد الهلاك والجوع ... »

« وفي الليل ... يستعرض غوتشالك مناورات جيوش من العمال، مسلحين ببنادق مَدّهم بها عبد القادر[1]» (يحسن التذكير دائماً بحماقة الرجعيين ، وكيف يبتكرون روايات غير معقولة ، يتقبلها انصارهم بهذه السذاجة المطبقة التي كانت دائـماً خطأً مميزاً لعقلية اولئك الذين تخطـــاهم التـــاريخ . وهذه السذاجة ،

---

(١) الامير عبد القادر الجزائري !...

وسهولة التصديق ، سرعان ما تنقلبان الى وحشية ، فالحماقة والاذية ضرورتان متلازمتان افضل التلازم!... ولكن علينا ان نفهم ايضاً ان انعزالية اليسار او اليسارية المتطرفة le gauchisme تفسح المجال لتُطعَن بجميع هذه الافتراءات!...)

وسرعان ما نشب النزاع بين غوتشالك وماركس . وكان الاول يريد ان تتبنى الرابطة العمالية اهدافاً سياسية ، ذات شيوعية فورية ، واتجاهاً بروليتارياً محضاً . وكان يرى ان تأييد مطالب العمال جميعها دون استثناء لايُعَدُّ امراً كافياً. وكان يقترح مقاطعة الانتخابات المنوي اجراؤها في فرانكفورت. وغوتشالك باقتراحه مقاطعة الانتخابات ، كان منسجماً مع نفسه اكمل الانسجام ، فقد كان يرفض دائماً كل تعاون ، بل كل احتكاك مع المنظمات الديموقراطية، ولم يكن يأبه قليلا او كثيراً لضعف الطبقة العاملة في المانية .

وبكلمة موجزة نقول ان غوتشالك كان « انعزالياً يسارياً » gauchiste . وكان ماركس يناهض ، بخاصة ، مقاطعة الانتخابات ، ويرى في هذه المقاطعة موقفاً **على قدر كبير من الثورية في الظاهر** وعلى قدر كبير من **الرجعية في الواقع** .

وكانت هذه المقاطعة للانتخابات تترك المجال مفتوحاً امام المعتدلين بل والرجعيين ليفيدوا وحدهم اكبر الفائدة من الغليان السياسي المشروع زمن الانتخابات . وكان غوتشالك يفصل البروليتاريا عن البورجوازية التحررية (الليبرالية) وعن

البورجوازيين الديموقراطيين الصغار ، بل ثمة اكثر من هذا : كان يفصل الطليعة العمالية عن جماهير العمال ، وهكذا كان يدفع بهذه الطليعة الى الاخفاق .

لذا عمد ماركس بعد قليل الى تأسيس «الرابطة الديموقراطية» في كولونيا ، وقد نجحت في ايصال نائب ديموقراطي تقدمي الى البرلمان . ولما اضحى لماركس منظمة سياسية ، وصحيفة تنطق بلسان المنظمة (صحيفة النيو زينخ زايتونج التي صدر العدد الاول منهـا في أول حزيران ١٨٤٨) اعلن حل « رابطة الشيوعيين » .

واعلنت الرابطة العمالية ، ورئيسها غوتشالك ، الحملة على الرابطة الديموقراطية التي كان ماركس موجهها . وسرعان ما وجد غوتشالك الذريعة لهذه الحملة : فالمطبعة التي تطبع فيها الرينخ زايتونج (ولم يكن لماركس بها ادنى علاقة) لم تكن تدفع اجور عمالها وفقاً لما تطالب به « الرابطة العمالية » فاصبح ماركس في نظر صحيفة غوتشالك « مضطهِداً للطبقة العاملة وخائناً لقضية الشعب »...

ورغم ان انجلز وماركس بذلا آخر فلس لديهما لاصدار « الرينخ زايتونج » فهما يُتهمان بأنهما تابعان لارستقراطية المال!...

كانت صحيفة ماركس تدعى « لسان الديموقراطية » .

ولاجتناب قطع الصلة بالليبراليين ، كان ماركس وانجلز يجتنبان توكيد المطالب التي هي مطالب عمالية بروليتارية محضاً . «يجب على البروليتاريا انتسير مع الجيش الديموقراطي الكبير، على الطرف الاقصى من الجناح الايسر ، ولكنها يجب ان تحرص على عدم قطع الصلة بسواد الجيش . وما دام الباستيل الالماني قائماً ، فعلى الديموقراطيين ان يظلوا متحدين. وليس للبروليتاريا الحق في الانعزال ، بل عليها ، مهما بدا هذا قاسياً ، ان ترفض بشدة ، كل ما من شأنه فصلها عن حلفائها . »

هكذا كان يقول ماركس ، اثر تحليل دقيق للموقف في المانية. اذن فقد كان على البروليتاريا ان تظل حليفة البورجوازية الليبرالية، ما دامت هذه تلعب دوراً ثورياً ضد الاقطاعيين. فكان وضع العمال الالمان، في هذا الصدد، يختلف -في نظر ماركس- اكبر الاختلاف عن وضع العمال الفرنسيين -ذلك لان الباستيل الفرنسي قد سقط !...

فكان ماركس في صحيفته يناصر، من ناحية، ثورة حزيران الباريسية ، ومن ناحية ثانية يتجنب في المانية كل عمل ، وكل شعار من شأنهما ان يؤديا الى انعزال البروليتاريا الالمانية . على ان ماركس لم يكن يترك اية مناسبة تمر دون ان يرفع من مستوى الوعي عند العمال الالمان ، لكي يصيروا قادرين « على ان يصوّبوا يوماً نحو البورجوازية الشروط السياسية التي تقيمها عند استيلائها على الحكم . »

كان ماركس يمهد السبيل، داخل الأطر العامة للستراتيجية المعينة في **البيان الشيوعي** ، اقول ، كان ماركس يمهد السبيل لخطة tactique ، كثيرة المرونة ، بالغة التركيب والتعقد ، مؤسسة على تقدير صحيح للقوى الراهنة (التي هي قيد العمل والحركة) وتقدير صحيح لمختلف جوانب الموقف . وكثيراً ما تحتم على الاذهان المذهبية الجامدة dogmatiques ، التي لا تنظر الا من وجهة معينة واحدة ، العاجزة عن التقاط **الحركة** ، كثيراً ما تحتم على هذه الاذهان اتهام الخطة الماركسية بعدم الانسجام وعدم الصدق مع ذاتها ، واتهامها بالازدواجية ، ومن السهل ان نرى انه ليس ثمة اكثر تناسقاً وانسجاماً ووضوحاً ووحدة من الخطة الماركسية ، وذلك بشرط واحد: يجب ان نعترف للعقل البشري، بوظيفته في ادراك **الحركة**، وجوانب الواقع المتناقضة، لا ان نعترف له فقط بوظيفته في تأكيد عنيد ، وترديد اعمى لمبادىء مجردة ؛ فمبادىء السياسة والستراتيجية التي استخدمها حتى ذلك العهد عظماء رجال السياسة استخداماً لاواعياً، اضحت في يد ماركس، مبادىء **واعية ملموسة** : وهذه المبادىء تسمو الى مستوى رفيع .

وتكف السياسة ، بخاصة ، عن ان تكون «مكيافيلية» لتصبح علماً مؤسساً على « علم الاجتماع » (علم الاقتصاد ، وتحليل القوى الاجتماعية) وان كان ماركس يساير البورجوازيين الليبراليين، فانه ما كان يعفيهم من الانتقادات التي كانوا في اشد

الحاجة اليهـــا . ومنذ أيلول ١٨٤٨ كتب انجلز ان الثورة الديموقراطية ، البورجوازية، تسلك في المـانية سبيلها الى مأزق مُرْبَدّ؛ وكانت الاوضـــاع الرجعية في بروسية والنمسة متينة الدعائم ، ركينة الاسس . ولم تنجح الثورة في التغلب على تجزئة المانية الى دويلات . وما اقل عدد الليبراليين الذين كانوا يتبنون الشعار الواضح البسيط القائل «بجمهورية واحدة لا تتجزأ!» وكان الليبراليون يقترحون كل نوع من انواع التسويات بين الملـكية الدستورية الممركزة وبين الاتحـادية . واخيراً كانت روسيا القيصرية ، حصن الرجعية الاوروبية ، تراقب الموقف ، تأهبـاً للتدخل .

كان ماركس وانجلز من القائلين بحرب ضد روسية، وذلك – معـاً – لتوحيد الحركة الثورية الالمانية ، وسحق مقاومة القيصر والاقطاعية : وكانا ينظران الى هذه الحرب بانها تقدمية ثورية . وظلا في السياسة الداخلية ينـــاديان باقامة حكومة ائتلافية تمثـــل جميـع الالوان السياسية الديموقراطية ، من البورجوازيين الليبراليين حتى الشيوعيين . ودافع ماركس عن وجهة النظر هذه في مؤتمر اقامته الرابطة الديموقراطية في فيينـا فألقى خطاباً عالج موضوعـاً قدر له ان يعود مراراً الى معالجته وهو : العمل بالأجرة ، ورأس المـال . وحوالي شهر ايلول ، اخذ الموقف يتأزم حتى غدا حرجـاً . ونجحت الرجعية في اثارة مصادمات في كولونية ، بين الجيش والسكان . واقـال ملك

بروسية الوزراء الليبراليين الاحراريين وعين رئيساً للحكومة الجديدة جنرالاً رجعياً . وكان النزاع بين الحكومة والمجلس الوطني في فرانكفورت يهدد بالانفجار في كل لحظة. وكان عمال كولونية يريدون خوض المعركة ، فبدأوا يقيمون الحواجز في الطرقات. غير ان الجيش النظامي كان يحاصر المدينة ويحتل المواقع الستراتيجية ، وكان الحرس المدني (البورجوازي) متردداً في رأيه . ولم يكن لدى العمال الا القليل من الاسلحة . واعلن ماركس معارضته لفكرة التمرد المسلح، رغم تحديات الرجعيين، وسخرية صحافتهم ، ونقمة العمال ، « انعزاليي اليسار » gauchistes ، وكان ماركس يكرر قوله بأنه « ما دامت المانية لم تنضج بعد لثورة عامة فمن السخافة تضحية فصيلة من رجال الطليعة والديموقراطية .

وفي اكتوبر اندلعت الثورة الديموقراطية في فيينا . ولم يفهم الديموقراطيون الالمان ، رغم نداء ماركس ، ان ثورة فيينا يجب ان تدعمها فوراً جميع المدن الالمانية . ولعجز هؤلاء « الديموقراطيين » عن النظر الى البعيد ، وعن تحطيم الحواجز القديمة بين مقاطعات المانية الاقطاعية (ولو اقتصر الامر في البدء على بث الدعاوة النظرية ، الفكرية لتحطيمها) فظل الديموقراطيون محصورين في المسائل المحلية الضيقة .

وكانت البورجوازية التحررية ، والبورجوازية الصغيرة الالمانية ، تذهبان الى مختلف ضروب الجرأة الفلسفية (تدلنا على

ذلك مختلف الحركات « الاشتراكية » المثالية التي انتقدها البيان الشيوعي) ولكن ما ان يحين اوان الانتقال الى العمل الا ويترددون ويتراجعون ، وكانوا لا يدركون انه اذا لم تحدث ثورة **المانية** ، سوف يأتي عهد طويل هو نقيض للثورة الالمانية (عهد ديكتاتورية المانيـة ، بونابرتية المانية ، تجيء في مستوى المانيا ووفقاً لاطارها .)

وهكذا تخلـّوا عن الثائرين في فيينا. وفي اول تشرين الثاني عادت جيوش امبراطورية النمسة الى فيينا. وبعد ايام معدودات طرد جنود ملك بروسية اعضاء المجلس النيابي في برلين ، طرداً قاسياً شرساً .

أزفت ساعة النضال ، ولكن الديموقراطيين تمسكوا في « وقار رصين » «بالشرعية» ، و « الدستورية » ، اما ماركس فعلى العكس ، دعا سكان رينانية الى السلاح . وفي ٢٨ تشرين الثاني طلب الى لجنة الديموقراطيين الرينانيين ان تدعو فوراً الى الامتناع عن دفع الضرائب ، واعلان التجنيد العام ، وتأليف لجان للانقاذ الوطني ، والقيام بالتطهير الاداري . ولكن الحماسة خفت ، بل تحطمت ، حين بلغ الجماهير نبأ يؤكد ان رجال البرلمان لم يشاءوا تنظيم المقاومة بل تفرقوا ...

«لقد شهدنا الصراع بين البيروقراطية الاقطاعية القديمة، وبين

المجتمع البورجوازي الحديث ـ بين المجتمـــع الطوائفي المهني corporatif وبين مجتمع المزاحمة الحرة ـ بين المجتمع المؤسس على الملكية العقارية وبين المجتمع الصناعي، بين مجتمع الدين ومجتمع العلم . »

ولكن البورجوازية الديموقراطية الالمانية خانت ، وذلك خوفاً من الحركة التي كان عليها ابتعاثها لاتمام رسالتها ، وبلوغ اهدافها الخاصة . وكانت تلمح ، في الافق ، بالاضافة الى ثورتها الخاصة ، ثورة أُخرى اعمق . لقد ألقت حوادث فرنسة الرعب في قلب البورجوازية الديموقراطية . وهذه الخيانة يفسرها ايضاً تأخر المانية النسبي عن البلاد الصناعية في ذلك العهد ، اضف الى هذا وقائع سنة ١٨٤٨ . ولم يكن لليبراليين ثقة ، لا بالشعب، ولا بانفسهم. وهكذا حصروا الحركة الثورية في مشروع تجتمع له صفتا **المكيافيلية وقصر النظر** : الاستيلاء « المشروع » على مراكز التوجيه الاداري . وهكذا بسماحهم للبيروقراطية والاقطاعية بالبقاء، حكموا على انفسهم بالاخفاق. اما الاقطاعيون فقد سمحوا لليبراليين بالتصرف مدة معينة ، ثم للعمل على تقنيـة الحركة الشعبية، وتجريدها من الشجاعة، في وقت معاً . وحين ازفت الساعة، طردوا الليبراليين الذين خدموا الاقطاعيين ـ اذا نظرنا موضوعياً ، وبصرف النظر عن نيات الليبراليين وشخصياتهم، واضحى من المستحيل ان تجري الثورة في المانيـة الا ضد البورجوازية . (راجع خطاب ماركس امام المحلفين ، اثنـاء

محاكمات الشيوعيين في كولونية، التاسع من تموز ١٨٤٩) وراجع إيضاً كتاب « الثورة ونقيض الثورة في المانية » [وقد وضعه انجلز ، ووقعه ماركس]

ورغم ذلك ظل ماركس مصراً على الاعتقاد بان الثورة الالمانية يجب ان تكون « جمهورية واجتماعية » لا بروليتارية واشتراكية، ولا شيوعية، بخاصة؛ وهذه الجمهورية الاجتماعية يكون من اهدافها اعلان الانتخاب العام ، وتحرير الفلاحين من جميع الاعباء الاقطاعية ، وتشجيع تطور الصناعة، والعمل على تمركز القرض بوساطة مصرف الدولة. فالعهد لم يحن بعد لالغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، ولا لالغاء الطبقات، والمصادمات بين الطبقات . وهذه الثورة الجمهورية والاجتماعية سوف يكون من شأنها تعميق الثورة البورجوازية ودفعها الى نهاياتها ، دون مشيئة البورجوازيين الليبراليين ، بل ضدهم اذا لزم الامر وسوف تنشأ دولة ينال فيها العمال والفلاحون ، والبورجوازيون الصغار ، والطبقات الوسطى ، ينال كل هؤلاء اكثر ما يستطيعون . وهكذا تنشأ شروط خطوة جديدة الى الامام : الديموقراطية الاشتراكية .

وفي اواخر سنة ١٨٤٨ شدد ماركس في التوكيد على المطالب العمالية ، وادار وجهه ثانية نحو فرنسة آملًا ان « يسمع صياح الديك الغولي »، وكتب ماركس مقالاً في اول كانون الثاني ١٨٤٩ ختمه بهذه الكلمات: «ثورة الطبقة العاملة الفرنسية ،

ثم الحرب العالمية ، هذا ما ينتظر في عام ١٨٤٩ » .

وعلى الرغم من هذا لم يوافق ماركس على ان يخوض العمال المعركة الانتخابية « بترشيحات مستقلة » في انتخابات الجمعية الوطنية البروسية الجديدة (التي انبثقت عن دستور مزيف لليبرالية ، اعلن في ٥ كانون الاول ١٨٤٨) فانه اذا كان من الواجب تخطي البورجوازية وقطع جميع العلاقات بها ، فقد كان من الخطر الشديد قطع العلاقات بالديموقراطيين البورجوازيين الصغار التقدميين ، مهما بلغ من ضعفهم وترددهم . وكانت خطة الشيوعيين ما تزال موجهة نحو ثورة سياسية (تحطيم الحكم الاستبدادي ، والبيروقراطية ، والرجعية الاقطاعية ، وسلطة إقطاعيي الريف ، والملاكين العقاريين ، وبارونات المال) لا نحو ثورة اجتماعية مباشرة . « سحق الدولة الاقطاعية » : هذا الشعار ظل معمولاً به في الظروف الجديدة الناتجة عن خيانة البورجوازيين الديموقراطيين . وكان ماركس – اذن – يقول في صحيفته ، للعمال : « تحملوا مجتمعاً ، يوجد بالصناعة شروط مجتمع جديد ، خير لكم من العودة نحو مجتمع قديم ميت ، تخطاه التاريخ . »

في ذلك الحين ، استأنف « المتطرفون » وغوتشالك ، محاولتهم لتدمير نفوذ ماركس في اوساط العمال فأجاب غوتشالك ماركس :

« لماذا تُحتم علينا اهراق دمائنا ؟ أكان علينا كما تنبأت ، يا سيدي الواعظ ، للنجاة من جحيم العصور الوسطى ، الغوص في

المظهر الرأسمالي لكي نصل فيما بعد الى نعيم غائم ، تنادي به عقيدتك الشيوعية ؟ ! »

كان هذا هو السؤال نفسه، الذي طرحه ويتلنج ، والسؤال نفسه الذي سوف يطرحه باكونين فيما بعد : وقد اجاب المتطرفون عن هذا السؤال قائلين: « فلنستول فوراً على الحكم، او فلنمض الى النوم !... »

وهذا الكتاب المفتوح الموجه في صحيفة غوتشالك ، من غوتشالك الى ماركس ، ما تزال له اهميته الكبرى ، ذلك لانه يبين لنا ، بصدق ، وضع جميع المتطرفين والانعزاليين ، وانعزالي اليسار بخاصة . يقول هؤلاء انهم بروليتاريون وعمال صادقون . وهم فعلاً صادقون أُمناء . وهم مخلصون في تخوفهم [كما رأينا في موضوع ويتلنج] من التجريد . وهم يطالبون بشيء عملي فوري مباشر ، شيء تطبيقي . انهم لا يفهمون ولا يمكن ان يفهموا الماركسية .

وتابع غوتشالك كتابه الى ماركس قائلاً : « انت لا تنظر نظرة جدية الى تحرير المضطهَدين، فشقاء العامل، وجوع المسكين، ليس لهما في نظرك الا اهمية علمية . » وكان غوتشالك يعبر بهذه الكلمات ، عن وجهة نظر الرجل المتحمس لعمل فوري، والذي يرى ان العمال يجب ان يصدفوا عن كل تجريد ، سواء أكان علمياً ام متيافيزيكياً غيبياً ؛ وكان غوتشالك يرى انه سيان في

نظر الطبقة الكادحة، ان يكون المجتمع، مجتمع قرون وسطى، ام مجتمعاً حديثاً ، اذا كان غير شيوعي .

على الطبقة العاملة – في نظر غوتشالك – ان تقوم بثورتها على الفور ، وان تقيم دعائم الشيوعية ، بالثورة الدائمة .

وانشقت الرابطة العمالية الى غوتشالكيين ومار كسيين، وفي هذه الاثناء ، كانت الرجعية تثبت موقفها وتدعمه : اولاً ، كانت الرجعية توغر صدور الجنود على العمال ، وعلى الصحافة الديموقراطية ، وعلى « النيو راينخ زايتونج » وعلى ماركس نفسه .

وجاء الى منزل ماركس يوماً ضابطان زعما انهما اهينا في مقال كتبه ماركس . فاستقبلهما ماركس وهو يرتدي عباءة تبرز من احد جيوبها فوهة مسدس ضخم : وكان الشقيان قد جردا سيفيهما ، ولكن ما ان ابصرا سلاح ماركس حتى سارعا الى الانسحاب . وفي مطلع عام ١٨٤٩ كان اليسار الديموقراطي قد استعاد كثيراً من قوته السالفة، وعادت « رابطة الشيوعيين » الى الالتئام ، بتأثير من عناصر تقدمية ، ورغم ان هذه العناصر لم تكن خاضعة لنفوذ غوتشالك، اعادت تأسيس« الرابطة الشيوعية » ضد ارادة ماركس .

وكان ماركس اكثر واقعية من ان يغفل عن ان ثمة اتجاهاً جديداً ، وان هذه الحركة اكثر تقدمية . وفي ١٤ نيسان سنة

١٨٤٩ انسحب ماركس والماركسيون من المنظمات الديموقراطية حيث كانوا يجتمعون بالديموقراطيين . ودعا ماركس الى مؤتمر تشترك فيه جميع المنظمات العمالية الرينانية . وانضم ماركس ثانيــة الى رابطة الشيوعيين ، وكان في ذلك فراق بينه وبين الديموقراطيين . وفي نوار ١٨٤٩ قامت الثورة بمحاولة اخيرة ، فثارت مدينة درسد (والمعروف ان ريشار فاغنر كان احد المناضلين في تلك الثورة) ثم هبت البالاتينـا ، ودوقية باد ، والعمال الرينانيون في « إلبرفيلد». وجمعت الحكومة البروسية في كولونية اقوى جيوشها واوثقهـــا وفي ١٦ نوار ١٨٤٩ تلقى ماركس مذكرة تنفيه من البلاد . وفي هذه الاثناء صدر العدد الاخير من « الراينخ زايتونج » مطبوعاً بالمداد الاحمر ، وفي صفحتـه الاولى قصيدة لفرايليجرايت : « التحدي على شفتي ، وفي قبضتي سيف يقدح شرراً ، أهتف حتى بالموت: الى الثورة ! الى السلاح ! هكذا هُزِمتُ ، شريفاً ، باسلاً !... »

اتجه انجلز وماركس نحو المانية الجنوبية ، ورفض الجنـاح الايسر من جمعية فرانكفورت الوطنية الاستجـــابة لطلب ماركس وانجلز بدعوة الجيوش الثورية في بلاد «باد» و«بالاتينا» وحشدها لمعركة جديدة: وفي غمرة التمرد اليائس، ظل ديموقراطيو المجلس النيابي محافظين على رغبتهم في البقاء داخل نطاق «الشرعية»، ومن ناحية ثانية ، رفض العسكريون قادة الثورة اتباع نصائح ماركس ، وتوجيه الهجوم شطر فرنكفورت ، واحتلالها ،

وارغام الجمعية الوطنية على قيادة الثورة. هكذا كان اهل «باد» و«بالاتينا» يقتصرون في ثورتهم على نطاق «باد» و«بالاتينا»!...

عاد ماركس يائساً الى باريس، آملاً ان يلقى معونة لدى الديموقراطيين الفرنسيين . وفي هذه الاثناء انخرط ماركس ضابطاً في الجيش « البادي » وكان انصار غوتشالك قد دعوا العمال الى القاء السلاح ، بحجة ان لا مصلحة لهم في المعركة .

وهكذا تحولت «انعزالية اليسار» الى خيانة، وسحقت الثورة الالمانية ، قطاعاً بعد قطاع ، لانها عجزت عن تحقيق وحدتها . وظل انجلز يناضل الى النهاية، حتى حُشِر، وأُخرج الى سويسرة، فلجأ اليها مع فرقته العسكرية ، وهي من خيرة فرق الجيش الثوري .

٣ – الرجعية الاوروبية

كان ماركس في باريس حين ارسلت الحكومة الفرنسية المنبثقة عن ثورة ١٨٤٨ ، فرقة عسكرية فرنسية الى ايطالية ، لاعادة سلطان البابا المطلق على رومة وتسليم الجمهوريين لمحاكم التفتيش !...

لم يكن ماركس يستطيع الاقتناع بأن هذا الوضع سائر الى الثبات . فمراسلات ماركس (كتاب في اول آب ١٨٤٩ الى ويدمير) تدلنا على انه كان يؤمن بانتفاضة جديدة للحركة الثورية .

ولقد رأينا سابقاً (في موضوع البيان الشيوعي ١٨٤٨) ان نظرية الازمــة الثورية لم تكن في ذلك العهد قد اتضحت وتركزت ، في فكره ، فقد كان يؤمن بحدوث ازمة اقتصادية وسياسية عامة ، دائمة ، او شبه دائمة ؛ وأما ان ماركس قد اخطأ سنة ١٨٤٩ ، فهذا واقـع اكيد . ولم يكن ماركس معصوماً عن الخطأ .

ويحسن باولئك الذين يستغلون هذه الاخطاء لنقدالماركسيين والادعـاء بانهم يؤمنون ايماناً « اعمى » بفكر كبار النظريين ، يحسن باولئك ان يدرسوا مـع الماركسيين الحقيقيين كيف ولماذا يخطيء كبار النظريين في بعض الاحيان ؛ وقد كان لخطأ ماركس معنى ، وإثر تفكيره في هذا الخطأ ، وتفكيره في مجموع الوقائع والاحـداث التي جرت في تلك السنوات ، عمّق ماركس مذهبه ، وطوّره ، واغناه .

لم يمكث ماركس في باريس الا شهراً واحداً ، وفي التاسع من تموز عينت له الشرطة السياسية دار « اقامة اجبارية » تخضع للمراقبة ، في ڤان (موربيهان) ففضل ماركس السفر الى لندن ، حيث وصل في ٢٩ آب ١٨٤٩ .

واتصل ماركس فوراً بالمهاجرين القدماء ، والمنفيين الجدد ، الذين كانوا يتدفقون من جميع انحاء اوروبة الى انكلترة القديمة ، وكانت ما تزال تمارس ارحب المباديء الليبرالية التحررية (رغم الهزيمة السياسية التي مني بها « الشارتيون » ولم يكن مضى عليها

زمن طويل) . وانصرف ماركس الى الاهتمام الجدي « بلجنة اغاثة اللاجئين » واخيراً – وخصوصاً – تسلم ثانية قيادة «رابطة الشيوعيين ». وفي آذار ١٨٥٠ وضعت نشرة مهمة بتوقيع اللجنة المركزية للرابطة (ماركس، انجلز ، بوير ، ايكاريوس ، مغاندر شابر الخ...) وهذه الوثيقة تشير الى تفاهم ماركس وانعزاليي اليسار الذين كان يمثلهم ويليش ، وهو صديق غوتشالك ولكنه – ويليش – أسهم في النضال ونبُه اسمه في الجيش « البادي » .

تم هذا التفاهم بعد ان عمد ماركس الى تحليل الوضع. وكان يصر على امله في تصاعد جديد للموجة الثورية الاوروبية . وكان يتنبأ بان اوروبة ستعاني عام ١٨٥٠ ازمة اقتصادية، وهذا يعني ازمة سياسية ايضاً . ولما كان الليبراليون قد أُقصوا عن ساحة العمل بسبب خيانتهم ، لم يبق على المسرح من طبقات ثورية الا البورجوازية الصغيرة والطبقة الكادحة (البروليتاريا) « بينما تريد البورجوازية الصغيرة اتمام الثورة باقصى ما تستطيع من السرعة، فإن مهمتنا ان نجعل الثورة ، ثورة دائمة الى ان تستبعد جميع الطبقات المالكة المسيطرة (مهما كانت درجة ملكيتها) الى ان تستولي البروليتاريا على الحكم ، الى ان تضحي تجمعات العمال البروليتاريين (لا في بلد واحد، وانما في جميع البلدان) متطورة تطوراً يمكّنها من وقف المزاحمة بين العمال الكادحين ، والى ان تكون اعظم القوى المنتجة، واهمها ، قد تمركزت في ايدي العمال الكادحين . »

وكان على العمال ، حسب توجيه هذه الوثيقة ، ان ينظموا انفسهم على اساس حر ، اثناء الحركة الثورية المنتظرة ، « والى جانب الحكومة الجديدة، الرسمية ، عليهم ان ينشئوا حكوماتهم العمالية الثورية الخاصة ، التي يعطونها شكل مديريات ، ونواد ، او شكل لجان عمــالية ، لكي تفقد الحكومات الديموقراطية البورجوازية فوراً كل وسيلة من وسائل التــأثير على العمال ، ولكي تنشأ فوراً سلطات تدعمها كل جماهير العمال ، تراقب تلك الحكومات ، وتهددها . »

صدرت هذه النشرة في آذار ١٨٥٠ ، وفي نيسان أُنشئت «الجمعية العامة للشيوعيين الثوريين» وهي امتداد للرابطة (وكأن ماركس قد اعترف ، بتفاهمه مع « انعزاليي اليسار » بانه كان على خطأ اذ حل الرابطة عام ١٨٤٨) وقد جاء في المادة الاولى من النظام الداخلي للجمعية ما يلي: « ان هدف الجمعية هو العمل على تصفية جميع الطبقـات البورجوازية التي خصت بامتيـازات معينة ، وتكون تصفيتهـا باخضاعها لديكتاتورية البروليتاريا ، والعمل على استمرار الثورة الدائمة حتى تحقق الشيوعية التي يجب ان تكون آخر شكل تتخذه الاسرة البشرية . » واقسم اعضاء الجمعية على العمل لالغاء الانقسامات بين القوميات، بوساطة مبدأ الاخوة الجمهورية.. واتخذت الجمعية شكلاً تآمرياً سرياً !...

كان ماركس اذن مصراً على الاخذ بالفكرة القــائلة بان الثورة الدائمة يجب ان تجري وفقاً لمراحل يحددها ـ تاريخيـاً ـ

نمو القوى المنتجة : « اولاً : مرحلة الديموقراطية البورجوازية الراديكالية. فالبورجوازيون الصغار التقدميون، ثم البروليتاريا.»
اضف الى ذلك ، هذه الملاحظة الهامة : ان التفاهم بين ماركس وانعزاليي اليسار كان يقر هؤلاء على موقفهم ، بما فيه من شكل التنظيم الذي يرونه...

ولهذه الوثائق اهمية كبرى في تاريخ الفكر الماركسي :

أ — انها تثبت ان نظرية **الازمات** لم تكن قد اتضحت بعد وتحددت . (وهذا لم يتم الا خلال السنوات التالية في المؤلفات والاعمال الماركسية التي مهدت لكتاب **«رأس المال»**) وما قيل في صفحات سابقة بصدد مؤلفات ماركس الاقتصادية، الفلسفة **والبيان الشيوعي نفسه** ، يجد هنا ما يؤكده في وضوح كامل .

ب — الازمة الدائمة والثورة الدائمة مفهومان يكمل احدهما الآخر وكلاهما خاطىء . وماركس حين تخلى عن احدهما ، إثر تعميق نظريته الماركسية ، تحتَّم عليه التخلي عن الآخر .

والمعروف ان شعار «الثورة الدائمة» بقي هو المبدأ التقليدي المذهبي الجامد لجميع « الانعزاليين اليساريين » . فمن المهم جداً — اذن — الملاحظة بان هذا الشعار لم يعلنه ماركس الا اثر خطأ من اخطاء التحليل ، واثر تسوية سيئة مع انعزاليي اليسار، مرتكزة على الخطأ .

ج – فهل كان شعار ديكتاتورية البروليتاريا ، هو ايضاً ، شعاراً انعزالياً يسارياً ، ناتجاً عن تلك التسوية ؟

لا يمكن ان تثبت هذه الفكرة للنقد منذ اللحظة التي نتابع فيها **حركة الفكر الماركسي وتطورها** . ففي ذلك الزمن ، زمن الرسالة الى ويدمير (وقد سبقت الاشارة اليها) كانت آمال ماركس التي عقدها على عام ١٨٥٠ قد انهارت . وكان ماركس محافظاً على مبدأ « ديكتاتورية البروليتاريا » . وقد استعاد هذا المبدأ وطوّره بعد حوادث ١٨٧١ واثر تجربة كومونة باريس La Commune de Paris ؛ ومن الخطأ – اذن – رفض هذا المبدأ ، هكذا ببساطة ، كأنه خطأ سياسي . ان مبدأ ديكتارتورية البروليتاريا قد يكون اذن ، في ظروف معينة . وهذا المبدأ صحيح في ظروف معينة ولذلك فهو لا يمكن ان يتحول الى مبدأ مذهبي جامد محتوم .

وفي نوفمبر ١٨٥٠ صدر في النيورايخ زايتونج » وهي مجلة للاقتصاد السياسي ، كان يحررها ماركس ، ويصدرها في هامبورج ، صدر في هذه المجلة مقال يعلن مرحلة زمنية جديدة ، مرحلة من الاستقرار المؤقت في المجتمع البورجوازي .

« مع هذا الازدهار الشامل ، الذي تنمو في داخله قوى المجتمع البورجوازي المنتجة ، لا يمكن بحث قضية الثورة ، بحثاً جدياً . » و ، « لا يمكن ان يفسح صراع الطبقات والاحزاب داخل الطبقات المسيطرة ، المجال لحركة ثورية » . « لا يمكن

ان تحدث ثورة جديدة الا اثر ازمة جديدة. » يعني: بعد صراع يبلغ حد الخطورة، بين القوى المنتجة والاشكال البورجوازية للانتاج.

وماركس، بعد ان لاحظ اثناء عام ١٨٥٠ نهاية الازمة الاقتصادية، عاد، منذ ذلك التاريخ، الى انماء دراساته النظرية في «رأس المال» وتطويرها، وتعميقها. وتخلّى مؤقتاً عن التطلعات الثورية.

لم يرض «انعزاليو اليسار» بهذا التحليل. وكان ماركس في نظرهم يتخلى عن الثورة باسم تجريدات نظرية لا طائل وراءها. وكانت الثورة في نظر ويليش، كما هي في نظر غوتشالك، مسألة هياج، وشجاعة، وارادة، مستقلة عن الظروف الطارئة العابرة. والمجتمع، سواء في عهد الازمة ام خارج هذا العهد، لا ينقطع عن كونه منقسماً الى مضطهَدين ومضطهِدين، الى اغنياء وفقراء، انانيين وايثاريين. ولماذا اخضاع النضال العملي لتحليل ذهني فكري؟ هل كان بلانكي يتوقف عن محاولة الثورة على السلطات القائمة، منذ توقف الازمة الاقتصادية؟

في ذلك التاريخ، كتب ماركس مقاله (المشار اليه آنفاً) عن سياويي الثورة ومشعوذيها» وفيه قال «ان هؤلاء يشبهون سياويي الازمنة القديمة، ويشاركونهم في اضطرابهم الذهني، وافكارهم الثابتة.» «فالمتآمرون الدائمون يريدون استباق عملية النمو التطورية الثورية، ودفعه نحو ازمة اصطناعية،

وارتجال الثورة دون ان تكون ثمة شروط للثورة وظروف .»
وماذا اضحت جمعيات المتآمرين السرية ؟ اضحت مكاتب لامداد الشرطة بالضحايا ...

عين ماركس لرابطة الشيوعيين مهمة واحدة في المرحلة المقبلة : الدعاوة النظرية . وهو نفسه كان يلقي في سنتي ١٨٥٠ و ١٨٥١ محاضرات في الاقتصاد السياسي : «كان يعمد الى المحاضرة ، مستخدماً الدقة المنهجية . ويعرض رأياً ، بما وسعه من الايجاز ، ثم يعلق عليه مجتنباً التعابير التي قد تستعصي على العمال . وكان يشجع السامعين على توجيه الاسئلة اليه ، فان لم يطرحوا هذه الاسئلة ، كان هو يسألهم ببراعة تربوية ، لا يمكن ان يتخللها اي ثغرة ولا اي تأويل خاطيء» .(ليبكنخت)

وفي ١٥ ايلول ١٨٥٠ تم الانفصال بين ماركس وويليش. وانشطرت الرابطة الى جزئين ، والقى ماركس في غضون المناقشة خطاباً يتساوى في قسوته مع مقاله عن « السماويين » :

«تُحِل الاقلية محل المفهوم النقدي ، مفهوماً مثالياً . ومحل المفهوم المادي، تُحِل فلسفة مثالية. وبدلاً من الشروط الواقعية، الحقيقية ، ترى ان الارادة هي محرك الثورة، نحن نقول للعمال: سوف تجتازون خمسة عشر ، او عشرين ، او خمسين عاماً من الحروب الاهلية ، والعالمية ، لا لتغيير الظروف وتطويرها ، وتبديل شروط معيشتكم فقط ، بل لتطوير انفسكم وجعلها صالحة للحكم السياسي ايضاً. اما انتم فتقولون لهم ، على العكس : علينا

الاستيلاء على الحكم فوراً ، او فلنذهب الى النوم !... وكما ان الديموقراطيين جعلوا من كلمة « شعب » مفهوماً ذهنياً ، كلي القداسة، هكذا انتم تكرسون كلمة « بروليتاريا » وتقدسونها !»

بعد هذا الانفصال بقليل ، توقف ماركس عن بذل اي نشاط في « رابطة الشيوعيين » ونجح في حل الجمعية العامة . ومنذ اوائل عام ١٩٥١ تحتم على ماركس وانجلز ان يفترقا تقريباً .

ورغم هذا كانت الشرطة ـ عملاء حكومة برلين ومخبروها ـ تهتم بهما اهتماماً عظيماً ، وكانت الشرطة تصر على الخلط بين ماركس وبين البلانكيين والمتآمرين . ووضعت وثائق مزورة تزعم بان ماركس « ارهابي » يُعِدُّ مؤامرة لاغتيال الملكة فكتوريا . وكادت السلطات تأمر بابعاده من انكلترة .

وأُوقف اصدقاء ويليش في كولونية في حزيران ١٨٥١ ، وبعد محاكمة ضخمة ، صدر الحكم في ١٢ نوفمبر ١٨٥٢ ، وكان الاتهام يشمل ماركس ، فعمد الى العمل الجاهد المحموم ، مع زوجه وانجلز ، لوضع الدفاع عن نفسه ، وعن المتهمين الآخرين. واستطاع ان يثبت زيف كثير من « الوثائق » التي زُعِم انها محرجة لا نقض لها ، واستطاع ان يحصل على براءة اربعة من المتهمين ، وحكم على سبعة آخرين باحكام خفيفة نوعاً .

كانت تلك نهاية «الرابطة » وعلم ماركس انه سوف يكون

اكثر فائدة للطبقة العاملة اذا انصرف الى مؤلفاته النظرية ، بدلاً من الانصراف الى نشاط مقدر له الاخفاق .

لقد مضى عهد الجمعيات السرية . ولا شك في ان عهد النشاط العام سوف يأتي ، سواء اكان قانونياً مشروعاً ام غير قانوني ، ولكنه سوف يكون سياسياً شاملاً رحباً. كان الامر يستدعي التسلح بالصبر ، ثم الانتظار .

غير انه كان على ماركس ان يعاني اكثر من تجربة مؤلمة بسبب اصدقائه القدماء . واذا كان معروفاً بانه نسيب وزير بروسي فقد اتهم ماركس في لندن بانه باع نفسه للرجعية البروسية . وتحدى ماركس للمبارزة ، الصحفيّ الذي وجه اليه هذه التهمة الباطلة ، فسحب الصحفي اتهامه واعتذر .

٤ – ١٨ برومار لويس بونابرت

انتصرت الرجعية في القارة الاوروبية، وكان الانقلاب الذي قام به نابليون الثالث ابرز اعراض ذلك الانتصار ، واكثرها دوياً . وما لبث ماركس ان رد على ذلك الانتصار بأبرع مؤلفاته التاريخية والسياسية واعظمها تألقاً وهو مؤلف « ١٨ برومار لويس بونابرت » وهو كتاب يتوهج بتهكم اشاعت سنوات النضج فيه الخفة والحيوية . ففيه تتحد الخاطرة السريعة مع التحليل النظري ، والهجاء السياسي يحتوي ايضاً على تفسير

– بالنظرية الماركسية – لأحداث تعجز عن تفسيرها كل محاولة اخرى .

ومؤلف « ١٨ برومار » يبلغ منذ سطوره الاولى مستوى الاسلوب العظيم – اسلوب رجل يمتلك جميع اسبابه ؛ وهو معاً فيلسوف ومؤرخ وعالم اجتماع واقتصاد ، وسياسي ومناضل :

« يلاحظ هيجل في موضع من مؤلفاته بان الاحداث الكبرى ، والشخصيات التاريخية تتكرر ، اذا صح التعبير ، مرتين ؛ وقد نسي ان يضيف : انها تجيء في المرة الاولى بصورة مأساة ، وفي الثانية بصورة مهزلة : فغوسيدير يمثل دانتون ، ولوي بلان يمثل روبسبيير ، وجبليو ١٨٤٨ الى ١٨٤١ جاؤوا يمثلون ادوار جبليي[1] ١٧٩٣ الى ١٧٩٥ . وابن الاخ جاء يمثل دور عمه[2] » .

« يصنع البشر تاريخهم . وهم لا يصنعونه على نحو تحكمي ، في ظروف هم يختارونها ، بل في ظروف وشروط أمليت عليهم مباشرة ، وورثوها عن الماضي .. ان ارث جميع الاجيال السالفة وتقاليدها ، تبهظ باثقالها ادمغة الاحياء . وهم يستجيرون بارواح الماضي في خشية ، ويستعيرون اسماءها وشعاراتها وقيمها ... هكذا اتخذ لوثر قناع بولس الرسول ... وثورة

---

(١) La Montagne ، و les montagnards ، تكتل حزبي يساري في مجلس ١٧٩٣ ، وسمي هذا الاسم لان اعضاءه كانوا يتكتلون في اعلى موضع من مجلس « الاتحاد الوطني » .

(٢) يقصد بالعم « نابليون بونابرت » ، وبابن الاخ « لويس بونابرت » .

١٧٨٩ الى ١٨١٤ تلفعت اولاً ببذلة الجمهورية الرومانية ثم ببذلة الامبراطورية . (١٧ برومار – المنشورات الاجتماعية ١٩٢٨ ص ٢٢)

ومن حيث الجوهر يحلل هذا الكتاب شروط البونابرتية والظروف المؤدية اليها، وهذه البونابارتية ظاهرة سياسية حديثة على اكبر نصيب من الاهمية[1] .

والليبراليون يستعملون كلمة «قيصرية» و كلمة «الديكتاتورية» « والحكم الفردي » دون ان يميزوا بعضها من بعض ، وهم لا يعينون **المحتويات** التاريخية الكثيرة التباين ، التي تنم عنها اشكال متشابهة في الظاهر تشابهاً مصطنعاً. وهل نستطيع ان نفسر تفسيراً واحداً « الحكم الفردي الذي كان يعتمده القياصرة الرومان ، وملوك القرن الثامن عشر ، ونابليون الاول ؟ وما هو الفرق بين « ديكتاتورية » اليعقوبيين الثوريين وديكتاتورية نابليون ؟ ان الديموقراطيين ، سواء أكانوا مؤرخين ام رجالاً سياسيين ، لا يطرحون على انفسهم هذه الاسئله بوضوح، فكل شيء يختلط عندهم في مفهوم « الحكم الفردي » .

غير ان للبونابارتية قسماتها المميزة التي حللها ماركس في كتابه :

---

(١) بعد ذلك التاريخ عرف انجلز (راجع «ازمة المساكن ») خصائص الحكم البسماركي بأنه نمط من انماط البونابارتية . ونحن نعرف ان الفاشستية والهتلرية كان لها وشائج كثيرة بهذه الظاهرة السياسية .

أ – انها تفترض اولاً وجود **ازمة ثورية اجهضت** . وهذه الازمة تنمو ، من الناحية العامة ، ضمن الاشكال الديموقراطية؛ والواقع انه ضمن الشكل السياسي الديموقراطي وحسب ، يمكن ان يبلغ الصراع (صراع الطبقات ، الصراع بين مختلف اجزاء الطبقة او الطبقات المسيطرة) الى اقصى حد من الاتساع .

وهكذا تدنو الديموقراطية ، دنواً سريعاً ، وعلى نحو ما ، من فترة حاسمة ، فإما ان تتعمق ثورياً ، وينتقل الحكم الى العناصر الاكثر تقدمية (وهذا يترتب عليه تطور بل تغير في معنى الديموقراطية : يعني ان الطبقة الحاكمة تحمل على الاضطلاع بدور ثانوي ضئيل ، بل قد تجبر على الصمت ، وذلك بوسائل تحددها درجة الصراع ، وحظه من الشدة .)

واما ان يحدث ، اثناء الفترة الحاسمة ، ان يسحق الجناح التقدمي من الديموقراطية . وعندئذ تكسب الرجعية السياسية المعركة. ولكن هذه الرجعية تقع فريسة التناقضات ، فهي وقد جاءت الحكم في الشكل الديموقراطي ، ولكن بوساطة العنف ، تحذر الديموقراطية وتخشاها : « وتبدأ بحثها عن رجل » يستطيع بما له من هيبة ، وسلطة شخصية ، ان يفرض على الشعب سياسة محافظة ، لا يريدها الشعب ، ولكنه ليس قادراً على رفضها . وهكذا في شباط ١٨٤٨ ، اغتنم الجمهوريون ازمة سياسية عانتها الملكية الدستورية ، فاستولوا على الحكم ، وسرعان ما اراد الديموقراطيون التقدميون ، والطبقة الكادحة الاشتراكية تطوير

الديموقراطية السياسية في اتجـــاه اجتماعي . وازاء مقـــاومة البورجوازية الليبرالية التي جاءت الى الحكم، تلك المقاومة المتزايدة اكثر فأكثر في عنفها وضراوتها ، حاولت تلك العناصر التقدمية القيام بثورة ثانية ، ففتك بهم في حزيران حلفـــاؤهم بالامس . واقلق البورجوازيين الليبراليين انتصارهم هم انفسهم ، وضايقهم، فَخَلَقوا نابليون الصغير ، او سمحوا بارتقــائه الى سدة الحكم ، ذلك الارتقاء الساحق . ومن كان نصيره ؟ — اسمه الطنان ! وماذا كان عمله السياسي ؟ رسالة ديماغوجية في « اطفاء الفاقة ! » وهي رسالة قوامهــا الوعود الغامضة ، والخطب الطنانة المنادية بالمحبة البشرية و « الاشتراكية... »

ب — والرجعية السياسية، في جهدها للاحتفاظ بالحكم ،ترى نفسها اذن محمولة على طلب المعونة من عناصر مشبوهة ، من رجال عسكريين ، وطامحين ، ومغامرين ، وقوم من مختلف الانواع والضروب ، خرجوا من طبقاتهم (وفيهم اولئك الذين يخرجون من اللومپان— بروليتاريا، او البروليتاريا السفلى كما يعبر ماركس) . وهؤلاء مستعدون لان يبيعوا انفسهم للقيام بجميع المهمات السافلة ، كالتجسس ، والمساومة ، والاستفزاز .

وسرعان ما تتخطى هذه العنـــاصر المشبوهة حدود الطبقة الحاكمة وتطغى عليها ؛ وكيف تستطيع هذه الطبقة ، بعد ان دمرت الجزء الحيوي الحي من العضوية التنظيمية الديموقراطية ، كيف تستطيع هي نفسها المقاومة والبقاء ؟

وهذا معناه ان « الرجعية » و « البونابارتية » ليستا تعبيرين مترادفين . فالرجعية هي ديكتاتورية طبقة، طبقة سائدة اقتصاديا ومحافظة اجتماعياً – على جميع الطبقات المسودة اقتصادياً، امـا البونابارتية فالحكم ينتقل فيها كله او جزء منه الى ايدي العناصر المشبوهة ، الى المغـامرين ، المنبثقين عن الانحلال، والانحطاط المتفشي في الطبقـات الراهنة (بما فيها البروليتاريا التي لها ايضاً منتجات انحلالها) .

« ورجال النظـام » ، وقد غمرهم الوضع الذي أوجدوه بأنفسهم، يطردون عناصر الفوضى، طرداً قاسياً. وعندئذ يكون العهد عهد ديكتاتورية بوليسية وعسكرية وعهد تسابق الى المناصب والرتب بين اكثر الشخصيات اثارة للشبهات . (مثلاً ذلك المدعو موريني الذي لعب دوراً مهماً في الانقلاب) .

اما الجماهير فلا تريد التضحية بنفسها في سبيل الرجعيين ، ولذلك لا تبدي مقاومة ..

ج – ولكن هل يعني هذا ان الطبقة السائدة، المسيطرة اقتصادياً ، تجد نفسها مبعدة ، مجردة من امتيازاتها وان الدولة القائمة تكف عن كونها دولة الطبقة السائدة؟ وهل يعني هذا ان البونابارتية ليست انتصار النظام البورجوازي ، والرأسمالية ؟

لا . ففي الدولة تجري ظـاهرات على كثير من التعقيد والتركيب . فالدولة التي كونتهـا – او **افرزتها** ، اذا صح

التعبير – الطبقة الحاكمة وفقاً لحاجاتها ، تميل رغم ذلك الى ان تبدو وكأنها فوق الطبقات ، على نحو يظهرها بمظهر الحكم العدل ، غير المتحيز . بل ان هذه الدولة تتجه الى ان تكون ، في اتجاه ما ، فوق الطبقات ، وفوق المجتمع بكامله ، وكأنها سلطة متميزة عن « التأثيرات » او المؤثرات الاقتصادية ، دون ان تستطيع رغم ذلك الانفصال عن هذه التأثيرات انفصالاً حقيقياً تاماً . وفي البونابارتية يشتد هذا الاتجاه ، ويتأكد . والشذّاذ الخارجون من طبقتهم، والمغامرون ، يستولون على البيروقراطية الراهنة . انهم يحتلون جميع المناصب والمراكز، ويوجدون مناصب جديدة ، يوزعونها رُشا على عملائهم ومأجوريهم . ودون ان تكف هذه الدولة عن كونها الدولة التي انشأتها الطبقة السائدة لخدمة مآربها ، تصبح الدولة البونابارتية مستقلة عن هذه الطبقة في الظاهر ، بل – الى حد ما – مستقلة فعلاً : فالرجال المنبثقون عن الطبقة السائدة يرون انفسهم مطرودين جزئياً ليحل محلهم المغامرون والشذّاذ .

د – وهذا يتيح لنظام الحكم الجديد شعبية رخيصة ، ديماغوجية ، ولكن هائلة ، كبرى .

وهو يحتاج الى هذه « الشعبية » الرخيصة . فهو يغتذي بها ويعيش. ولكي يبرر نفسه امام الشعب يحتاج الى ايديولوجيات، و « نظريات » مزورة ، وتواريخ ، واكاذيب....

وهو يبدو كأنه مستقل عن الطبقة السائدة حتى ذلك الزمن،

مع انه يعني في الواقع فقط **دخول المغامرين الى صلب الطبقة السائدة وانضمامهم اليها** ، بعد ان كانوا على هامشها من قبل . عندئذ يبدو الانقلاب كأنه ثورة... ويعلن القرصان، واللصوص، وهم يستولون على الحكم ، سيادة عهد من الشرف، والاستقامة، ويعلن هؤلاء الدجالون سيادة القانون والشرعية ، والمحتالون يعدون بعهد يسوده النظام... ورجال هذه الدولة يتنبأون بالسعادة ، والازدهار، والسلام (« الامبراطورية هي السلم! ») ولما كانت الوعود لا تكلف شيئاً ، فإنهم يعلنون نهاية الفاقة ، ويعلنون انتصار الاشتراكية ، وكل ما يرونه ساحراً لالباب الجماهير...

والدولة المزيفة اكثر فأكثر ، واعمق فأعمق ، تبدو للسذج والبسطاء في مظهر دولة اجتماعية قومية – يعني التعبير الواقعي الفعلي عن مجتمع وجد اخيراً ، بعد الجهود الطوال – حين تغدو في الواقع اكثر فأكثر، قوة للارغام والكبت والاضطهاد والقسر، تنيخ باثقالها على المجتمع من خارج المجتمع كله، ومن فوقه.

ه – فالبونابارتية هي – اذن – نظام حكم بدون قواعد صحيحة ، عميقة .

لقد كان لسلطة نابليون الاول بعض الاساس في ضرورة الدفاع العسكري عن مكاسب الثورة الفرنسية الكبرى. وبخاصة، الحقوق الجديدة التي اكتسبها الفلاحون من الملاكين . ولكن حكم نابليون الثالث كان دون قاعدة او اساس – بمعنى الكلمة –

وكان معلقاً بما تستطيعه الدولة من ارغام وكبت ، وعلى الرغم من هذا لا ينهار العهد البوناپارتي او نظام الحكم البوناپارتي دفعة واحدة ، وانما هو يجر نفسه جراً ، ويستطيل... مستخدماً جميع الوسائل وخصوصاً : المغامرات العسكرية . وحين ينهار اخيراً، يظهر جلياً انه لم يكن له من انصار الا **«المستثمرون»** المتاجرون بالنفوذ والسلطة... ومع ذلك فهو نظام حكم «صلب» ، شديد، ملؤه المتاعب والآلام ، والاخطار ، يفرض على الامة ، وعلى الشعب ، ويزوّر المستقبل ، ويسيء اليه .

هذه العجالة المختصرة جداً ، والتي هي على شيء من الجمود والجفاف ، اذا قارناها بمؤلف ماركس ، تلخص كتاب «١٨ برومار» رغم اننا نكون معرضين، لدى كل تلخيص ، لافلات بعض جوانب هذه المسائل ، وهذه العجالة تنم عن غِنى الكتاب، ولكنها لا تعبر عن الحماسة التي تحركه ، وعن وضوحه الكريم، وعمقه ، وطابعه الذي يبدو فيه كأنه أُلّف اليوم لمعالجة المسائل الراهنة .

ولم يستطع ماركس اصدار هذا الكتاب الا لان عاملاً مجهولاً وهب «ويدماير» جميع ما وفره من دراهم لدفع نفقات الطباعة...

٥ – من سنة ١٨٥٢ الى « نقد الاقتصاد السياسي »

كانت الاعوام التي تلت ، من اصعب السنوات في حيـــاة كارل ماركس . وكانت مسائل السياسة العـالمية الاممية تمثل المركز الاول ، وكان ماركس يتابعها عن كثب ؛ وقد نشر طوال سنوات في صحيفة « نيويورك تريبيون » مقـــالات هي وسيلته الوحيدة لكسب العيش – يحلل فيهـا يوماً فيوماً – تقريباً – الحالة العالمية . واتاح له هذا التحليل ان يتابع تحركات الديبلوماسية الغامضة ويوضحها . وهكذا اثنـــاء الحرب ضد روسية (١٨٥٣) استطاع ماركس ان يكوّن رأياً ، واقتناعاً ثابتاً ، بان موّجـه السياسة الانجليزية ، اللورد بالمرستون ، كان يفاوض الحكومة القيصرية سراً ، بل ان هذا السياسي كان يعمل لحساب الروسية منذ زمن طويل . (رسالة الى انجلز ، نوفمـبر ١٨٦٣) . وكان بالمرستون يقود الحرب في تمهل ، ولم يكـن يريدها جدياً ، وانما كان يرمي الى ارغام القيصر على التخلي عن اطماعه في القسطنطينية ولكنه كان يحرص على ان لا يزعزع اركان اكثر الدول الاوروبية رجعية (يعني روسية) وكان لمقالات ماركس دوي عظيم ، ونقلتها جميع الصحف الليبرالية في عهد الحملة على الديبلوماسية السرية .

ومن آب ١٨٥١ حتى تشرين الثاني ١٩٥٢ نشرت «النيويورك

تريبيون» ١٨ مقالاً في «الثورة ونقيض الثورة في المانية» وكانت بتوقيع ماركس ، بيد ان كاتبهـا هو انجلز . وهذه المقالات (ولم يكن ثمن احدها يتجاوز الجنيهين الاسترلينيين) لم ترد الفاقة عن ماركس ، فطرد هو وعائلته من منزلهم ، واضطروا —وهم سبعة— الى السكنى في غرفتين صغيرتين من حي «السوهو» وهو اكثر احياء لندن بؤساً وشقاء .

وكانت الاوبئة تتفشى في هذا الحي اكثر من تفشيهـا في الاحياء الاخرى... ومات ثلاثة من اطفال ماركس ، ولو لم يساعده انجلز لمات ماركس وعائلته جوعـاً . وقد دخل انجلز عاملاً بسيطاً في خدمة ابيه بمصنع الغزل الذي يملكه بمانشستر ، ومنذ ذلك الوقت كان يرسل الى صديقه جزءاً كبيراً من اجره. ومرت على ماركس ايام لم يكن يستطيع اثناءها الخروج من منزله ، لان ثيابه كانت لدى الدائن .

بيد انه كان له الجلد والصلابة وقوة البأس على متابعة مؤلفاته الاقتصادية وابحاثه العلمية. ولا شك في ان ما عانى ماركس من مختلف انواع المشقات أخر ظهور «كتاب رأس المال» بضع سنوات. غير ان الصعوبات لم تستطع منع ماركس من الاطلاع عـلى مجموعة ضخمة من الوثائق ، واستكمال نظريته قليلاً قليلاً .

لعل من الخطـأ ان ننسب هذا التأخير في صدور الكتـاب الى الصعوبات المادية وحدها ؛ ففي نيسان ١٨٥١ فكر ماركس في الانصراف الى وضع مؤلفه الضخم . وكان يحسب انه تكفيه

بضع اسابيع للاطلاع على ركام « الوثائق الاقتصادية » . وقد كتب الى « ويدمير » يذكره ، في تهكم ، بان الديموقراطيين البسطاء الذين كانوا يرون « ان النور يهبط عليهم من السماء » لم يكن عليهم بذل جهود كبيرة.

« كل شيء في الواقع، سهل » هكذا كان يردد دائماً ويليش الاشهر... غير ان ماركس كان يكتشف اكثر فأكثر ان لا شيء بسيط ، او بتعبير ادق ، ان البساطة ليست البتة الا في المظاهر التي تخفي تعقيد العنصر الانساني وتركيبه، هذا التعقيد الاكثر تضمناً لعناصر المعجزة والغرابة وجلائل الاشياء ، والاكثر غنى مما تصور قبلًا !...

وكان تأليف الكتاب يؤجل اسبوعاً فاسبوعاً، وعاماً فعاماً. فبعد ان ظن انه يفرغ منه عام ١٨٥١ ، كان يتوقف عن العمل فيه احياناً ، ولم ينصرف اليه كل الانصراف الا منذ عام ١٨٥٧ لماذا ؟ — لا مجال للشك في السبب وهو: ان ذلك العام كان عام **ازمة اقتصادية** .

فلقد وُجد ماركس امام مشكلة . فبعد ازمة ١٨٤٨ الاقتصادية والسياسية ، عاد المجتمع البورجوازي فثبَّت دعائمه ، ومن **الناحية السياسية** عادت الطبقة المسيطرة الى تعديل وضعها وتثبيته ، وتسوية موقفها ، بمساعدة الرجعيين الاشد سواداً ، والشذاذ والنفعيين الاكثر فساداً . ومن الناحية الاقتصادية (السكك الحديدية الخ...) وطّد غنى البورجوازية سيطرتها

توطيداً مشهوداً واضحاً للعيان . فأزمة ١٨٤٨ لم تكن لا ازمة دائمة ولا ازمة حاسمة نهائية تقضي على النظام الرأسمالي . فكيف كان ذلك ممكناً ؟

هذا مما حمل ماركس على التقرير بان القوانين الداخلية الصحيحة لهذا النظام كانت اكثر تعقيداً وتركيباً مما حسبه ماركس في البداءة، او بتعبير ادق، **ان هذا النظام له قوانينه الداخلية الصميمة** . وكان ماركس يتساءل بصورة خاصة : كيف تستطيع البورجوازية ان تجد الازدهار ، مرة ثانية ، بعد ان عانت عهد ازمة عميقة ؟ وبعد هذه المرحلة من الدمار الشامل، لمن تستطيع بيع منتجاتها ؟ وكيف يعود النظام الى السير ؟

يبدو ان ماركس بين عامي ١٨٥٠ و١٨٥٧ لم يستطع حل هذه المسائل . ولكي يستطيع معالجتها والتغلب عليها بالحل ، كان بحاجة الى **احداث جديدة** ، **والى طريقة** ، **الى منهج** . اما الاحداث فجاءت بها الازمة الاقتصادية التي نشبت بين ١٨٥٧ — ١٨٥٩ . واما الطريقة فكانت هي **طريقة** هيجل **الديالكتيكية** ، بعد ان استعادها ماركس ، فوضحها ، ودقق فيها، وطورها تطويراً عميقاً . ومن اللقاء بين الاحداث والطريقة، نشأت نظرية « **القيمة الزائدة** » La plus - value ؛ وهي — اي هذه النظرية — مفتاح علم الاجتماع العلمي Sociologie scientifique في مؤلف « رأس المال » وهي تظهر اول مرة في عام ١٨٥٩ في كتاب « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي »

وهذا يجعل من عام ١٨٥٩ عاماً حاسماً في تاريخ فكر ماركس، وفي نشأة المادية الديالكتيكية .

ولا يمكن ان يكون ماركس قد عاد الى اكتشاف الطريقة الديالكتيكية ، في هذه السنوات ، مصادفة . فنحن نذكر ولا شك ان ماركس حكم في كتابه « شقاء الفلسفة » بنقض الفلسفة الهيجلية جملة وتفصيلاً. ونذكر ان «انحطاط» الانسان او انحرافه عن جوهره الانساني son aliénation ، وتناقضاته ، لا تبدو، في مؤلفات تلك المرحلة من عمر ماركس ، **الا احداثاً ووقائع** يمكن ملاحظتها تجريبياً. بيد ان مراسلات ماركس وانجلز تدلنا على انه منذ ١٨٥٧ اخذ يعيد ماركس الى الديالكتيك بوصفه **طريقاً** ومنهجاً، المكان الذي سبق ان انكره عليه ، واجلاه عنه[١] .
وتختلف الطريقة العقلانية rationelle عن الملاحظة التجريبية ، بأن الاولى تنظر الى الوقائع انها **ظاهرات** . وتذهب الى انه يجب تحليل هذه الظاهرات ، لكي نكتشف فيها، ولكن تحت نقاب المظاهر، قوانين داخلية صميمة . والملاحظة التجريبية البسيطة لا تكفي . فيجب ان يذهب العلم الى اعمق من **الواقع المباشر والمعطى** ، لكي يدرك قانونه . والتحليل يتطلب **طريقة** ، وهي التعبير النهائي الاعلى عن العقل، وأول مبدأين من مبادىء الطريقة،

---

(١) رسائل اوردنا بعضها في كتابنا المادية الديالكتيكية وسوف نوردها كاملة في الجزء الثالث من « بحث في المادية الديالكتيكية » وهو قيد الاعداد.

هـ . ل.

التي تتخلص عندئذ في ذهن ماركس من غلافها الغيبي الميتافيزيكي والمثالي وهو غلاف ظلت تتلفع به عند هيجل ؛ هما :

أ – عدم **الفصل** بين مختلف جوانب حـــدث واقعي من الاحداث، وبين مختلف العناصر التي تؤلف كلا معيناً، وادراك هذا « الكل » في تفاعل عناصره، مجتنبين تحطيمه في الفكر ، في الذهن ، ومجتنبين اهمال بعض جوانب المسألة ، وفصم **العلاقات.** وعلى العكس ، يجب فهم هذه العلاقات دائماً في مجموعها وفهم حركة هذا المجموع .

ب – وعلى نحو اكثر تحديداً، يجب عدم الفصل بين مختلف الجوانب **المتناقضة** في حدث واقعي واحد ، او في كل واحد : وعلى العكس ، يجب ان نفهم ، ونحسن الفهم، بأن هذه المناقضة انما هي موجودة فقط بسبب تفاعلها ، وتبادل التأثير فيما بينها ، وبسبب **المصادمة** او التنازع الذي يقيم احدهمـــا ضد الآخر في داخل المجموع الذي هما جزءان منه ؛ هذا التنازع الذي يُعَيّن حركة هذا المجموع . (بدون تناقضات ، بدون مصادمات ومنازعات ، وكيف ولماذا يكون ثمة حركة ؟ ان ما ليس متناقضاً في ذاته يلبث في هدوء ، وهذا الهدوء امـا ان يكون توازناً ، او ركوداً !...)

وسوف نرى ان مقدمة كتاب « راس المال » تتبنى هذا التجديد للديالكتيك الهيجلي ، فيما هي تلح على توكيد نقطة مهمة،

وهي ان الطريقة العقلانية لا تنفصل هي نفسهـــا عن محتوى le contenu الاحداث الواقعية التي نطبقها عليها . انها لا تسمح بأن نبني هذه الوقائع في ذهن الفيلسوف ، بوساطة جهد مجرد ، (تأملي، ميتافيزيكي) وهذه الطريقة لا معنى لها الا مع الاحداث هي نفسها ، بوصفها طريقة لتحليل **المحسوس** .

وهكذا «فالتناقض الهيجلي هو حقاً منبع كل ديالكتيكية». (رأس المـــال – ١) بيد ان الطريقة الماركسية لم تعد هي طريقة هيجل . لان الطريقة الماركسية مـــادية . وهي تحرر الديالكتيك الهيجلي من شكله التأملي ، المجرد ، المثالي . وهي تطبقه، بعد ذلك ، على الاحداث الواقعية ، على المحتوى المعطى في الطبيعة والتاريخ . والطريقة هي نفسها لا تصدر عن الفكر المحض . فهي تتخذ لذاتها صيغة ، منذ ابتداء التجربة الانسانية ، وفي لحظة معينة من عملية التطور الاجتماعي . وهي تتدفق من هذا النمو التطوري ـ النمو الطبيعي ، الموضوعي ، اللاواعي في البدء ، او الواعي ذاتـه في الاشكال الايديولوجية الموهومة ، والذي يضحي في لحظة معينة ، واثر بعض الشروط التاريخية ، واعياً ذاته اكمل الوعي .

«ان طريقتي الديالكتيكية لا تختلف باسمها وحدها عن الطريقة الهيجلية ؛ وانما هي هي هذه الطريقة نفسها معكوسة ، مباشرة . ففي نظر هيجل نرى عملية التفكير هي نفسها ـ وهيجل باطلاقه عليها اسم « الفكرة المطلقة ، L'Idée » يغـيّرها الى موضوع

مجرد مطلق – اقول نرى ان عملية التفكير تضحي هي نفسها في نظر هيجل خالقة الواقع ، وهذا ليس – في نظر هيجل – الا مظهرها الخارجي !... اما انا فأرى ، على العكس، ان الافكار ليست شيئاً غير الاشياء المادية منعكسة او منقولة الى اذهان البشر... »

ان الاوهام التي يعانيها الديالكتيك على يدي هيجل لا تنفي اطلاقاً انه اول من عرض الاشكال العامة الديالكتيكية في التطور ، بصورة كاملة ، واعية . ويتابع ماركس ، رغم ذلك « بان الديالكتيك الهيجلي يقف على رأسه . » يعني ان الحركة الحقيقية للاحداث ، في الطبيعة وفي التاريخ ، انما هي مقلوبة ، عند هيجل ، بما انها – في نظره – مرتبطة « بالفكرة المطلقة » وبما ان المحسوس يكون على هذا النحو موضوعاً في شكل مجرد. ولكي نعود ، فنجد المحسوس في حركته ، ولكي تضحي الطريقة الديالكتيكية التعبير عن هذا المحسوس ، وتعطي العالِم القدرة على اكتناه هذا المحسوس ، يجب، في البدء ، «قلب Renverser » الديالكتيك الهيجلي ، وانهاضه على قدميه ، و « اكتشاف النواة العقلانية تحت الغلاف الصوفي الروحاني . »

كان الديالكتيك ، في شكله الصوفي ، الروحاني ، الزي الشائع في الفلسفة الهيجلية . وعلى العكس ، كان الديالكتيك ، في شكله العقلاني، فضيحة وعاراً في نظر البورجوازية والمذهبيين من الناطقين بلسانها ، ذلك لان الديالكتيك يقضي ، في فهمه

الايجابي للاشياء الراهنة ، بفهم نقيض هذه الاشياء ، ونفيها ، وزوالها الحتمي الضروري - ذلك لان الديالكتيك يدرك جميع الاشكال في حركتها ، اذن : من جانبها العابر المتحول... - ولان الديالكتيك لا يرضى بأن يخضع لشيء ، ولانه من حيث جوهره نقدي ، ثوري...

يبدأ البورجوازي في فهم حركة المجتمع الرأسمالي المتناقضة، وفهمها على اوضح شكل ، بوساطة الحركة الدورية والمتواترة ، تلك التي تتبعها الصناعة الحديثة والتي نرى اعلى ذروة فيها ازمتها الشاملة.. (مقدمة كتاب « رأس المال » — الطبعة الثانية) .

والطريقة الديالكتيكية ، المستخدمة على هذا النحو ، تمنحنا القدرة « على التجريد » التي تلعب في العالم الاجتماعي دور المجهر او الـالمفاعلات réactifs الكيماوية في علوم الطبيعة. وهذا التحليل وحده (وهو يبدو معقداً في نظر الرجل ذي الثقافة العادية) هو الذي ينفذ الى كنه بناء الواقع الداخلي، هذا البناء المتحرك والمتناقض.

والطريقة الديالكتيكية التي نعرّفها هذا التعريف ترتبط - اذن - حتماً بالواقع ، والحقيقي ، وترتبط بالنمو الطبيعي والمحسوس . وهي ليست الا التعبير عن هذا الواقع ، وعملية وعيه. وهي ترفع هذا الوعي - الذي هو نفسه خاضع لشروط - الى مرتبة الاداة العقلية ، ولكن دون ان تفصله عن محتواه، وعن الاحداث الواقعية والمحسوسة..

وهكذا نحس هنا – اذن – احساساً يتوقع نشوء العلاقة الاساسية التي تربط **المادية التاريخية بالطريقة الديالكتيكية**، تلك التي راجعها ماركس وقوّمها .

ولذا كانت اللحظة التي وعى فيها ماركس طريقته هي ايضا لحظة تعبيره عن المادية التاريخية اوضح تعبير ممكن ؛ ولنذكّر هنا بهذا النص الذي اوردنا بعضه :

« ان اول عمل عمدت اليه لحل الشكوك التي كانت تساورني، كان مراجعة نقدية لكتاب « **فلسفة الحقوق** » لهيجل . وافضت ابحاثي الى هذه النتيجة وهي ان العلاقات التشريعية – واشكال الدولة ايضاً – لا يمكن فهمها لا بذاتها ، ولا بالتطور العام المزعوم في العقل البشري ، وانما هي – على العكس – تتخذ جذورها من شروط المعيشة المادية التي يشير اليها هيجل (مقتدياً بفرنسيي وانكليز القرن الثامن عشر) ويجملها تحت اسم «المجتمع المدني sociéité civile » . ولكن يجب البحث عن **تشريح** المجتمع المدني في الاقتصاد السياسي... والنتيجة العامة التي بلغتها، والتي ما ان بلغتها حتى استخدمتها سلكاً هادياً في دراستي ، يمكن التعبير عنها ايجازا بهذه الكلمات : يدخل البشر ، اثناء الانتاج الاجتماعي لشروط معيشتهم ، في علاقات الانتاج التي تطابق درجة نمو تطوري معيَّنة ، في قواها المنتجة المادية . ومجموع علاقات الانتاج هذه يكوّن البناء الاقتصادي للمجتمع ، يعني القاعدة الحقيقية التي يُشاد عليها بناء فوقي ، حقوقي ،

وسياسي ، والتي تطابقها اشكال من الوعي الاجتماعي ، معيّنة . ان نمط انتاج الحياة المادية يحتم نمو الحياة نمواً تطورياً ، اجتماعياً، وسياسياً ، وعقلياً ، على نحو شامل. ليس وعي البشر هو الذي يحدد كيانهم ؛ وانما – على العكس – كائنهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم . والقوى المنتجة المادية ، في مجتمع مـــا ، تدخل (في مرحلة معينة من مراحل نموها التطوري) في تناقض مع علاقات الانتاج القائمة، او (وهذا ليس الا التعبير التشريعي الحقوقي) مع علاقات الملكية التي تحركت في نطاقها حتى ذلك الزمن . وهذه العلاقات تتحول . فبعد ان كانت اشكال تطور ونمو للقوى المنتجة ، تصبح الآن عوائق في سبيلهـا وعقبات . وعندئذ يستهل عهد من الثورة الاجتماعية . والتغير الذي يطرأ على القاعدة الاقتصادية يحدث انقلاباً (بدرجة تتراوح في السرعة والبطء) في جميع اجزاء البناء الفوقي الضخم . وحين نمعن النظر في مثل هذه التغييرات يجب ان نميز دوماً بين الانقلاب المادي في الشروط الاقتصادية للانتاج ، ـ التي نستطيع ملاحظتها بامانة بوساطة علوم الطبيعــة ـ وبين الاشكال التشريعية ، والسياسية والدينيــة والفنية والفلسفية . وباختصار نقول : يجب ان نتميز دائماً الاشكال الايديولوجية الفكرية التي يعي البشر من خلالهـا هذه المنازعة ويمضون فيها الى نهايتها . وكما انه لا يمكن اطلاقاً الحكم على فرد وفقاً للفكرة التي يكوّنها هو عن نفسه ، كذلك لا يمكن ان نحكم على هذا العهد من الانقلابات والتغييرات وفقاً لطريقته في وعي ذاتــه : بل يجب ، على العكس ، تفسير هذا

الوعي بتناقضات الحياة المادية ، وبالمنازعة الموجودة فعلاً بين القوى المنتجة الاجتماعية وعلاقات الانتاج . وبعد ان نرسم صورة موجزة لانماط الانتاج (من آسيوية، ويونانية، ورومانية، واقطاعية وبورجوازية حديثة) يمكن الاشارة اليها بانها كذلك عصور متعاقبة ، لنشأة المجتمع الاقتصادية . اذن فالعلاقة ترتسم كما يلي :

ان الحركة التاريخية ، بما هي عملية نمو تطورية طبيعية ، وشأنها في ذلك شأن اي نمو تطوري طبيعي آخر، تجري مراحلها خلال تناقضات . والتناقض شيء واقعي : انه قانون من قوانين الطبيعة . فبدون تناقضات لا يمكن ان تكون الحركة ، ولا التغير ،وسواء أكان ذلك في الطبيعة ام في التاريخ، فالتناقض هو القانون **الداخلي** لكل تغير . فالطبيعة والتاريخ يخضعان ـ اذن ـ لقوانين اساسية واحدة .

ان الطريقة الديالكتيكية تعترف بالدور الاساسي الذي تقوم به التناقضات في كل واقع متغير ، حي . والفكر ، اذ يتسلح بهذه المعرفة ، يجهد ــ اذن ــ على نحو منهجي ، لاكتشاف التناقضات الواقعية الحقيقية ، بدلاً من اصدار قرار مسبق ، قبل البحث ، يقضي بان كل تناقض ليس الا وهماً ، ومحالية غير معقولة. والفكر يجهد ـ اذن ـ مستخدماً هذه الطريقة ، لتعيين العلاقات بين جميع العناصر والجوانب التي يتألف منها الواقع ، بدلاً من دراسة كل منها على حدة . وبعزل الموجودات ،

وبدراسة البعض خارج اطار البعض الآخر ، من الواضح ان نعجز عن فهم منازعاتها وتناقضاتها العميقة ، بما ان كل معركة انما هي علاقة ، وبما ان الديالكتيك يرى ان العلاقات الاكثر عمقاً ، والاكثر صميمية داخلية ، هي منازعات ، او تتضمن امكان منازعات . واخيراً فالطريقة الديالكتيكية تجهد لالتقاط او اكتشاف الحركة في كل شيء ، ابتداء من جذر هذه الحركة واصلها ، وفي اتجاهها العميق .

ونوضح هـــذه الافكار بامثلة بسيطة سبق لنا استخدامها في الصفحات السالفة : البر ، والبحر ؛ والنهر ، والوادي ، هذه كلها لا يمكن دراستها منفصلاً واحداً عن الآخر ، اي كل واحد في معزل عن الآخر ، وكل واحد خارج نطاق الآخر ، فمعركتها المستديمة ، التي لا تنقطع ، تعين خط الساحل ، او خط الضفاف . وهـذه المعركة الطبيعية : – الواحـد يعترض الآخر ، والآخر يقاوم – انما هي جوهرية في الواقع ، أساسية في اهميتها ، يعني ان فهمها ضروري لفهم الواقع . انها علاقة عميقة «صميمية ، داخلية» بدونها لا نستطيع ان نفهم شيئاً . وهذا ايضاً يصح في علاقة الرجل بالمرأة ، علاقة البورجوازية او البروليتاريا ، الخ... الخ.. والصعوبة تأتي من انه يصعب الاقرار ، اول وهلة ، بأن المنازعة (التناقض) ينطوي على وحدة ، يتضمن وحدة . ورغم هذا فليس ثمة نهر ، بلا مجرى ، ولا مجرى بلا نهر الخ... وهكذا يجدر بنا ان نحسن الملاحظة بأن الموجوادت المتنازعة ، اثناء تنازعها

هو ذاته ، ليس لها حدود مطلقة ، حاسمة : فشاطيء البحر ، وضفاف النهر ، هي دائماً متغيرة ، غير مستقرة الحدود . وهكذا الحياة والموت ، هذان المتناقضان النهائيان ، هما دائماً في تعارك محتدم . ولكن بعضها يتحول دائماً الى البعض الآخر ، دون حدود فاصلة ، نهائية. من المستحيل الحياة ، دون ان تقتل كائنات حية أخرى ؛ وكل حي يمضي نحو موته ، ويموت قليلاً كل لحظة ، بسبب من انه يتغير ويتقدم في السن ... فالديالكتيك يلاحظ ـ اذن ـ تجريبياً التناقضات ، ويعتبرها احداثاً واقعية . ولكنه يرفع هذه الملاحظة الى مستوى **طريقة عقلانية** ، **منهج عقلاني** ، اكثر مرونة ، واكثر اتساعاً من سائر الطرق العلمية القديمة .

وتجدر بنا الملاحظة بان ماركس ، في اللحظة نفسها التي استعاد فيها الديالكتيك ، وحدد (في خطوط كبرى) علاقاته بالمادية التاريخية التي اكتشفها من قبل ، في هذه اللحظة كان يتراءى لماركس امكان تطبيق الديالكتيك على جميع الحقائق الواقعية .

ونورد هنا عن هذه النقاط المهمة ، نصاً يكاد يكون مجهولاً ، يعود بتاريخه الى ذلك العهد ، وقد لخص فيه ماركس اكتشافاته تلخيصاً مركزاً ، عميقاً :

« الانتاج ، وسائل الانتاج ، وعلاقات الانتاج ، وعلاقات التوزيع . اشكال الدولة ، والملكية في علاقاتها بعلاقات الانتاج والتوزيع . العلاقات الحقوقية التشريعية ، العلاقات العائلية . »

« **ملاحظة مهمة** : فيما يختص بالنقاط الواجب ايرادها هنا والتي لا يجدر بي اهمالها :

« ١ – تنمو الحرب باسرع من نمو السلم . (ويجدر عرض هذا) : كيف ان بعض العلاقات الاقتصادية ، كالعمل بالاجرة، ومجموعة الآلات Machinerie الخ ... بوساطة الحرب وفي الجيوش ... الخ ... كيف ان كل هذه تنمو باسرع من نموها داخل اطار المجتمع البورجوازي ، وكذلك ، فعلاقة الطاقة المنتجة، بوسائل المواصلات، واضح في الجيش، بل بارز الوضوح»

« ٢ – علاقة التاريخ المثالي ، حتى يومنا هذا ، بالتاريخ الواقعي . وبخاصة ، تاريخ الحضارة ذلك المزعوم . والتاريخ القديم . (تاريخ الدين ، والدول ...)

« وبهذه المناسبة، يمكننا ان نكون شيئاً في موضوع مختلف الانماط والطرائق التي كتب بها التاريخ حتى يومنا هذا، ومنها: الطريقة التي تسمي نفسها « موضوعية » ، والطريقة الذاتية (« الاخلاقية » وسواها ..) والطريقة الفلسفية .

« ٣ – احداث ثانوية، او تأتي في المرتبة الثانية – من ناحية عامة ، علاقات انتاج مشتقة ، منقولة ، غير اولية . وهنا تدخل العلاقات بين الامم الى مسرح العمل (يُبحث هذا الموضوع).

« ٤ – دراسة المادية وفقاً لهذا المفهوم – علاقاتها بالمادية الطبيعية ، او المادية التي تؤسس مفاهيمها على علوم الطبيعة naturaliste .

« ٥ – ديالكتيكية المفاهيم ـ القوة المنتجة (وسائل الانتاج) وعلاقات الانتاج، الديالكتيكية التي يجب تعيين حدودها والتي لا تستبعد التمييز الواقعي .

« ٦ – العلاقة المتباينة ، غير المتساوية ، بين نمو الانتاج المادي وسواه... » الانتاج الفني مثلًا، ومن ناحية عامة ، يجب ان تفهم فكرة التقدم ـ مفهوم التقدم ـ بطريقة التجريد المعتاد . فليس لهذا التباين، في حقل الفن مثلًا ، من الاهمية الكبرى ولا من الصعوبة في ادراكه ، كما هو في العلاقات العملية التطبيقية الاجتماعية هي نفسها . مثلًا ، العلاقة بين ثقافة الولايات المتحدة وثقافة اوروبة . والنقطة الصعبة حقاً، التي يجب علينا دراستها هنا ومناقشتها هي ان نعرف كيف يكون لعلاقات الانتاج ، بوصفها علاقات تشريعية نمو غير متساو (?) مثلًا علاقة الحقوق الرومانية الخاصة بالانتاج الروماني (وذلك يصح اقل، في الحق الجنائي ، والحق العام ، منه في سائر الحقول) .

« ٧ – يبدو هذا المفهوم بوصفه نمواً تطورياً ضرورياً ، ولكن يجب تبرير المصادفة . تغيرات (الحرية واشياء أُخرى ايضاً) . (أَثر وسائل المواصلات) والتاريخ الكوني الشامل لا يظهر دائماً في التاريخ ـ بمعناه الدقيق ـ اي كونه نتيجة للتاريخ الكوني الشامل .

« ٨ – يجب ان نتخذ نقطة الانطلاق ، طبعاً ، في الحتمية الطبيعية : الموضوعية ، والذاتية ، قبائل ، واجناس الخ..

« والمعروف في الفن ، ان بعض عهود الازدهار المعنية ليس لها اي علاقة بالتطور العام للمجتمع . ولا علاقة لها ـ أخيراً ـ بالقاعدة المادية ، بالهيكل المادي ـ اذا صح التعبير ـ للنظام العضوي الاجتماعي .

مثلاً : الاغريق حين نقارنهم بالمحدثين او بشكسبير ـ في ما يختص ببعض اشكال الفن مثلاً : الملحمة ؛ اذ ان الرأي مجمع على انه يمكن انتاج هذه الاشكال الفنية المعيّنة ، في شكلها النهجي التقليدي (الكلاسيكي) كما ذاعت صيغته واشتهرت ، اقول يصبح من المستحيل انتاج هذه الاشكال ، في هذا الاسلوب، منذ ان يظهر الانتاج الفني الخليق بهذا الاسم. وهذا يعني ـ اذن ـ ان بعض الاشكال الفنية المهمة ، ليست ممكنة ، في حقل الفن نفسه ، الا عند درجة متدنية من سلم التطور الفني !... — فان كان هذا صحيحاً في العلاقة بين مختلف اشكال الفن في حقل الفن نفسه ، فليس ما يحمل على العجب اذا صح هذا اكثر فاكثر في ما يختص بالعلاقة بين حقل الفن كله ، وبين التطور الاجتماعي العام . — وتنحصر الصعوبة فقط في التعبير، من ناحية عامة، عن هذه التناقضات — . وما ان تتحدد نوعيتها حتى يسهل تفسيرها. ولنأخذ مثلاً علاقة الفن الاغريقي (ثم الفن الشكسبيري) بالزمن الحاضر . فنحن نعلم ان الميثولوجية الاغريقيه لم تكن فقط ترسانة الفن الاغريقي ، وانما كانت هي ايضاً الارض التي حضنته. وهل يمكن تصور الطبيعة كما تصورتها

المخيلة الاغريقية ، بل الفن الاغريقي، هل يظل هذا التصور ممكناً مع الآلات الاتوماتيكية ، والسكك الحديدية ، والقاطرات ، والبرق الكهربائي ؟ وما فولكان ازاء روبرتس وشركاه ، وما جوبتر ازاء مانعة الصواعق ؛ وما هرمس ازاء المؤسسات الحديثة الضخمة. ان كل ميثولوجية تهيمن، وتكيّف، وتسيطر على قوى الطبيعة في الخيال ، وبوساطة الخيال . وهي تزول - اذن ـ حين تخضع هذه القوى فعلاً لسيطرة الانسان .

« ان الفن الاغريقي يفترض وجود الميثولوجية الاغريقية ، يعني طبيعة المجتمع ، وشكله ، كما كيفتهما الاهواء الشعبية تكييفاً فنياً ، انسياقاً مع حركة لا واعية... هذه هي المواد التي شُيد بها الفن . ولم يشيَّد الفن بميثولوجية معينة ، ولا كان صيغة جاءت فنية ، على نحو غير واع (وهذا يتضمن كل ما هو موضوع ، ومادة ، اذن : المجتمع ايضاً) وما كان للميثولوجية المصرية ان تكون بيئة او حضناً للفن الاغريقي . ولكن كان **من الضروري** ، في كل الاحوال ، ان يوجد ثمة ميثولوجية .

ويترتب على هـذا ان الفن الاغريقي ما كان له ان ينشأ اطلاقاً في مرحلة من التطور الاجتماعي تستبعد كل علاقة اسطورية بالطبيعة ، وتنفي كل علاقة تنتج الميثولوجية ، مرحلة تطالب الفنان بخيال مستقل عن الاسطوره والميثولوجيا .

« ومن ناحية اخرى : هل يمكن تصور آخيل في عصر البارود والرصاص ؟ او ، من ناحية عامة ، هل من الممكن

نشوء حرب الالياذة في عهد الصحافة وآلات الطباعة ؟ والا تزول الاغاني والاساطير ، وربات الشعر ، حتماً ، في عهد الطباعة الآلية الضخمة ؟

« ثم الا نشاهد اليوم زوال الشروط الضرورية لوجود الشعر الملحمي ؟

« ولكن الصعوبة ليست في فهمنا ان الفن الاغريقي ، والملحمة ، مرتبطان ببعض اشكال التطور الاجتماعي ، وانما تنحصر الصعوبة في ان نفهم السر في احتفاظ هذه الفنون بالمقدرة على ارضاء حِسّنا الجمالي ، والسر في انها ما تزال تعتبر ، من بعض الوجوه، مقياساً ونموذجاً مثاليين، لا يمكن ادراكهما...

« لا يستطيع الانسان العودة الى الطفولة دون ان ينحرف... ولكن الا يبتهج بسذاجة الطفولة ، وألا يتحتم عليه هو نفسه الطموح الى مستوى انساني ارفع ، واستعادة حقيقته . وألا يعيش الطابع الخاص ، لكل عهد ، حقيقته الطبيعية ، في طبيعة الطفولة ؟ ولماذا لا يكون لطفولة الانسان الاجتماعية ، في اجمل طور من اطوارها ، سحر خالد ، بوصفه طوراً لن يعود ابداً ؟ ثمة اطفال سيئو التربية ، واطفال اكبر من اعمارهم الحقيقية . وكثير من الشعوب مثل هذه الفئة. ولكن الاغريق كانوا اطفالاً طبيعين ، والسحر الذي يأخذنا حيال فنهم لا يتناقض مع ضعف تطور المجتمع الذي نشأ فيه ذلك الفن . بل الاصح قولنا انه نتيجة عنه ، وهو مرتبط ، على نحو لا ينفصم ،

بواقع ان الشروط الاجتماعية غير الكاملة ، حيث ولد هذا الفن، وحيث كان حتماً عليه ان يولد ، لن تعود ابداً . »

هذا النص يعرض ـ اذن ـ تصميماً لمؤلف لم يكتب ، مؤلف كان ماركس يريد تطبيق طريقته في الحقول الاكثر تعقيداً وتركيباً ، والاكثر بعداً عن الاقتصاد السياسي .

فلنعمد بعد هذا الى دراسة كتاب « رأس المال » ، وليس قصدنا هنا ان ننقل تحليل المجتمع الرأسمالي ، بجميع تفاصيله ؛ وهذا المؤلَّف تستوعب ترجمته الفرنسية ٢٢ مجلداً افرد ماركس ١٤ منها لدراسة « رأس المال » بخاصة ، و ٨ مجلدات لتاريخ « المذاهب الاقتصادية » ؛ وكان ماركس يعدّه ليكون آخر قسم من اقسام «رأس المال» . وسوف نعمد فقط للاشارة الى المبادىء الاساسية .

القسم الثالث

« رأس المال »

١ – تحليل « راس المال »

في البـدء نتساءل : في اي شيء تنحصر – من النـاحية الاساسية – الحياة الاقتصادية في العهد الرأسمالي (يعني ان نترك جانباً الكيانات الاجتماعية السالفة) ؟ – انها تنحصر في **المبادلات**، انها تقوم على اساس **المبادلات**..

ووفقاً لملاحظة ابديناها في صفحة سالفة (في صدد برودون) ثمة من يعتقد ان كل تبادل للسلع (او مبـادلة في « الخدمات » كما يعبر الاقتصاديون في كثير من الاحيان) ينطوي على **معادلة** او تساوٍ ، فـاذا عمد احد الاشخاص لاستبدال كيس من القمح بمتر من القماش ، او بقطعة من النقود ، او بورقة مالية ، يفهم من هـذا جيداً ان كيس القمـح « **يساوي** » متر

القماش ، او كمية الفضة التي تدفع لقـــاءه . فان لم يكن القمح مساوياً لما يدفع فيه ، كانت عملية المبادلة غير مضبوطة ، وغير قانونية . ويكون جزء من الاجزاء قد « سُرِق » . وهذا ايضاً صحيح حين يتعلق الامر بتبـــادل « الخدمات » : حين يستخـدم احد الاشخاص عامـلاً ، يدفـع له اجرة كذا من ساعات العمل ، والمفهوم جيداً هنـــا ان ساعات العمل هذه « تساوي » المال الذي يدفعه صاحب العمل لقاءها ، عند المبادلة.

تبدو الحياة الاقتصادية ـ اذن ـ كأنها نظـــام شاسع من « المبادلات المتعادلة المتساوية » كأنهـــا حركة دوران ضخمة لاشياء متعادلة، (بما فيهامن « الخدمات » ، « والعمل » المنظور اليها ، أخيراً ، أنها اشياء ، وعلى الصعيد نفسه ، صعيد الاشياء ، كالبضائع والسلع ، والمال ، الخ . . .)

هذه هي ، بالضبط ، «الخصائص » التي وجدها ، منذ البدء، الاقتصاديون غير الماركسيين — يعني غير الديالكتيكيين — ، للحياة الاقتصادية ، بل ان اتجاههم في هذا السبيل ، يشتد اكثر فأكثر . . .

بيد ان الحياة الاقتصادية **لا يمكن ردهـــا الى تبادل بين متعادلات** (يعني لا يمكن اعتبارها مبادلة بين قيم متساوية)

ولنفترض ان هذا صحيح . فمجموع البضـائع المنتجة خلال زمن معين يتطلب ـ اذن ـ دفع كمية معينة من المال ، بمثابة

اجور (ولنسمها « ق ») وكذلك يجب ان يحصّل اصحاب المشروع (الرأسماليون) ربحاً معيناً (نسميه « ق. ز » يعني « القيمة الزائدة » وسوف نرى لماذا نسميه بهذا الاسم .)

وحسَب الرأي الذي يفترض عمليات مبادلة بين قيم متعادلة متساوية، يجب ان تكون « ق » وَ « ق. ز » متساويين كل التساوي ، وأدق التساوي مع حصة كل من المساهمين في انتاج المنتوج الاجمالي « م » . وَ « ق » دفعت ثمن العمل بقيمته الحقيقية ، وَ « ق. ز » دفعت الثمن الحقيقي لمبادرة الرأسمالي ، او كافأته لانه وفر الرساميل الموظفة في المشروع ، او لانه كان يملك مجموعة الادوات المستخدمة في العمل، او لانه كذلك يدير المشروع ويوجهه ، يعني ، بكلمة موجزة ، جميع ما يطلق عليه الاقتصاديون السطحيون العاديون اسم «الخدمات» Les services التي يقوم بها . حصلنا الآن اذن على نتيجة هي تماماً : م = ق + ق. ز. اذن فكل سلعة منتجة لا بد لها ان تجد من يشتريها ، ولا بد لها ان تجد اشخاصاً يملكون وسائل الدفع الضرورية. فالرأسماليون سوف يشترون حصتهم من «م» بكمية المال « ق » . وتظهر الحياة الاقتصادية ، حسب هذه الفرضية ، **مجموعة متناسقة منسجمة او كلاً متناسقاً منسجماً** . وقانونها يبدو قانوناً اقتصادياً في غاية ما يمكن من البساطة والجمال، وفي غاية ما يمكن من التجرد عن التناقضات . هذه اشياء متماثلة اقتصادياً ، متعادلة ، متساوية ، تسري وتنتشر وتتبادل

اوتوماتيكياً ، بعضها لقاء البعض الآخر...

لو كان كان الامر يجري على هذا النحو ، **لكانت ازمات تزايد الانتاج (او فيض الانتاج عن الطلب)** Surproductien **مستحيلة** . فلو حدث ، مصادفة ، تزايد في الانتاج ، فلا يمكن ان يكون ذلك الا... ظاهرة مؤقتة ، « غير طبيعية » سببها مثلًا، مبادرة سياسية خاطئة ، ادت الى منع القانون الاقتصادي من ان يعمل عمله **الطبيعي** . وهكذا فالقاعدة الاساسية لهذا الاقتصاد «السطحي » كانت : عدم « تدخل الدولة في الاحداث الاقتصادية ». وهكذا فلتنسحب من الطريق، الدولة، والمصالح « الخاصة » التي يمكن ان تعرقل سير الاحداث الاقتصادية الطبيعية !... والدورة الطبيعية للقانون الاقتصادي تعيد، مجدداً، التوازن الداخلي الطبيعي للاقتصاد الرأسمالي، وتعيد اليه انسجامه الطبيعي الخالد !... وبعد حدوث الظاهرات غير « الطبيعية » والشاذة ، كالحروب ، يجب ان نفسح المجال ليعود الانسجام والتناسق ! والدولة تستطيع ، في اكثر تقدير ، بل يجب ان تتدخل في هذا الاتجاه، لكي تساعد على اعادة الوضع «الطبيعي»، واحباط مساعي اولئك الذين قد تكون لهم مصلحة ما ، في اطالة عمر الوضع « غير الطبيعي » .

يلاحظ ماركس بان هذه النظرية قابلة للنقض ، لا بالنسبة الى هذه الازمة الاقتصادية او تلك (ذلك لان الاقتصاديين السطحيين العاديين يتوصلون احياناً ، وبدرجة تختلف بمقدار

حظها من الوضوح، الى تفسير كل ازمة من الازمات ، منعزلة، بانها حدث شاذ ، « غير طبيعي ») . بل ان هذه النظرية قابلة للنقض بسبب من **انتظام فترات الازمات** ، **ودوريتها** ، وعودتها كل ٨ الى ١٠ سنوات، تدل على انْ ثمة هنا حدث واقعي قياسي طبيعي normal ، خاضع لقوانين . ويجب ، لتفسير الازمات الدورية، ان يكون ثمة في الحياة الاقتصادية ، شيء غير «هذا النظام الشاسع المتناسق من المبادلات المتعادلة . »

يجب ان تكون المبادلة بين القيم المتعادلة ، في الرأسمالية الصناعية ، **مظهرا او ظاهرا** يختفي وراءه شيء اعمق ، شيء **متناقض** في ذاته .

واذا فكرنا ، من ناحية ثانية ، وانعمنا النظر في هذا اللغز الاول من الغاز الرأسمالية الصناعية : ـ الازمات الدورية ـ وجدنا ان الربح profit يضيف لغزاً جديداً، في الدرجة الاولى من الاهمية .

لا يمكن ان ينشأ الربح من عملية المبادلة هي نفسها، بما اننا نفترض وفقاً للنظرية التي اوردناها ، ان المبادلة تقوم على دوران القيم المتعادلة المتساوية .

ولو كان التاجر او الصناعي يحققان الربح ، ببيعهما بسعر اكثر ، ما اشترياه بسعر أدنى ، لكان الربح بمثابة سرقة واضحة. ولكن هذا التفسير يسقط، بسبب واقع هو ان المشترين هم ايضاً

بائعون ، وهم يخسرون بوصفهم مشترين ، مـــا ربحوه بوصفهم بائعين ، اذن فالربح لا يمكن تفسيره ، لا بتبـــادل المنتجات بقيمتها الحقيقية – كما لا يمكن تفسيره بعمليات خرق مستمرة لهذا القانون (قانون المبادلة التعادلية) تشكل في النهـاية مـا يشبه عملية النهب الدائم ، لمصلحة الرأسماليين . ويُتساءل : افلا تكفي تقلبات العرض والطلب لكي تفسر تفسيراً كافيـاً امكان تحقيق ربح لأولئك الذين يحسنون الافادة من ارتفاع الاسعار ؟ – ولكن هـذا السؤال يقر بان هذه التقلبـــات تتخطى قانون « التعادل » فلا يكون ثمن سلعة من السلع خاضعاً عندئذ الا للمناسبات والظروف، لا « لقيمة » معينة محـددة . وهكـذا يمكن تفسير الربح ، ولكن بالتخلي عن كل قانون : وعندئذ يبدو النظام الاقتصادي كله كأنه ساحة شاسعة سخيفة « لا قانون لها الا السرقة والنهب !!! »

وليس هذا واقعاً، ولا يمكن ان يكون ؛ بما ان هذا النظام الاقتصـــادي يعمل عمله ، بصورة طبيعية ، يعني ان له قوانينه الداخلية . وحين نريد ان نفسر الربح الرأسمـالي هذا التفسير ، نكون قد ادخلنا الى النظام الرأسمالي مفاهيم التناقض والصراع ، في شكل مضحك ، غير معقول ، وغير قائم على اساس... وفي الواقع ، نرى ان اسعار كل سلعة، والتقلبات التي يحددها العرض والطلب ، تتراوح بين بعض الحـــدود ؛ والسعر الوَسَطِيّ le prix moyen لسلعـــة من السلـع ، هو ، **تقريبـــاً**

معروف سلفاً ، كما يبين ماركس ، إثْرَ كبار الاقتصاديين النهجيين ، وهذا السعر الوَسَطي هو الذي يحدد الطلب بما انه ليس محدداً من قِبَل الطلب . وهل نذهب مذهب بعض الاقتصاديين في ان الربح يكافيء عمل الرأسمالي ـ او يكافيء تقتير الرأسمالي على نفسه ، يعني يكافئه لانه لم ينفق رأسماله ، وانما هو على العكس ، وظَّفه ، وغامر به في الانتاج ؟

ولكن التجربة تدل على ان كثيراً من الرأسماليين يحققون من الارباح بمقدار ما يكسلون ! ومن ناحية ثانية ، يختلط تقتير الرأسمالي بظمئه الى ارباح جديدة ، وقد يطول بنا حديث الاقتصاديين الذين يميلون الى القاء طابع المثالية على الربح بتسميته اسماء اخلاقية (كالتقشف، والزهد، والصبر ، والمصابرة الخ ...) اضف الى ذلك ان القسم من رأس المال ، الذي يستطيع الرأسمالي استهلاكه ، والقسم الذي يستطيع توظيفه في المشروع – ان هذين القسمين تحددهما عوامل مستقلة عن ارادة الرأسمالي : فهناك وضْع مشروعه، واوضاع المشروعات بصورة عامة ، وهناك حال السوق... الخ... واخيراً فالتقتير او التقشف لا ينتج شيئاً : فآرباغون Harpagon (بخيل رواية موليير) كان هو ايضاً متقشفاً مُقتّراً ، ولم يكن « يستهلك » رأس ماله .

وقد يقال ان الربح ناتج عن ان الرأسمالي يملك آلات وادوات ؟ وهذا صحيح، بمعنى من المعاني. فالرأسمالي لا يتوصل

الى تحقيق الربح الا ببيعه سلعاً منتَجة بوساطة مجموعة الادوات التي يملكها ، والتي وظف فيها امواله ، والتي تبلى تدريجياً qui s'use اثناء عملية الانتـــاج . ولكن باي معنى تتدخل الادوات في عملية الانتاج هذه ؟ فالآلات ، في ذاتهـا ، جامدة ، لا حيـاة فيها . انها ليست الا منتوج عمل سابق ، وتتطلب ، لامكان استخدامها، عملاً حياً. اليست هي تدر الربح لانها تتيح استخدام هذا العمل الحي ؟ وماركس يقيم الدليل ، بدقة متناهية ، على ان بِلى Usure الآلة ، هو وحده الذي ينتقل ، بتعـــادل دقيق جديداً ، الى قيمة المنتوج (وبتعـابير رأسمالية : ان البِـلى Usure يدخل في تكاليف الانتاج) اذن فاستخدام الآلة ، على هذا النحو، لا يملك اطلاقاً الطاقة السحرية على خلق القيمة La valeur ، وخلق الربح .

يظل اللغز كله قائماً . وهذا ، كما يقول ماركس ، هو « السر الاجتماعي » الذي يختفي خلف مظاهر الحياة الاقتصادية، البسيطة ، المنسجمة .

ولتفسير الربح ، وتزايد الانتـاج Superproduction ، والازمات ، يجب اختراق حجـــاب المظاهر ، وبلوغ الجوهر Essence ، جوهر الرأسمالية ، وكشف اسرارها ، وتسليط الضوء على تناقضاتها وقوانينها المعقدة المركبة العميقة .

فلا غنى – اذن – عن **الطريقة الديالكتيكية** للوصول الى معرفة الرأسمالية . والواقع انه يجب ، ويكفي ، لتفسير هذه

الاحداث ، ان تكون المبادلات بين المتعادِلات تغطي وتخفي مبادلات غير متعادلة – وان تكون ثمة أشياء (ينظر اليها في اتجاهٍ ما، انها متعادلة متساوية) هي غير متساوية ، ولا متعادلة، من ناحية ثانية . والطريقة المادية الديالكتيكية وحدها يمكن ان تقر بوجود هذه التناقضات ويمكن ان تكتشفها في الواقع الاقتصادي والتاريخي والاجتماعي .

ولكن ، فلنعد الى ما اوردناه في صفحات سالفة . **ان قيمة سلعة من السلع تتحدد (او تتعين) موضوعياً بكمية العمل الاجتماعي الوسطي التي تمثلها** . واذا اردنا تبسيط الموضوع الى آخر حد ممكن نقول : اذا كان الاسكاف الاول ينفق ١٠ ساعات لصنع زوجين من الاحذية ، وكان الثاني ينفق عشرين ساعة لصنع هذين الزوجين ، فالزوجان يساويان ١٥ ساعة من العمل الاجتماعي الوَسطي . فالنقد او الفضة l'argent التي تحدد قيمتها بتكاليف انتاجها ، يعني بكمية العمل الاجتماعي الضروري لاستخراجها ، ونقلها ، وسكها ، هي المعادل العام لجميع السلع . وبتعابير أخرى نقول : ان أبسط مبادلة تجري ، تدلنا على حدوث عملية مساواة بين حقيقتين غير متساويتين في ذاتيهما. فعمل الاسكافين ، او عمل البنائين ، او النجارين الخ... هي غير متساوية **نوعياً** . ولكي يمكن تبادل المنتجات ، يجب ويكفي ان تصبح الاشياء المختلفة المتباينة (وهي النتائج المادية للاعمال المتباينة في نوعيتها) اقول يكفي ان تصبح هذه الاشياء

المتباينة ، متعادلة ، في وجه من الوجوه . وهذا الوجه **الكمي** بالضرورة، الذي يتجرد وينفصل عن المنتجات، اثر عمليه التبادل، ليس شيئـــاً غير **زمن العمل** . وتحت هذا المظهر يصبح من الممكن المقارنة بين هذه المنتجات ، ويمكن المقايسة بينها . وفي عملية المبادلة تحدث مجابهة — تحت ضغط المزاحمة — يعني: توزيع متساوٍ لاوقات العمل التي تتطلبها المنتجات اللامتناهية في نوعها وعددها . والمنفعة ، والندرة ، وميول المستهلكين النفسية ، ورغباتهم ، والعرض والطلب ، لها بعض الفعالية في الموضوع . غير انها تحدث تأثيرها في الاسعار ، لا في القيم valeurs .

وليس في هذه العملية اي عنصر من عناصر الشذوذ . فمنذ ان نعمد الى تعداد بسيط ، نجرد من الاشياء وجهـــاً **كمياً** quantitatif يتيح لنا مقارنتهـــا . فحين أعدد : « حجرتان، خروفان، قريتان. » فانما أطبق ، بنوع من التجريد المشروع، اسم العدد ذاته، على حقائق واضحة التباين والاختلاف فيما بينها.

بيد انه ثمة فرق عظيم بين المفهوم التجريدي «البضاعة» وبين المفهوم التجريدي «العدد» . فهذا التجريد الثاني [كلمة «عدد»] انما يتم على نحوٍ واعٍ ، مقصود ، ويجري في فكر اولئك الذين يتعلمون العدّ ، او الذين يعرفون العد . بينما نرى ان المفهوم التجريدي « البضاعة، تلك القيمة التبادلية » انما يحدث او يتحقق دون رقابة اصحاب العلاقة ، ودون وعيهم البين ، وهو يتحقق خـــارج ارادتهم ، بل هو يجري مثل نموّ تطوري تدريجي

وموضوعي . وهو يتم في السوق ، تحت ضغط المزاحمة ، يعني تحت ضغط القوى الاجتماعيـــة **الغريبة** عن وعي الافراد وعن ارادتهم .

منذ اواخر عهد المشاعية البدائية ، والمجتمع البطريركي – بتقدم التكنيك، وزيادة الطاقة الانتاجية على العمل، وبتقسيم العمل – وجد الافراد انفسهم مجَبَرين على ان يتخلوا عنجوهر منتَجات نشاط ، هو نفسه موزّع الى اجزاء وذَرّات .

وكانت بدأت ادوات العمل والمنتجات تصبح ملكية فردية، وغدا من المستحيل ان يتم العمل الاجتماعي – التبادل – الا ببيع المنتجات ، والتخلي عنهـــا ، عن جوهرها . والنشاطية الاجتماعية، (يعني عمل المجموع الاجتماعي) تدخل في تناقض مع النشاطية الخاصة ، المجزأة ، المحددة ، التي يتمتع بها كل فرد من الافراد . وهذا التناقض ، هذا الانحراف عن الجوهر العـــام الشامل ، Cette aliénation عبر عن ذاته في واقع هو انـ النشاطية الاجتماعية : السوق ، والعرض ، والطلب ، والمزاحمة، وتوزيع العمل الاجتماعي على الافراد ، بخراب الأقل مواهب ، والاقل حظاً ، بفعل مصادفات المزاحمة ، انمـــا تجري خارج الافراد، ولمصلحتهم، او ضد مصلحتهم وفقاً لظروف ومناسبات لا يمكن التنبؤ بها. ونجد هنا، ثانية، الصلة بين نظرية «الانحراف عن الجوهر » او الانحطـاط théorie de l'aliénation ونظرية الاوثان fétiches الاقتصادية .

ويطلق ماركس اسم fétiches على هذه الكيانات الاقتصادية الاجتماعية المجرّدة التي تُنسب اليها ، بحكم العادة ، حقيقة خارجة عن الكائنات البشرية ، بينما الامر يتعلق فقط بمنتَجات انسانية خرجت عن نطاق ارادة البشر ووعيهم ، ففي **البضاعة** ، وفي النقد ، (وهذان متصلان بتقسيم العمل ، وبالملكية الخاصة ، والتبادل) **انحرفت النشاطية** الانسانية وانزلقت عن جوهرها ، وصارت منتوجات الكائنات البشرية هي نفسها في نظرها ، اوثاناً . des fétiches

والمنتوجات التي انتجها البشر بأيديهم، أضحت هي نفسها، في نظرهم اوثاناً – كالذهب مثلاً – فراحوا يعبدونها وينسبون اليها قوة قائمة بذاتها ، وهذه الاوثان اكتسبت منذ ذلك الوقت هذه القوة بالفعل .

وهذه الاوثان تملأ بالاوهام الغريبة هذا العالم **الظاهري** ، الاقتصادي والاجتماعي ، الذي سبقت لنا الاشارة اليه . وهكذا يخيل الى الناظر ان المال يبادَل بالمال ، او ان المال يبادَل بأشياء « تساوي » قيمته ، بينما الواقع هو ان التبادل ينقل من يد الى يد ، عملاً انسانياً متجسداً في منتجات انسانية، ويتم هذا وفقاً لبعض النسب والعلاقات التاريخية والاجتماعية التي تكوّن بناء كل مجتمع متميز عن سواه . والاوثان تغطي وتقنع ، بمظهر وهمي ، الحدثَ الواقعي الاساسي ، وهو ان البشر هم الذين يعملون ، وهم الذين يكيفون العالم ، ويطورونه،

ويصنعونه، وهم الذين يصنعون التاريخ، بانماء طاقاتهم الاجتماعية، وعملهم في الكون .

ادرك آدم سميث ، وريكاردو ، ان العمل هو وحده اساس القيمة ، وان تحليل التبادل يكشف عن ان العمل هو جوهر النشاطية الانسانية . ولكنهما لم ينطلقا الى ابعد من هذا. لماذا؟ ذلك لانهما كانا يجهلان **الديالكتيك** . وهما ، لعجزهما عن معرفة تحليل المتناقضات ، تخبطا في هذه المتناقضات ، وفقدا الخيط المؤدي الى الغاية ، بعد ان اكتشفا طرفه في باديء الامر .

وكان يعوزهما ايضاً **النظرة الفلسفية** الى المجموع البشري ، ونظرية انحراف الانسان عن جوهره . وكانا يفتقران الى نظرة مادية واضحة للطبيعة والانسان . وما كانا ليريا بوضوح ان اول علاقة للانسان الحي بالطبيعة الواقعية التي يصارعها انما هي علاقة **تطبيقية عملية** : وان العمل (**اي الطاقة الانتاجية**) او القدرة على العمل ، تلعب دوراً اساسياً في التاريخ. وقد رأينا ، خلال هذه الدراسة ، كيف اكتسب ماركس عناصر هذه المعرفة بالانسان ، وكيف وضحها وجلاها . وهكذا اصبح قادراً على ان يستخرج من الاقتصاد المسمى بالاقتصاد النهجي (الكلاسيكي) موضوعاته القيمة الفعالة ، فيضيفها الى مناهج المعرفة بالانسان .

فعملية تبادل المنتجات ، هذه العملية البسيطة، تنكشف لنا — اذن — عن عملية معقدة مركبة ، تتطلب عملية « تسوية بين

عناصر اللامتساوي » يعني انها تتطلب حركة ديالكتيكية .

ويستمر تبادل المتعادلات المحددة بهذه الصورة ، دون ان يلاقي صعوبات خطيرة ، في نظام يعتمد على انتاج بسيط للسلع؛ مثلاً ، حين ينتج الحرفيون منتجاتهم ويبيعونها. ولكن الامر يختلف عن هذا اختلافاً تاماً حين يتعاظم مجموع الانتاج، ويضخم، ويدخل في قيمة النتاج ، على نحو مهم، وعندئذ ندخل في مرحلة الرأسمالية المانيفاكتورية والصناعية ، يعني مرحلة الرأسمالية الحقيقية (التي ظهرت اولى بوادرها ومظاهرها في القرنين السادس عشر والسابع عشر) وبالدرجة الاولى دخول إئتكال او بلى usure الادوات المستعملة ، الى قيمة النتاج ، وتكتب هذه القيمة (باستعمال الحروف التي سبق لنا استعمالها) :

م = ح + ق + ق. ز (وفي هذه المعادلة ، تشير « ح » الى حصة الآلات، و«ق» الى مجموع الاجور، و«ق.ز» الى الربح) ويطلق ماركس اسم « رأس المال الثابت » على هذه الحصة من رأس المال، التي توظف في مجموعة الادوات والآلات، وتوجد بكاملها ، ثانية ، في قيمة المنتوج . وماركس يطلق عليها هذا الاسم ، للتميز بينها وبين « رأس المال المتحرك » الذي « ينفقه » صاحب المشروع الرأسمالي لدفع الاجور ، والذي يعود عليه بالربح (بما ان **رأس المال الثابت** لا تتغير قيمته خلال عملية الانتاج ، وهو ـ رأس المال الثابت) يعني: مجموعة الآلات ـ ينتقل ، ببساطة الى المنتوج .

ويسمّي ماركس « التكوّن العضوي لرأس المال » نسبة رأس المال الثابت الى رأس المـــال المتحرك ، في مجمل اموال المشروع الرأسمالي . ويختلف التكون العضوي باختلاف فروع الانتاج. فبعضها لها تكون عضوي « سامٍ » يعني انه يتطلب كثيراً من الادوات والآلات ، وقليلاً ـ نسبيـاً ـ من اليد العاملة. وبعضها الآخر لها تكون عضوي « منخفض ». ولنقارن بين المنتوجين م و م١ الصادرين عن فرعين من فروع الصنـاعة يختلفان في تركيبهما العضوي :

م = ح + ق + ق. ز
م١ = ح١ + ق١ + ق. ز١

ح =|= ح١

وبما ان ح تختلف عن ح١ فان م يمكن ان تختلف عن م١ حتى ولو كانت العوامل الاخرى متساوية فيما بينها. (وبالعكس، حتى لو كانت العوامل الاخرى غير متساوية ، فاننـا نستطيع الحصول على ح = ح١) وبتعابير اخرى نقول : **انه اذا اخذنا بعين الاعتبار العمل الماضي المتجسد في مجموعة الآلات والادوات،** فان منتوجات الاعمال الحالية ، غير المتساوية، يمكن ان تكون لها قيمة واحدة متساوية ، ومن النـــاحية المقابلة : يمكن ان يكون لمنتوجات الاعمال **المتساوية** ، قيم مختلفة **(غير متساوية)** فتبادل المنتوجات الصناعية ينطوي ـ اذن ـ في درجته العليـا المتطورة ، على تسوية بين العناصر غير المتساوية !...

وينتج عن هذا ما يعد ـ في الظاهر ـ مفارقة غريبة : وهو انه اذا حددنا القيمة التبادلية المنتجات ، بما تمثله من وقت اجتماعي استغرقه صنعها، **فلا يمكن اطلاقاً (او بما يشبه الاطلاق)** ان تباع السلعة وفقاً لهذه القيمة التبادلية . وقد رأينا ان تقلبات العرض والطلب يحملان **سعر** المنتوج التبادلي البسيط على ان يتروح حول **القيمة** ، بحيث لا تباع السلعة بقيمتها الا حين يتساوى العرض والطلب ، مصادفة، ورغم هذا فالقيمة حقاً هي التي تحدد السعر ، وتحدد الطلب ، والعرض ، ففي الانتاج الصناعي ، نرى السلعتين الناتجتين عن وقت عمل اجتماعي متساوٍ واحد، لا يتبادلان بقيمة واحدة الا اذا كان التركيب العضوي في فرعي صناعتيهما متساوياً (وإلا إذا كان العرض ، من ناحية، ثانية ، متساوياً والطلب) وهذا لا يحدث اطلاقاً ، او بما يشبه الاطلاق . ورغم ذلك فالقيمة حقاً هي التي تحدد السعر. والعمل الاجمالي ـ الماضي والحاضر ، الميت والحي ـ هو الذي يضع شروط التبادل ، وهو الذي يحدد القيمة في التبادل .

فتبادل المتعادلات ينطوي اذن [رغم ما يبدو من بساطته الظاهرية] أي يخفي وينم ـ في آن واحد ـ عن تعقيد وتركيب متناهيين: فثمة استجماع لاحداث، وتناقضات، وعملية ذو تطوري كامل ، تاريخي ، واجتماعي ، بدأنا الآن في النفاذ الى اعماقه...

ولنعد الى الربح الرأسمالي . فكيف يستطيع رأس مال ما ، دون ان ننسب اليه قوة سحرية خارقة ، ان يصبح اكثر

من ذاته، يعني كيف يستطيع ان « يعود » على مالكه بالربح ؟ كان الرأسمالي ، في العهود السعيدة الحالية ، يعتقد ببساطة ان رأسماله ، يعني هو نفسه ، يملك تلك القوى السحرية العجائبية . ولم ير ماركس انه مضطر الى اتباع هذا الوهم البورجوازي المهين، الذي يؤمن به البورجوازيون والاقتصاد البورجوازي. فماركس يحلل ؛ ان رأس المال يسمح لمالكه بأن يقتني، لحسابه الخاص، لملكيته الخاصة، آلات وادوات، يعني عملًا اجتماعياً أُنتج في الماضي، ولتحريك هذه الآلات ، يلزمه « يد عاملة » فالرأسمالي يشتري العمل . **وهو يدفع ثمنه ملتزماً مباديء الامانة والشرف**، يدفع ثمنه وفقاً لقيمته في سوق العمل . الرأسمالي لا يكتفي بالاعتقاد « بأنه يعطي عملًا للعمال الاجراء » ، وانما هو يؤكد ايضاً انه يدفع ثمن العمل بقيمته الحقيقية؛ فوظيفة الرأسمال تنحصر ـ اذن ـ كما يعتقد الرأسمالي ، بمبادلات بين قيم متعادلة : فالاجر يمثل « قيمة » العمل . ولكننا لا نجد عندئذ في المنتوج الا « ح » (تآكل او بلى الآلات) و «ق» (كمية المال المدفوعة كأجور) مضافاً اليهما قيمة العمل الذي يقدمه الرأسمالي . والربح ؟ ليس ثمة ربح اطلاقاً !.. ـ ولكي يكون ثمة ربح ، فيجب ان يكون في ناحية ما من عملية الانتاج ، تسوية بين العناصر غير المتساوية ، يجب ان يكون ثمة معادلة بين القيم غير المتعادلة .

اتاحت الطريقة الديالكتيكية لماركس اكتشاف هذه النقطة المركزية الحساسة ، هذه العقدة الحيوية في الرأسمالية . فالعامل

الاجير لا يبيع للرأسمالي « عمله » . فالعمل انما هو الانسان نفسه ، بجميع خصائصه وصفاته. والعامل لا يتخلى عن جوهره، بوصفه انساناً ، بالمعنى الاقتصادي: فانحطاط كهذا (او انحراف عن الجوهر كهذا) يجعل منه عبداً مُستَرَقاً ، لا عاملاً بالاجرة (الذي يظل ، من ناحية تعريفه النظري ، شغيلاً حراً - يعني مواطناً يقيم علاقته مع صاحب العمل بوساطة عقد للعمل، «حرٍ»، نظرياً) وقد ادرك ماركس ، حوالي ١٨٥٧ ، ان العامل المعاصر **يبيع** قوة عمله ، يبيع **وقت** عمله . وهكذا باخضاعه جوهر عمله للانحراف ، بتخليه عن جوهر عمله en l'aliénant ، ينضوي في عملية خلق القيم التبادلية ؛ ووقت عمل الشغيل، يتخذ هو نفسه قيمة تبادلية معينة (شان كل قيمة) يحددها وقت العمل الاجتماعي اللازم لانتاجها .

اذن ، يبدو من المفارقة الغريبة (الظاهرية) ان وقت العمل الفردي لكل عامل بالاجرة يقدّر بوقت العمل الاجتماعي الوسطي . والعامل بالاجرة يقدم كذا من ساعات العمل (الفردي) التي تساوي كذا (بكمية من المال ، تعبر عن العمل الاجتماعي الوسطي) . فالأجر يمثل اذن كمية العمل اللازم **المجتمع** ، لكي يطعم ، ويكسو ، ويؤوي العامل الخ... **بيد انه من الضروري الحتمي ان يكون وقت هذا العمل الاجتماعي الوسطي اللازم لاعالة الفرد اقل من وقت العمل الاجتماعي الوسطي الذي يمثله وقت عمله الفردي** . لانه لو كان الامر

خلاف ذلك ، لما كان عمل هذا الرجل **منتجاً** ، **مربحاً** . بل كان يكفي لاعالته فقط . ان القيمة التي يخلقها العـــامل الاجير ، بالوقت الذي يقدمه لصاحب العمل لتحريك الآلات والادوات ، هي اذن اكبر من القيمة التي تعاد اليه ، حين يتناول الاجر . فصاحب العمل يحتفظ لمصلحته بطاقة الانتاج الاجتماعية في العمل الفردي – ورغم هذا يدفع ثمن قوة العمل **بقيمتها حقاً** ! – هذا يعني ان هنا عملية تبادل يمكن تمييزها بوضوح ، تجري بين عناصر غير متعـادلة ولا متساوية ، وهي رغم ذلك ، تحسب متعـادلة . والاجر ، وهو المدفوع بوساطة الفضة (المال) يخفي وينم – معاً – عن عملية معقدة مركبة : **تبـــادل قوة العمل ، المدفوع ثمنها بقيمتهـا ، لقاء القيمة التي اوجدتها قوة العمل** .

هاتان حقيقتان ، بل واقعـان ، غير متعادلين ، يصبحان متعادلين ، **في الظـــاهر** ؛ ويعتبر الاجر ثمن العمل ؛ لكن الرأسمالي يكسب الفرق بين الاجر وقيمة المنتوج (بين قيمـة وقت العمل ، وبين القيمة التي اوجدها هذا الوقت) «فالطبيعة» او « الصفة » العامة للعمل البشري ، يعني كونه منتجاً خلاّقاً تحكرها – اذن – (في الظروف الخاصة للملكية الرأسمالية) طبقة الرأسماليين . فلا سر يكتنف الربح ولا سحر ، فالربح ليس الا «القيمة الزائدة» la plus - value التي يكتسبها رأس المال خلال عملية الانتاج ، باستثمار الشغيلة « الاحرار » استثماراً رأسمالياً .

فالنظام الرأسمالي هو – اذن – حقاً ، بمعنى من المعـاني ،

ومن وجهة معينة، عملية تبادل شاسعة ضخمة تجري بين متعادلات (خدمات وقيماً) وبسبب ان له هذا المظهر ، استطاع النظام الرأسمالي ان يفرض ذاته تاريخياً ، ويثبت دعائمه ، ولهذا السبب استطاع هذا النظام ان يقوم بوظيفته **قياماً طبيعياً** : وكان ثمة توازن آلي – أوتوماتيكي – يميل الى تثبيت ذاته في عمليات الانتاج ، والتبادل ، بما ان الانتاج والتبادل كانا يتجهان دوماً نحو الانسجام او التناسق الكمّي .

ورأى الاقتصاد السطحي « البورجوازي » هذا الوجه ، ولكنه لم ير سواه . بيد ان للرأسمالية وجهاً آخر . فالرأسمالية هي ايضاً – ولكن على درجة عليا – [كما يحدث في عملية تبادل السلع ، هذه العملية البسيطة] تبادل **بين غير المتعادلات.** ففي داخلها – اذن – ، في داخل الرأسمالية ، تنشأ قوى اللاتناسب ، والانفصام . وليست الرأسمالية مجرد توازن او تناسق منسجم، فهي تحتوي على منازعة داخلية صميمية بين قوى تميل الى التوازن وبين قوى تميل الى اللاتوازن . والرأسمالية ، في المفهوم الفلسفي ، تندرج في حال من الانحطاط البشري والتخلي عن الجوهر الانساني ؛ ومن الناحية الاقتصادية تجد الطبقة العاملة نفسها (وهي المسْتَذَلّة ، والمحمولة حملاً على ان تعيش حياة طبقة مستثمَرة ، محرومةً وسائل الانتاج) تجد نفسها محرومةً من شراء واستهلاك مجموع ما تنتج . ومن هنا نشأ **ميل** الى تزايدالانتاج surproduction ، وفيضه عن الطلب.

وهو ميل مستديم، ولكن يجب ان يتجلى، بمرور الزمان، في شكل انقطاعات مؤقتة، عن التوازن، بين الانتاج والاستهلاك. وليس التناقض الاساسي هو التناقض بين الانتاج والاستهلاك، (وهذا الثاني موجود ولكنه ثانوي، فرعي) وانما التناقض الاساسي موجود بين **طبيعة العمل المنتجة اجتماعياً وبين التملك الخاص لمنتوجات العمل**. (الطابع الفردي الخاص للملكية الرأسمالية لوسائل الانتاج)، تنشأ عن هذا التناقض، الجوهري، وهو الاساس للتاريخ والنظرية معاً، تنشأ عنه سلسلة من المصادمات والمنازعات التي يحللها ماركس تفصيلياً، والتي هي منازعات **اقتصادية** (بين الطبقات، بين البروليتاريا والبورجوازية) واخيراً: **سياسية** (من حيث تكوّن جهاز الدولة، وتصارع الطبقات، للاستيلاء على هذه الدولة).

وتشير **الازمات** الدورية اشارة واضحة الى المنازعة الداخلية الصميمية بين قوى التوازن وقوى الانفصام. وتعاني الدورة الاقتصادية تزايداً في الانتاج surproduction يكون خفياً في باديء الامر، ثم ينفجر بعد ذلك، فتنشأ الازمة، والكساد، واتلاف المخزون من البضائع، واتلاف شطر من الآلات، ثم تأتي البطالة... الخ...

هذه هي الخطوط المعروفة للازمات الدورية التقليدية. والازمة بانقاصها الانتاج، تعيده الى المستوى الذي تتطلبه إمكانات الاستهلاك. وعندئذ تعود مرحلة زمنية «طبيعية» من

التوازن والحيوية الاقتصادية، والازدهار، تستمر بضع سنوات، ثم تعود الازمة كرّة اخرى...

وبتعابير اخرى نقول: **ان الميل الداخلي الصميمي في النظام الراسمالي الى التوازن لا يتم الا بالازمة واثناءها.** والازمة هي التي تعيد التوازن الى مجراه. فاللاطبيعي في **الظاهر** هو في الواقع **لازم ضروري. ولا غنى عنه للعنصر الطبيعي**. وفترة الازدهار والحيوية الاقتصادية هي، في الواقع، الفترة التي تبدأ فيها قوى اللاتوازن وقوى الانفصام، تعمل عملها في عمق. ولحظة الازمة انما هي لحظة انحلال التناقض، حيث تنتصر قوى التوازن، تحت مظهر اللاتوازن المؤقت. هذه هي ديالكتيكية النظام الرأسمالي الملأى بالمفاجئات والمفارقات، والتي تنم عنها وتخفيها – في وقت معاً – المظاهر، وهي الاحداث السطحية.

٢ – الحكم بالموت على الراسمالية

أكان – اذن – من الممكن ان تعيد قوى التوازن، بصورة منتظمة، خلال الازمات، الاستقرار الداخلي للنظام الرأسمالي – وان تكون هذه الاعادة **الاوتوماتيكية** الخارجة عن ارادة البشر والدول وتأثيرهم، هي القانون النهائي الاسمى، «القانون الطبيعي» و «الاقتصادي» للرأسمالية ؟

ولو صح هذا لكان الاقتصاد الماركسي لا يختلف جوهرياً عن الاقتصاد التقليدي او السطحي (الاقتصاد البورجوازي) ولكان يسهم بنصيب مهم في نظرية الازمات الدورية ولكنه لا يتضمن اي حكم بالموت على النظام الرأسمالي ، ولكان هذا النظام خارجاً عن سلطان القانون الديالكتيكي الاكبر الذي يقضي بأن كل حقيقة واقعة ظهرت في الزمان (يعني كل حقيقة اطلاقاً) بعد ان تنمو وتنضج خلال المتناقضات ، وتتحرك بسبب هذه المتناقضات ، محتوم عليها الزوال لتترك المجال لشيء آخر ... ولكن جزءاً من كتاب «**رأس المال**» الذي اوجزناه في الفصل السابق، لا يستنفد مؤلف ماركس. فماركس يضيف الى نظرية « الازمات الدورية » نظرية اعمق، نظرية كانت مجهولة حتى ذلك الزمن ، وهي نظرية **الازمة العامة للنظام الراسمالي** . وسوف نرسم هنا صورة سريعة لهذه النظرية ، ونبدأ ببعض التعريفات .

يطلق ماركس كلمة « معدل الاستثمار » على علاقة $\frac{ق \cdot ز}{ق}$ اي نسبة القيمة الزائدة الى الاجر. فاذا قدم عامل ست ساعات من العمل (الاجتماعي) ولم تكلف اعالته الا قيمة ثلاث ساعات عملًا (من العمل الاجتماعي الوسطي) فان معدل الاستثمار يكون عندئذ بنسبة ٢٠٠ ٪ .

ثم يطلق ماركس كلمة معدل الربح » على نسبة $\frac{ق \cdot ز}{ح + ق}$

(وتشير « ح » هنا الى الراسمال الثابت) فمعدل الربح يختلف – اذن – عن معدل الاستثمار بان الاول ينظر بعين الاعتبار الى التركيب العضوي للرأسمال ، وإلى بِلَى Usage الآلات .

ومن الواضح ان هذه التسميات لا تكتسب معناها الكامل **الا على صعيد المجتمع باسره ، وبمقياس المجتمع باسره** ، حين تشير «ق» الى مجموع الاجور المدفوعة للطبقة العاملة و «ق . ز» القيمة الزائدة التي تربحها الطبقة الرأسمالية ، و « ق » تشير الى مجموع الرأسمال الاجتماعي الموظف في الصناعة . ولكن لهذه التسميات معنى آخر في ما يتصل بكل مشروع ، وبكل صاحب مشروع ، وبكل عامل بالاجرة . وهكذا فهي تسمح بتحديد علاقات الرساميل والاجور **الفردية** بمجموع المجتمع الرأسمالي – بالطبقات – وكذلك بمستقبل هذا المجتمع .

وفي البدء ، يثبت ماركس ان معدل الربح **يميل** نحو معدل وسطي (يعني يتجه ليكون معدلاً وسطياً) في كل لحظة من لحظات المجتمع الرأسمالي ، وكما ان المجتمع التجاري البسيط ، او المجتمع المانيفاكتوري الذي بدأ يستخدم الادوات ، كان يقيم ، دون ارادة الانسان ودون وعيه ، بعض المعدلات الوسطية الاجتماعية – قيم التبادل – هكذا ايضاً ادى المجتمع الصناعي والرأسمالية المتطورة النامية ، الى نشوء **معدل الربح الوسطي** .

ولذا لم يكن الربح (على صعيد الرأسمال الفردي والمشروع المنظور اليه على حدة) خاضعاً – في الظاهر – العمل الذي دُفع

الى الحركة ، ولمعدل الاستثمار . وهذا الربح يخضع لكمية المال الاجمـــالية الموظفة في المشروع الرأسمـــالي ، الادوات والآلات و «السلفات» المقدمة اجوراً للعمال، مثلاً : مشروعان الرأسمال الاجمالي لكل منهما مليار فرنك، يتطلب احدهما ٩٠٠ مليون فرنك من التوظيفات المالية للادوات والآلات، والآخر لا يتطلب الا ٦٠٠ مليون (وباقي الاموال يتحول الى اجور)— هذان المشروعان ينتجان **تقريباً** الربح ذاته، فينتجان مثلاً ١٠٠ مليون من الفرنكات اذا كان المعدل الوسطي للربح في ذلك العهد هو ١٠٪ .

وكيف يعمل الراسمالي ، في الواقع ؟ انه يحسب « تكاليف الانتاج» في مشروعه ؛ ويضيف اليهـا بِلَى Usage (ما يفنى، مـــا يُستهلك من الآلات والادوات) الآلات والادوات ، وفائدة رأس المال الموظف، وكمية المال التي « تُسلَّف » للعمال بمثابة اجور ، ويضيف الى ذلك ، تقريبـــاً ، المعدل الوسطي للربح . وهو يحـاول ولا شك ، بيع منتوجه بارفع من هذه القيمة ، لتحقيق « ربح اضافي » . وهو يرفض البيع باقل من هذه القيمة . او انه اذا أُرغم ، فهو يقدر انه يبيـع بخسارة . وهو قد اعاد ، لحسابه الخاص ، وبكلمات مختلفة ، تركيب الكمية التي يحللها ماركس بتعابير ماركسية تحت اسمـــاء : « رأس مـــال ثابت capital cons » ورأس مـــال متغير capital variable و « قيمة زائدة » Plus - value ومعدل

الربح الوسطي . وبتعابير أُخرى نقول انه تبين ان معدل الربح مستقل عن التركيب العضوي لرأس المال . وهذا يفرض ان لا يتلاءم ثمن السلعة مع قيمتها، اطلاقاً او بما يشبه الاطلاق !.. وقد اخذ العدد القليل من الاقتصاديين غير الماركسيين الذين استمروا في درس مؤلفات ماركس حتى بلغوا هذه النقطة الهامة، اقول: اخذوا على ماركس تناقضاً في فكره !... وقد زعموا ان نظريته متناقضة مع ذاتها ، واذن فهي سخيفة ، غير معقولة : (اعتراض ابداه بخاصة Gide وريست Rist ـ انظر تاريخ المذاهب الاقتصادية ص ٥٤٧) .

ويرى هؤلاء ان ماركس اسس القيمة على العمل ليقول بعدئذ ان قوانين القيمة لا تعمل اطلاقاً !ـ ولم ير هؤلاء الاقتصاديون **ان هذا التناقض موجود في النظام الراسمالي نفسه.** ولم يروا ان نظرية ماركس، البعيدة عن ان تكون غير متناسقة الاجزاء، تصور لنا ، بأكبر درجة ممكنة من التلاؤم والوحدة، تناقضات النظام الرأسمالي . ان القيمة تحدد السعر ، اما السعر فلا يطابق القيمة اطلاقاً ـ تقريباً ـ كما سبق ان راينا . والنظام يفرض تبادل المتعادلات. بيد ان هذا لا يحدث اطلاقاً او بما يشبه الاطلاق .

والقيمة الزائدة الاجمالية الناتجة عن استثمار مجموع العمال (استثمار العمال كطبقة) تتوزع ، اوتوماتيكياً ، على مجموع الرأسمالية . (على الرأسمالية كطبقة) في صورة **ربح وسطي** ،

والمزاحمة بين الرساميل (التي تتجه نحو فروع الانتاج حيث توظيف الرساميل اسهل ، واكثر ثمرة ، واسرع ، ولكنها بهذا تجعل معدل الربح يميل **اوتوماتيكياً** الى المعدل الوسطي الاجتماعي) هذه المزاحمة بين الرساميل تحقق توزيعاً متساوياً للارباح في عهد معين .

ومن ناحية ثانية فحركة العرض والطلب في الرساميل لا تفسر الا كيفية توزيع القيمة الزائدة ، وهي لا تفسر القيمة الزائدة نفسها. « اذا كانت البضائع تباع بقيمتها ، ينتج عن هذا معدلات ربح مختلفة جداً باختلاف فروع الانتاج ، حسب التركيب العضوي للرساميل الموظفة . ولكن رأس المال يبتعد عن حقول الانتاج ذات المعدل الربحي القليل ، لكي يتجه الى الحقول ذات الربح المرتفع . وبسبب من دورة رأس المال ، وهجرتيه، الداخلية والخارجية ، وانتشاره المستمر ، وبكلمة : بوساطة توزيعه بين مختلف فروع الانتاج وفقاً لارتفاع معدلات الربح وانخفاضها ، يؤدي رأس المال الى درجة من التناسب في العرض والطلب ، حتى يصبح الربح الوسطي متساوياً في مختلف فروع الانتاج ، وحتى تتحول القيم الى اسعار انتاج » (كتاب « رأس المال » ج ٣ القسم الثاني ص ٩٣) .

فالاقتصاد الرأسمالي يحتوي – اذن – على عنصرين منظمين ضابطين: اولاً : في دورة البضائع ، كل منتوج سرعان ما يحل محل منتوج « معادل » آخر ، او يحل محله منتوج « معادل »

آخر . اذن فالمجموع يؤلف ما يشبه الدورة الواسعة الضخمة ، تتغير كل نقطة من نقاطها ولكن شكلها يظل مستقراً ، نسبياً ، او يميل الى التزايد ، بصورة منتظمة .

وبالتالي ، يتجه دوران الرساميل الى المساواة بين معدلات الربح ، وتشكيل معدل ربح وسطي — يخرج احصائيــاً ، واجمالياً ، من مجموع الارباح الرأسمالية وهكذا يستطيع كل رأسمالي ان يوازن تقريباً بين مطالبه وبين حالة السوق ، وذلك في الفترة الزمنية المسماة « طبيعيـة » ، وهو يستطيع تحديد ثمن الانتاج المختص به ، وتحديد حصـته « المشروعة » او المنتظمة ، من القيمة الزائدة الاجمالية . ودون ان يعرف الرأسمالي الفردي قوانين النظام الرأسمالي ، يستطيع ان يُدخل تقريباً [ولا سيما حين يجد من مصادفات السوق ظروفاً مناسبة] مشروعه الخاص ، في مجموع المشروعات . ويستطيع ان يؤلف لنفسه محـاسبة فردية خاصة بمشروعه ، بينما يقوم المجموع بوظيفته تقريبـاً : وتكون الارباح متناسبة مع الرساميل الموظفة .

ولكن العنصر الضابط : « معدل الربح الوسطي » الناشيء من المزاحمـة بين الرساميل ومن توزيع معدلات الربح ، لا يتلاءم مع العنصر الضابط : « التبادل بين القيم المتعـادلة » فلو كانت البضائع متبادلة بقيمتها ، ولو كان النظام الراسمالي منحصراً في عملية تبادل بين المتعادلات ، لما كان ثمة تكوُّن لمعدل الربح الوسطي . ولظل المجتمع الرأسمالي — اذن — مقسماً الى فروع

من الانتاج ، منفصل بعضها عن البعض الآخر ، انفصالاً تاماً ، وهذا لا يمكن تصوره . وما ان تتصل مختلف فروع الانتاج ، ذات التركيب العضوي المتباين، بعضها ببعض ، وما ان يؤلف المجتمع الرأسمالي كلًا واحداً ، حتى يجد قانون القيمة ذاته — دون ان يزول — مغطى ، مخفياً ، وبمعنى من المعاني معرقلًا بنشأة معدل الربح الوسطى. ولا يمكن ان يكون صرحهُ متناسقاً منسجماً ، ثابت الاركان .

ان الازمات الدورية تشفيه من نوباته الطارئة وحمياته: (تزايد الانتاج وفيضه عن الطلب الخ ...) فتكون علاجه الشافي ، ولكنه المؤقت ، فلا تمر به دون ان يعاني صنوف العذاب والآلام . ولكن من خلال هذه الشفاءات المؤقتة يتحتم قليلًا قليلًا نشوء لاتوازن اشد عمقاً ، واعظم خطراً . انه داء مزمن عضال ، لا شفاء للرأسمالية منه .

ولننظر الى هذه الصيغة :

$$\text{معدل الربح الوسطي م و} = \frac{\text{ق . ز}}{\text{ح + ق}}$$

ولكي يزداد م و (او معدل الربح الوسطي) يجب ويكفي ان تزداد صورة هذا الكسر ، او ان ينقص مخرجه .

بيد ان الرأسمالي الفرد يجد نفسه مرغماً — تحت ضغط المزاحمة او ضغط المطالب العمالية — على تحسين آلاته وادواته ، ولا يستطيع ان يجد فترة طويلة من الراحة ، بسبب التسابق

العام نحو الربح . ومن المستحيل ان يسمح لمزاحميه بان يتفوقوا عليه في مضمار التقدم التكنيكي .

فـإذا ابدى العمال رفضهم الخضوع لاستثمار اطول ، رد الرأسماليون عليهم بتغيير يدخلونه على آلات العمل ، يكون من شأنه زيادة العمل ، ولكنه ينقص نسبياً من اليد العاملة المستخدمة.. الخ...

وعندئذ ينتج من جهود الرأسمالي الفرد ، على الصعيد الاجتماعي ، زيادة في العامل « ح » الموجود في مخرج الكسر . وكذلك « ح » تزداد بنسبة ازدياد « ق » .

فاذا حاول الرأسماليون افراداً خفض العامل « ق » (القيمة la valeur يعني : الاجور) فأنهم يزيدون مؤقتاً في ارباحهم الفردية ، ولكنهم على الصعيد الاجتماعي يسببون « تزايد الانتاج وفيضه عن العرض » surproduction ، ويزيدون ازمته خطورة ، بما ان كمية المال « ق » التي تمثل الاجور تتدنى بالنسبة الى مجموع القيم المنتجة .

فاذا حاول الرأسماليون زيادة العامل « ق. ز » (زيادة شدّة العمل بزيادة ساعات العمل الخ...) اصطدموا بمقاومة العمال ، واثاروا وعيهم ونضالهم الطبقيين...

ان هذه الصيغة تتضمن الحكم بالاعدام على النظام الرأسمالي ،

فيا هي تؤسس ايضاً ، تأسيساً موضوعيـــاً ، واقع الطبقات، حقيقة الطبقات ، وصراعها .

وتشير هذه الصيغة ، من النـاحية الاساسية ، **الى ميل نحو تدني معدل الربح الوسطي** ، وهذا يعني زوال النظام الرأسمالي زوالاً محتومـاً لا خلاص منه ، لسبب واقعي واحد هو ان الآلات والادوات في تقدم مستمر وان العـامل «ق» يزداد بقيمة نسبية ومطلقة ، في الكسر (في صيغة الكسر) .

ولا شك في ان النزاع الاخير ، هذا الموت الذي سوف يصيب النظام الرأسمالي [وموته امر محتوم ، لا مفر منه] ليس محدداً تحديداً آلياً ، ميكانيكياً . ان هذه الصيغة الماركسية تسمح **بالتنبؤ** بزوال الرأسمالية ، لا بتأريخ موعد هذا الزوال والقول : « في اليوم كذا ، في الدقيقة كذا ، سوف تنهـــار الرأسمالية !.. »

ان القانون يشير فقط الى اتجاه تاريخي ، الى ميل تاريخي ، والقانون الذي يبدو من مظاهره انه اقتصادي وحسب، انما هو، في الواقع ، **قـــانون ديالكتيكي** ، يرتبط بقوانين الصيرورة الكونية الشاملة. وهو يدل على ان التناقضات الداخلية الصميمية في النظام الرأسمالي تدفعه نحو نهايته في تاريخ معقد التركيب ؛ ونرى، وفقاً لجميع ما نعرف من الماركسية ـ مذهباً وطريقة ـ ان القانون لا ينفصل ولا يشير الى احداث يمكن فصلها ، بعضها عن بعض . والعنصر الاقتصـــادي لا يمكن فصله عن العنصر

التاريخي ، والسياسي ، ولا عن حياة البشر العملية والتطبيقية ، ولا عن القوانين الكونية الشاملة للصيرورة .

نجحت الرأسمالية ، الى حد ما ، في اخفاء آثار قانونها الداخلي ، مثلاً بان تفتتح لنفسها ، **بالقوة** ، اسواقاً جديدة . وعندئذ كانت الكمية العامة للارباح تتزايد ، ويزول اثر التدني الميْلي النسبي ، في الربح ، زوالاً مؤقتاً ، او يُغطى . وهذا من اعمق الاسباب للصراع الوحشي المحتدم بين الرأسماليين على الاسواق [يعني الاستعمار او الامبريالية Impérialisme] وهو ظاهرة **سياسية** ، اساسية في العالم الحديث .

ورغم ذلك ، يظل القانون يعمل عمله العميق . فأحاديث الرأسماليين ، ونشراتهم ، ملأى بفنون من التعبير تدور كلها حول هذه النقطة : « في الماضي ، كانت الاعمال اسهل . والارباح اكثر.. الخ... »

وهذه هي طريقة الرأسماليين الجاهلة العمياء في تسجيل آثار قانون حاسم .

ومن جهة ثانية، لا يحدث هذا القانون اثره الا اذا اصطدمت الرأسمالية بمقاومة الطبقة العاملة (وبدون هذه المقاومة يستطيع العامل « ق. ز » ان يعوّض بزيادته عن الاتجاه الميْلي الناتج عن تزايد العامل « ق »).

تكتنف هذه الصيغة — اذن — احداث واعراض تاريخية

وعملية pratiques . وهي تعني ، من الناحية ، منازعـات ومصادمات رهيبة ، بين جماعات الرأسماليين، وتعني ، من ناحية ثانية ، صراع طبقـات يحتدم اكثر فأكثر ، بين الرأسمالية والطبقات المضطهَدة . وليس مـا يميز انهيار الرأسمالية تناقض واحد ، وانما مجموعة معقدة من التناقضات .

والرأسمالية تمضي نحو نهايتها [نحو فنائها ، ونحو استبدال بناء اجتماعي متناسق منسجم، بها] **في ازمة عامة شاملة**، وتناقضات كثيرة ، متحركة ، يفعل بعضها في بعض .

ومن السهل الملاحظة كيف ان الطريقة الديالكتيكية وعلم الاجتماع الماركسي يسمحان بالتنبؤات ، وهذا يؤكد طبيعتهما الموضوعية والعلمية . ومن ذا يستطيع الانكار بان العالم الحديث لا تنطبق عليه تحليلات كتاب « رأس المال » ؟ انهـا تحدد الخطوط الكبرى، والأطر العامة ، التي تتحرك في داخلها القوى التي في الساحة ، والعمل الجماعي الذي تقوم به الكتل البشرية (الطبقات) والافراد...

« وما ان تكون عملية التطوير قد بلغت غايتها من تفكيك المجتمع القـديم ، شكلاً ومحتوى ، وما ان ينتهي تحول العمال الى عمال كادحين بروليتاريين ، وتحول شروط عملهم الى رأس مال ـ ما ان يتم كل هذا ، حتى يتخذ التأميم التدريجي للعمل، وكذلك تحويل الارض ووسائل الانتـاج الاخرى الى وسائل جماعية للانتاج (لانها مستثمرة جماعياً لا اجتماعياً) وبالتـالي ،

اخراج ارباب الملكية الخاصة من املاكهم – اقول عندئذ تتخذ كل هذه العمليات شكلاً جديداً .

« والانسان الذي يرى نفسه ، منذ ذلك الوقت ، مطروداً من ملكيته ، ليس هو العامل الذي يعمل لنفسه ، وانما هو الرأسمالي الذي يستثمر العمال . وهذا الاخراج من الملكية انما يتحقق ويتم بفعل القوانين الداخلية الصميمية للانتاج الرأسمالي نفسه : بتمركز الرساميل واستقطابها .

« وكل رأسمالي يقتل رأسماليين كثيرين . وفي الوقت نفسه الذي ينمو فيه هذا التمركز ، ينمو ، على نطاق يتسع اكثر فأكثر ، الشكل التعاوني الجماعي لتطورية العمل ، والتطبيق المرشد للعلم والتكنيك – واستثمار الارض استثماراً منظماً ، وتحويل وسائل العمل الخاصة إلى وسائل لا يمكن استخدامها الا جماعياً – ودخول جميع الشعوب في شبكة السوق العالمية ، ثم اكتساب النظام الرأسمالي طابعاً اممياً .

« وكلما تناقص عدد الرأسماليين الكبار الذين يحكرون ويحصرون في ايديهم monopelisent فوائد هذه العملية التطورية، شهدنا ازدياد الشقاء، والاضطهاد، والرق، والانحطاط، والاستثمار ، ولكننا نشهد ايضاً ، الى جانب ذلك ، تمرد الطبقة العاملة. انها تتعاظم بلا انقطاع ، وترى ذاتها منضبطة ، موحدة، منظمة ، بفعل آلية النمو التطوري للانتاج الرأسمالي . »

« ويصبح حصر رأس المال، العقبة التي تسد طريق نمط الانتاج الذي تطور مع تطور رأس المال ، وبسببه . ويصل تمركز وسائل الانتاج ، وتأميم العمل ، الى حد لا يسعهما التلاؤم فيه مع غلافهما الرأسمالي ، وعندئذ يفجِّرانه ، وعندئذ تدق آخر ساعة من حياة الملكية الرأسمالية الخاصة . والذين كانوا يخرجون الناس من ملكياتهم ، هم الآن يُطْرَدون... »
(راجع « رأس المال » الجزء ١ ص ٢٧٢)

وذلك ايضاً هو الموعد الذي يتراجع فيه **النمو التطوري الطبيعي** – او العفوي spontané – في التاريخ ، ليحل محله تنظيم عقلاني rationel ، ويفسح المجال لتصميم مخطط ، مؤسس على معرفة النمو التطوري الطبيعي، ومعرفة حركته وتناقضاته.

وتلك اخيراً اللحظة التي تتجه نحو تخطّي انحراف الانسان عن الجوهر ، والتي كان الانسان بها نهباً لمنتجاته الخاصة ، الاجتماعية ، المتحركة اوتوماتيكياً خارجاً عن فكره ورقابته .

٣ – الديالكتيكية والاشتراكية العلمية
النضال السياسي – الدولة

للرأسمالية – اذن – قوانين . وهي خاضعة – اذن – للعلم . ولو كانت هذه القوانين قوانين « اقتصادية » للتوازن ،

ولو كان هذا التوازن متمتعاً بجهاز آلي اوتوماتيكي ضابط، اذن لمال هذا التوازن بالقوانين الاقتصادية نحو الاستقرار والسكون ، ونحن نعلم ان ليس ثمة شيء من هذا ، وان هذه القوانين هي قوانين **ديالكتيكية وتاريخية** .

وفي افتراضنا وجود جهاز عفوية وآلية داخلية مهمتها الضبط، لا يكون للدولة الا دور سلبي: فهو ينحصر في ابعادها المحاولات والمبادرات المؤدية الى عرقلة هذا « التناسق »، الذي هو من خصائص النظام الرأسمالي الاصيلة !...

على هذا النحو بالضبط ، ادركت البورجوازية ، في عهدها السعيد ، دولتها الديموقراطية الاحرارية (الليبرالية) وعلى هذا النحو شيدتها . ومن المؤسف ان هذه الدولة حين ولدت ، فإنما ولدت ، من اول عهدها ، في صورة تختلف كل الاختلاف عن تصميمها الاول ، وكانت تمعن في هذا الانحراف اكثر فأكثر .

وعندئذ لم تكن الليبرالية التحررية ، مهما بلغ من درجة اخلاصها وصدقها في ما تدعيه ، الا الظاهر **الايديولوجي** لدولة **طبقية** ، **لدولة تنتسب الى طبقة** un état de classe ، وهذه الدولة الطبقية كانت محتومة لا مفر من نشوئها ، كما جاء في تحليل ماركس ونبوءاته . وكان من المفروض عليها **استخدام الوسائل القسرية الاضطهادية** ، باستمرار ، لتعديل النظام الاجتماعي ، وتسوية الوضع ، **لخدمة الرأسماليين** ، هذا النظام

الذي كان يتعرض دائمـــاً لتهديد مستمر يأتيه من قبل قوى « الاضطراب والفوضى » وكان فرضـــاً على الدولة ان توقف بجميع ما امكنها من وسائل ، الحركة التي تتجه نحو تحويل الرأسمالية الى بناء اجتماعي آخر ، الى كيان اجتماعي آخر ، وكان على الدولة وقف هذه الحركة لمصلحة الطبقة الرأسمالية . والطبقة السائدة ترد حتماً على المبادرات الثورية بنشاط سياسي ، وبحركة قمع لا بد لهـــا من جهاز دولة . وتختلط المتطلبات الادارية بالضرورات السياسية في تكوين هذا الجهاز الذي تفرزه الطبقة السائدة (بكل ما في كلمة افراز من معنى) وفقـــاً لحاجاتها .

فتحليل القاعدة الاقتصادية يؤدي ـ اذن ـ الى تحليل علمي للبناء الفوقي السياسي de la surperstructure politique وبناء الكيان الاقتصادي والاجتماعي ، في تاريخه المحسوس ، يتطلب ضمنياً ، دراسة **الدولة** التي تُتَوِّج الصَرْح .

هكذا يكتشف كارل ماركس ان النشاط السياسي ليس طوراً سامياً من اطوار الاخلاقية ، كما ظن هيجل [وهيجل في هذه النـــاحية نصير « الواقع السائد » والسلطـــات المسيطرة المهيمنة !...] والدولة لا تمثل وجدان المجتمع ، او وعيه ، وانما تمثل وعي طبقة معينة . ولا قيامَ لدولة بدون حكومة ، تعمل ، في اتجاه تحدده وتعينه الطبقة السائدة على حل المشاكل العامة التي تطرأ. والمصلحة العامة تخفي ، وراء مظـاهر مُتَّحَدٍ

موهوم ، مصالح طبقية .

وفي الدولة الديموقراطية التي وضعت البورجوازية ظروفها وكيَّفتها ، لا تستطيع هذه البورجوازية ان تمنع الجماهير والطبقة العاملة من مشاركة ، **معينة** ، في الحياة السياسية .
Une certaine participation à la vie politique.
والبورجوازية تبذل اقصى جهدها لتكون هذه المشاركة وهمية، لا حظ لها من الفعالية .

وهي تُضائل ، حتى حده الادنى ، حقّ الجماهير في اختيار حكامها ، يعني فعالية التصويت العام ، والفائدة المتوخاة منه . وما انتشعر البورجوازية بانها مهددة، حتى تلغي التصويتالعام. والدولة لا تنحصر في انها افراز تقوم به حركة التطور الطبيعي ، وفقاً لحاجات الطبيعة السائدة . ولكن كلما افسح التنظيم السياسي المجال للتعبير عن مطالب المضطهَدين ، تدخلت السلطة الاقتصادية ـ المال ـ لانقاذ اوضاع المضطهِدين، واعادتها الى ما كانت عليه ، مستخدمة جميع الوسائل من فساد او عنف مأجور .

نتبيّن ـ اذن ـ فيالدولة الديموقراطية ديالكتيكية داخلية صميمية تفعل في داخلها : وهي ـ الدولة ـ تحتوي على حقيقة واقعية ومظهر . وللنفاذ الى كنه الدولة ، والتعمق في معرفتها، يتحتم علينا ان نعتمد في طريقة البحث ، اليقظة المستمرة ، والاحتراس الحذر ، والتحليل النظري المتصل اتصالاً وثيقاً

بتجربة تطبيقية عملية . الدولة تخفي وتنم – في آن واحد – عن تناقض : هو صراع الطبقات .

وليست هذه الدولة ، **وفي اتجاه معين ، وبمعنى من المعاني ، ومن جهة** ، الا ديكتاتورية البورجوازية . وهي ، من جهة اخرى ، ولكن في الوقت نفسه، تتيح اتساع حركة الصراع، يعني انها تتيح للمضطهَدين بعض الانتصارات . فعلى هؤلاء – اذن – ان يدافعوا عن الجمهورية (وعن نظام الحكم الجمهوري) وعن الديموقراطية البورجوازية لا لذاتيهما ، وانما لما ينطويان عليه من امكانيات العمل والنضال .

ان الديموقراطية البورجوازية، وما يترتب عليها من حريات (حريات التعبير ، وحرية الصحافة، وحرية الراي، والاقتراع) تنقلب حتماً على البورجوازية وتتحول ، بالضرورة ، ضدها . فهي تتيح البحث العلمي ، والتعبير عن الاكتشافات في مضمار علم الاجتماع ، التي تتنبأ بزوال النظام الحاضر ، مبينة مفاسده وعيوبه .

وهي تسمح بتنظيم القوى الثورية (النقابات ، الاحزاب) . وعندئذ يهلّ عهد تغيّر فيه الديموقراطية اتجاهها ومعناها . وهذا لا يعني زوالها ، وانما هي تكتسب عمقاً ؛ ولا يعني انها تلغي ذاتها ، وانما هي تتفوق على ذاتها ، تتخطى ذاتها . فتصير ديموقراطية بروليتارية ، يعني ديكتاتورية البروليتاريا (على

البورجوازية) ولمـــا كانت كل دولة تنطوي في الواقـع على ديكتاتورية ، فالذي يتغير هنا هو وجهة الديكتاتورية ومعناهـا – فتعني الديكتاتورية هنـا الارغام ، اي النفوذ الذي يفعل في الناس ، وفي الاشياء ، لتوجيههم معها وجهة معينة .

بيد انـه لا بد من الاشارة الى فرق واضـح : هو ان ديكتاتورية البروليتاريا البورجوازية كانت مخفية وراء ستارٍ متَّحد وهمي : المصلحة العامة . اما ديكتاتورية البروليتاريا التي تنبأ بها ماركس وحللهـا فهي ديكتاتورية (على البورجوازية) صريحة، مكشوفة ، غير متسترة ؛ ودرجة الارغام فيها ، والكبت ، تتناسب تمام التناسب مع « ردود الافعال » الرجعية العنيفة التي تقوم بها البورجوازية للاحتفاظ بامتيازاتها . وهذه الديكتاتورية (باقلاعها عن الدفاع عن « مصلحة عامة » مزعومة ، مشتركة ، بين المضطهِدين والمضطهَدين) تخلق المتَّحد الاجتماعي الصحيح ، يعني متَّحد اولئك الذين يسهمون فعلاً بنشاطهم في الحيـــاة الاجتماعية ، اولئك الذين ينشئون ، ويخلقون ، وينتجون ، ويعملون . والذي يحدث هنا – اذن – هو حقـــاً ازدهار الديموقراطية، وهو مرحلة تاريخية انتقالية –خلال الاشتراكية– نحو الشيوعية .

وتتحول الدولة، فتصبح اداة لتطوير العالم وتغييره، والدولة تزول ، بعد ان تقوم بدورها .

* * *

بينّا كيف استدل ماركس بالتحليل النظري والتجربة السياسية ، شيئاً فشيئاً ، على حقيقة تركيب الدولة وعلى حركة التطور في تحوّلها .

وكان ما يزال في سن الشباب حين توصل في دراسته لقضية محسوسة (التشريعات الموضوعة بسبب سرقات الحطب في رينانيا) الى اكتشاف الطابع للبناء الفوقي Superstructure (التشريعي، والحقوقي الفقهي ، واصول المحاكمات ، ومجموعة الانظمة والمؤسسات القائمة) .

ومن النتائج التي توصّل اليها ماركس في نهاية مؤلفه « شقاء الفلسفة » استخرج الخطوط الكبرى لنظريته ضد برودون والذي كان يرى ان الحركة الاجتماعية تستطيع (بل يتحتم عليها) ان تتحرر فوراً من السياسة .

« ايكون ثمة ، بعد انهيار المجتمع العتيق ، سيطرة طبقية جديدة متضمّنة في سلطة سياسية جديدة؟ لا . فالطبقة العاملة تحل، اثناء تطورها ، محل نظام المجتمع المدني القديم ، نظام تشارك او مشاركة association يلغي الطبقات وصراعها . ولا يكون ثمة ، من بعد، سلطة سياسية بالمعنى المعروف ، ذلك لان السلطة السياسية تقتصر على كونها الشكل الرسمي لصراع الطبقات في المجتمع المدني . »

« بيد ان التنازع بين الطبقة الكادحة وبين البورجوازية هو

صراع بين طبقة وطبقة ، وهذا الصراع اذا صعد الى اعلى درجة من درجاته ، ادى الى ثورة كاملة . »

« لا تقل ان الحركة السياسية تنفي الحركة الاجتماعية، فانه لم تكن البتة حركة سياسية ليست هي – ايضاً – وفي الوقت نفسه ، حركة اجتماعية .

والتحولات الاجتماعية لا تكف عن ان تكون ثورات سياسية الا حين يحل نظام يخلو من طبقات ، ويخلو من الصراع بين الطبقات . وحتى ذلك التاريخ تظل الكلمة الاخيرة ، عند مستهل كل محاولة عامة لبناء مجتمع جديد هي : « النضال او الموت ، المعركة الدموية او العدم ! » (جورج صاند)

« القوة مولّدة المجتمعات ، وهي ايضاً سلطة اقتصادية . » هكذا يقول كتاب « رأس المال » .

* * *

اتاحت تجارب سنوات ١٨٤٨–١٨٥٢ لكارل ماركس ان يطوّر دراساته وتحليله وان يزيد في دقتها. والمعروف ان تعبير « ديكتاتورية البروليتاريا » ظهر اول مرة عام ١٨٥٢ في « رسالة الى ويدمير ، ١٢ آذار ١٨٥٢) وفي خلال الابحاث التمهيدية لتأليف كتاب « رأس المال » وبعد ذلك التاريخ ايضاً، طرأت احداث جديدة وتجارب جديدة، فاغنت « النظرية الماركسية في الدولة » وزادت في مرتكزاتها المحسوسة ، وقواعدها .

وقد سبقت منا الاشارة الى ان هذه النظرية لا يمكن ان تنفصل عن التجارب السياسية التي بررتها .

٤ – عودة الى النضال

الاممية الاولى

خلال السنوات ١٨٥٧ – ١٨٦٠ تعرف ماركس الى رجل عبقري المواهب ، اعلن تبنيه لمباديء ماركس ، ولكنه اندفع في اخطر المغـــامرات ، ذلك لانه لم يدرك الخصائص العميقة للحيـــاة السياسية ، ولم يدرك الجوهر الطبقي للدولة . اطلق « فردينان لاسال» صيغة القانون «النحاسي» loi d'airain ، وهي صيغة مبالغ فيها ، عن نظرية ماركس في الاجور ؛ وسوف يضحي هذا « القانون النحاسي » بعدئذ « قانوناً » اقتصاديـــاً ، ميكانيكياً ، يهدم آمال الطبقة العاملة ، ويريد قصرها على الحد الادنى من مقومات البقاء ، مستبعداً ، منذ ذلك الوقت ، كل مطالبة عمـالية جزئية وكل نضال نقابي (ولقد رأيـــنا ، على العكس ، ان القوانين **الديالكتيكية** لا تعبر الا عن حركات ، عن اتجاهات وميول)

كان فردينان لاسال خطيباً مفوها ، وشاعراً مسرحيـــاً عظيماً ، وفيلسوفاً ، ورجلاً انيقاً ترحب به الاوساط الراقية ،

ولكنه رغم هذه الصفات كلها لم يحسن اجتناب بعض المزالق والشباك . فقد استطاع بسمارك ان يخدعه .

في عام ١٨٦٣ دعا لاسال العمال الالمان « بكتاب مفتوح » الى التحرر من الرأسمالية، دون خوض المعركة السياسية، وذلك بان يتحولوا هم انفسهم الى... رأسماليين !...

كان لاسال يريد تأسيس شركات عمالية للانتاج ، وكان، في هذا السبيل يطلب ان تساعده الدولة . فكان بسمارك يشجعه ، خفية ، وذلك لهدفين : اولهما تحويل العمال عن النضال السياسي، ومنعهم من دعم المعارضة البرلمانية في مجلس الريخستاغ ؛ وثانيهما التمهيد لانضمام العمال الى سياسة بسمارك الاستعمارية .

ولاقى لاسال حتفه اثر مغامرة عاطفية سخيفة .

وهكذا كان موته يَعْدِل نظراته السياسية سخافة، ولا معقولية . فقد قتل في مبارزة في الثلاثين من آب ١٨٦٤ .

وفي ٢٨ سبتمبر من العام نفسه انعقد في قاعة « سان مارتانس هال » بلندن الاجتماع التأسيسي للاممية العمالية الاولى.

لم يكن لماركس اية يد في المفاوضات والمساعي المعقدة التي ادت الى تأسيس الاممية ، وانما كانت هذه المساعي وتلك المفاوضات تدل دلالة واضحة على يقظة الطبقة العاملة الاوروبية، وعلى العداوات بين الطبقات والايديولوجيات التي تتنازع تأييدها ، وجهود القادة والموجهين في سبيل تقنية الحركة

والسيطرة على اتجاهاتها . واستطاع ماركس بكثير من المرونة ان يتجنب اثارة الخواطر ؛ وانتهى المجلس العام للمنظمة الجديدة بالتوجه الى ماركس بصفته هو وحده القادر على صياغة الانظمة الداخلية . وهكذا كتب ماركس رسالته الشهيرة في افتتاح «الرابطة الاممية للعمال» وفي هذه الرسالة يورد ماركس ويؤكد بعض المباديء في الستراتيجية السياسية الماركسية :

« نظراً لان تحرر العمال يجب ان يكون من عمل العمال انفسهم ، ونظراً لان الصراع في سبيل تحرر الطبقة العاملة ليس صراعاً في سبيل اكتساب امتيازات واحتكارات طبقية وانما لالغاء كل نظام مؤسس على الطبقة: ونظراً لان استعباد العامل وخضوعه لمالكي وسائل العمل هو العلة الاولى للعبودية في جميع مظاهرها واشكالها ؛ ثم نظراً الى ان تحرر الطبقة العاملة تحرراً اقتصادياً هو الهدف الاكبر الذي يجب ان تتبعه كل حركة سياسية بوصفه وسيلة... لهذه الاسباب تأسست الـ آ . إي . تي[1] . »

ورغم بعض مظاهر التساهل ، الواردة في تتمة النص ، مع بعض الايديولوجيات ، فان اعلان مباديء الاشتراكية العلمية على الصعيد العالمي وتطبيقاتها العملية كان وسوف يظل حدثاً تاريخياً في الدرجة الاولى من الاهمية .

ورغم هذا النصر الاولي ، لم يكن نفوذ الماركسية في

---

(١) « الرابطة الاممية للعمال »

الرابطة الاممية قد توطد بعد . وكان ماركس وانجلز يمكنهما وحدهما النظر ، من عل ، الى اتجاهات التاريخ ، والسيطرة عليها : ولم يكن لهما الا القليل من « الاتباع » و « التلامذة » وكان هؤلاء كلهم ـ تقريباً ـ تافهين .

وكانت وحدة العلم الاجتماعي والحركة العمالية ، وخصب هذه الوحدة ، وضرورتها ، بعيدة كلها عن اذهان قادة الطبقة العاملة وموجهيها . فكان بعضهم يفكر في نطاق المجرد ، ويظل في مدار الطوباوية والمثالية . والبعض الآخر ، على العكس ، يقتصر على ما هو مباشر ، فوري ، وما هو تطبيقي وعملي وحسب ، وعلى المطالب الجزئية المؤقتة . وكان من الضروري ان تمر عشرات من السنين قبل ان يأتي زعماء تمثلوا الماركسية فوحدوا بين النظرية والتطبيق ، بين الفكر والعمل ، ووضعوا العلم في حالة اتصال دائم بالجماهير ...

لهذا السبب اضحت قيادة الاممية هدفاً لمعارك ضارية محتدمة ، اتحدت خلالها اتجاهات متباينة ، وكانت باتحادها ترمي الى مقاومة « المثقفين النظريين » و « العلماء » يعني مقاومة ماركس وانجلز .

وهكذا اتحد البلانكيون ، والستيرنريون ، والبرودونيون ، والمازينيون ، وراحوا يحيكون دسائسهم بلا انقطاع . والمعروف ان البلانكيين كانوا يضعون قضية الدولة في المرتبة الاولى من الاهمية ، يعني ، كما يعبرون ، مسألة « الانقلاب » السياسي ،

وعلى العكس ، كان البرودونيون يؤكدون ان على الطبقة العاملة وقد اصبحت راشدة، ان تعتمد على قواها الخاصة وحسب – يعني بخلقها مشروعاتها ومبادراتها وشركات الاغاثة المتبادلة ، وتعاونياتها، ومصارفها – لكي تتحرر من المؤسسات الرأسمالية ومن الصراع السياسي الهادف الى الاستيلاء على الدولة . اما اتباع الفوضوية فكانوا يهدفون الى الاستيلاء على الدولة لتحطيمها فوراً !... والمازينيون كانوا يكتفون بالكلمات الطنانة الرنانة عن الحقيقة العليا ، والعدالة المطلقة ، والحقوق والواجبات...

وقاد المعركة ضد الماركسية رجل ذو شخصية قوية، ولكن لا نظام لها ، شخصية عاجزة عن الرقي الى مراتب العقل العلمي : وهذا الرجل هو الفوضوي باكونين ، وكان المثال الكامل لهؤلاء الرجال المفعمين بالمواهب البراقة : الفصاحة ، والسلطان ، وسحر الشخصية ، والرغبة الصادقة في النضال ، ولكنهم رغم ذلك يندفعون مع غرائزهم ، وخلجات قلوبهم ، وثورات امزجتهم ، وهم – مع ذلك – يهدفون دوماً الى السيطرة الشخصية على الآخرين ، بمزيج غريب من الصدق والشعوذة .

وماركس الذي كان يناضل في سبيل العلم والعقل ، بدا للفوضويين رجلاً مغروراً واسع الطموح . اما باكونين الذي كان يعنى عناية بالغة بطريقة ظهوره المسرحي في المؤتمرات ، فيبدو كأنه شهيد القضية المقدسة ! ان لعبة المظاهر والحقائق

تلك المعقدة ، تستمر حتى في ما يتصل بتفاصيل العمل والنضال، وبالعلاقات بين الافراد .

كان باكونين يدرك، مثل جميع الفوضويين، الطابع الطبقي للدولة البورجوازية ، ولكنه كان يرفض فكرة تحويل هذه الدولة الى دولة شعبية او بروليتارية .

وكان لا يرى في الدولة الا اداة اضطهاد تعجز عن ان تصير اداة لتطوير العالم وتغييره . ولم يكن يسلم بان الدولة ، قبل ضمورها وزوالها ، تظل ضرورية خلال مرحلة تاريخية معينة ؛ وكان يرى ان الثورة لا تقوم على تغيير في البناء السياسي وتغيير في البناء الاجتماعي ، وانما تنحصر الثورة — في نظر باكونين — بتهديم عنيف حاسم ، للبناء السياسي . ويُنْتَقَل بعد ذلك — فوراً — بوساطة المشاركة الحرة من النظام البورجوازي الى الشيوعية !... فليس — اذن — ثمة حاجة الى جهاز قمع وقسر ضد حطام الطبقات المنهارة، ولا لتنظيم اقتصادي واسع، ضخم ، متمركز ، يُعَدُّ لتصميم الانتاج ، ووضع خططه . وفي هذا المعنى اصدر باكونين عام ١٨٧٣ كتابه « الدولة والفوضوية » وفيه يهاجم نظرية «ديكتاتورية البروليتاريا» هجوماً عنيفاً ، معلناً بخاصة ، « ان الدولة الشعبية المزعومة لن تكون الا حكم الجماهير الشعبية واخضاعها لسيطرة استبدادية ، لمصلحة ارستقراطية جديدة ، وفيرة العدد ، من العلماء الحقيقيين او المزعومين ... »

هذا ما كان باكونين يفهمه من كلمة « الاشتراكية العالمة » وهو افتراء رد عليه ماركس بان القضية ليست قضية اشتراكية عالمة ، وانما اشتراكية علمية .

اندفع باكونين في محاربة ماركس باللجوء الى دسائس بارعة، معقدة . وكان باكونين قد اكتسب بعض النفوذ في اوساط «الاممية» (ولا سيما في سويسرة الرومانية) وبلغ به الأمر الى ان يؤلف (خرقاً لنظم الاممية ودستورها) جمعية سرية مهمتها النضال ضد البونابارتية ، ولكن ايضاً ـ وبخاصة ـ ضد ماركس داخل « الرابطة الاممية للعمال » ؛ واخيراً اراد باكونين اكتساب الشعبية ، فكان يؤكد في المؤتمرات جميع التوصيات المتطرفة (مثلاً ايّد في مؤتمر بال ١٨٦٩ اقتراحاً يطالب بالغاء حق الوراثة الغاء فورياً مطلقاً .) وفي هذه الاثناء كانت الاممية قد اصبحت منظمة قوية . ومن الصعب تقدير عدد اعضائها تقديراً صحيحاً . وتقديرات المؤرخين تتراوح بين مليون وسبعة ملايين بل تسعة ملايين من الاعضاء.

لم تكن هذه القوة الا مظهراً خداعاً ؛ فقد ادت الاحداث والصراع بين الاتجاهات ، بخاصة ، الى هلهلة الاممية. وماركس وانجلز عنيا عناية كبرى سنة ١٨٧٢ وفي السنوات التي تلت ، بتصفية الاممية وقيادتها نحو نهاية هادئة واستخلاصها من نفوذ الباكونينيين ، اكثر من عنايتهما بانقاذها او المد في اجلها . وفي الثاني من سبتمبر ١٨٧٢ انعقد في لاهاي آخر مؤتمر عظيم

للأممية ، واحرز ماركس فيه انتصارات على باكونين . ففي البدء استطاع حمل المؤتمر على التصويت على قرار يعلن ضرورة العمل السياسي للتجمعات النقابية . ثم حصل على قرار بطرد باكونين شخصياً، بعد ان ثبتت ادانته في قضية غامضة ، مريبة، كثيرة التعقيد ، لا يسعنا هنا ذكرها ، ونعني بها قضية نيتشاييف[1] .

بيد ان وقائع المناقشات في جلسات المؤتمر كانت تدل على ان « الرابطة الاممية » بدأت تتزعزع وتنحل ، وان نفوذ الاشتراكية العلمية، حتى بعد طرد باكونين، لم يفرض ذاته فرضاً حاسماً نهائياً . وكان ثمة فروع كاملة (كالفرع الانكليزي مثلاً) تميل نحو فكرة اصلاحية – بورجوازية – صغيرة réformisme petit-bourgeois ، وترمي الى الملاءمة السلمية بين صراع الطبقات وبين مصالح الرأسمالية ومتطلباتها .

واقترح ماركس وانجلز نقل مركز « المجلس العام » الى نيويورك حيث تكون الرابطة الاممية بنجوة من الفكرة الاصلاحية Le réformisme ، ومن الفوضوية .

وتبنى المؤتمرون الاقتراح ، وكلف سيرج « الماركسي » بمهام الامانة العامة . وانطفأت « الرابطة الاممية للعمال » وزالت

(١) في كتاب «هذه هي الفوضوية» تأليف ارفون،[من المجموعة العقائدية نشر دار بيروت] قصة هذه القضية المثيرة (المعرب)

قليلاً قليلاً ، ولا يمكن اليوم تحديد التاريخ الدقيق لوفاتها ...

«لقد كانت تنتسب الى مرحلة الامبراطورية الثانية ؛ وكانت تلك المرحلة عهداً امكن فيه وضع المصـــالح المشتركة ، والكوزموبوليتية، للبروليتاريا في المرتبة الاولى من الاهمية . » (انجلز – رسالة الى سيرج ١٢ سبتمبر ١٨٧٤) .

وفي تلك الاثنـاء جرت احداث بالغة الاهمية والخطورة ، حدد ماركس ، بمناسبة حدوثها ، نواحي هامة من مذهبه ، وهذه الاحداث ، لعبت ، من ناحية ثانية ، دوراً كبيراً في زوال الرابطة الاممية للعمال . والاحداث هي : الحرب الفرنسية الالمانية وكومونة باريس .

بقي ماركس ، كما كان عام ١٨٤٨ ، نصيراً للوحدة القومية الالمانية ، وكان يرى في هذه الوحدة الشرط الضروري لحركة عظيمة تنجو من ضيق التميز المحلي .

ولا شك في ان ماركس كان يأمل ان تتحقق هذه الوحدة من طريق غير طريق تحويل المـانية الى مقاطعـة « بروسية » . ولم يكن ماركس يرى اية قيمة لمحـاولة بسمارك « البارعة » في اتمـام « ثورته من الاعلى » . وحين نشبت الحرب بين بروسية والنمسة كان ماركس يتمنى – بلا جدوى – ان يتلقى البروسيون ضربة قاضية دامغة . »

ومن جهة ثانية ، كانت البونابارتية المنحـــلة التي تسود في

فرنسة ، تبدو لماركس – مع القيصرية – العدو الاهم الأخلق بالمحاربة والسحق . ومن كان في ذلك الوقت « بادانغيه » ؟ كان شرطي اوروبة !... ولم يكن ثمة شيء اكثر خطراً من السياسة التي يتدخل فيها نابليون الثالث والهادفة الى حركات التوحيد القومي [... في ايطالية، مثلاً] ولكنه كان يوجه هذه الحركات وجهة رجعيـة ، وبمقدار مـا كانت القوى الرجعية تقدم اليه من رشوة . كانت احداث ١٨٧٠ لماركس ، مناسبة لتحليل علمي ، هادىء، يسمو على جميع انواع العواطف وضيق الافق القومي . تحليل ، هو فعلاً ، عقلاني علمي ، مـا زال الى اليوم يثير نقمة اعداء الماركسية . كان ماركس يتوقع ان تؤدي الحرب الى انهيار البونابارتية : « ان بسمارك يعمل لمصلحتنا ، على طريقته . وهو يعمل ذلك دون ان يريد، ولكنه يعمل ذلك . » (رسالة الى انجلز ١٥ آب ١٨٧٠)

ووضع ماركس باسم « الاممية العمالية » بياناً (في ٢٣ تموز ١٨٧٠) صرح فيه : « نرى من الجهة الالمانية ، ان الحرب هي حرب دفاعية . ولكن من حتَّم على المـانية ضرورة الدفـاع ، ومن جرهـا الى هذا الموقف ؟ – هي بروسية . وبسمارك هو الذي تآمر مع بونابرت في سبيل سحق المقاومة الشعبية في بلاده (المانية) والحاقهـا باسرة هوهنزولرن الحاكمة... فإذا سمحت الطبقة العاملة الالمانية للحرب الحالية بفقدانها طابعهـــا الدفاعي المحض ، وتحويلها الى حرب ضد الشعب الفرنسي ، فسيكون في ذلك الكارثة... »

وهذا مـــا حدث... فالرابع من ايلول ادى الى انقلاب الاوضاع انقلاباً فوريـــاً . وما ان انهارت البونابارتية ، حتى كفت الحرب عن ان تهدف الى وحدة المـــانية وحدة قومية شعبية حرة ، لتصبح حرب غزو وفتوحات . وبعد ذلك بقليل كتب ماركس الى بعض مراسليه من الالمان قائلًا « ان الحاق الالزاس واللورين بالمانية سيكون سبباً في خراب المانية ، وسيكون وسيلة لجعل الحرب دائمة بين البلدين... »

وهذه حقاً كلمة اشبه بالنبوءة ، ويضيف ماركس مخاطباً العمال الالمان: ان هذه الحرب تشق الطريق لآمال جديدة «وتنقل من فرنسة الى المانية » في المرحلة القادمة « نقطة الثقل للحركة العمالية الاممية » ولكنه يكتب ، **في الوقت نفسه** ، الى العمال الفرنسيين، باسم الاممية (٩ ايلول ١٨٧٠) ان يمضوا في نضالهم، ولكن في حذر، دون ان ينجروا في تيار الذكريات التاريخية، وبعد ان ينظروا بعين الوعي الى جميع جوانب الموقف المعقد تعقيداً دامياً فاجعاً .

ونعرف انه اثناء النضال اليائس الذي خاضه الشعب الفرنسي ضد العدو المجتـــاح ، مد ماركس وانجلز يد المساعدة للشعب الفرنسي ، ومن المؤسف ان تكون هذه المساعدة قد جاءت دون جدوى .

ورسالة ماركس الى « كوجلمان » في ١٣ كانون الاول ١٨٧٠ شهادة هـامة في هذا الموضوع : « ليس ثمة (الا أسرة

هوهنزولرن) من يستطيع التصور بان الشعب يرتكب جريمة اذا واصل الدفاع عن نفسه ، بعد ان أخرج جيشه النظامي من ساحة المعركة . ان الكلمة الاخيرة لم تقل بعد : فالحرب في فرنسة قد تتخذ وجهة مفاجئة ، لم تكن اطلاقاً في الحسبان » (وهذه الفكرة ايدها انجلز بتحليل دقيق للموقف العسكري ، وذلك في مقالات نشرتها صحيفة «بال مال غازيت» ، في ٢٦ — ١١ — ١٨٧٠؛ و ٨ — ١٢ — ١٨٧٠ ؛ و ١٧ — ١٢ — ١٨٧٠ الخ..) وفي ١٦ كانون الثاني ١٨٧١ صرح ماركس لصحيفة الدايلي نيوز ان فرنسة تناضل لا لاجل استقلالها الوطني فحسب، وانما في سبيل ضمان استقلال المانية ، واوروبة كلها . »

ويدلنا هذا المثل على تطبيق عملي محسوس للطريقة الماركسية. فالنتائج المستخلصة من تحليل ما ، بعد ان تأخذ بعين الاعتبار، جميع جوانب الموقف، وجميع علاقات القوى المتناقضة الموجودة في الساحة ، هذه النتائج تتغير اذا تغير الموقف . فلا تقليدية ، ولا جمود ! اما خصوم الماركسية الذين يتمسكون (او يتظاهرون بالتمسك) بحقائق محددة تحديداً ضيقاً ، فيرون في هذه الخطة مزيجاً من الكذب ، وسوء النية ، والتناقض مع الذات ، وضعف الايمان !... وعبثاً نطيل ونسهب في هذا الموضوع لنبين لهؤلاء ان نظرة خصوم الماركسية ناتجة هي نفسها عن مزيج من الجمود او التثاقل التقليدي المذهبي raideur dogmatique ومن الافتقار الى الروح العلمي ، ومن التأويلات

المتحيزة المغرضة الضيقة الافق... امـــا مـا يختص بتحليـل ماركس لكومونة باريس Commune de Paris فقد اعتمد ماركس تطبيق الطريقة نفسها ، والحركة نفسها التي تتغير بتغير الوضع . وقبل نشوب ثورة ۱۸۷۱ اعلن ماركس انه لا يؤيد نشوبها ؛ فقد كان يرى ، بل كان يعلم ان الفشل مقدر لها ، ولو لم يكن ثمة الا سبب واحد : هو ان الجيوش البروسية كانت تنتظر اللحظة المناسبة للتدخل، في حال انكسار الجيوش الفرنسية التي اعادها بسمارك الى تييرس لغاية واحدة هي سحق الحركة الشعبية ، (ذات الاتجاهين : الوطني والاجتماعي معاً) « ان الطبقة العاملة الفرنسية تتحرك في ظروف تكتنفها صعوبة بالغة . وكل محاولة لقلب الحكومة الجديدة في الازمة الحالية ، في اللحظة التي يدق فيها العدو ابواب باريس ، سوف تكون محاولة مجنونة يائسة . » (بيان ماركس في التاسع من ايلول) . كان ماركس يريد ان يجنّب الحركة العمالية الفرنسية تكرار الهزيمة التي اصابتها عام ١٨٤٨ . وغني عن القول ان « متطرفي اليسار » وفي مقدمتهم الباكونينيون ، اهملوا هذه التحذيرات الرصينة . ومنذ الثامن والعشرين من ايلول ، اعلنوا في ليون، الكومونة الثورية ، مورطين الرابطة الاممية العمالية في هذه المغـــامرة . واتخذوا قرارات (سماها ماركس « قرارات مجنونة ») تلغي ، بجرة قلم ، الدولة ، والدين ، والرأسمالية...

ولكن مـا ان نشبت الثورة حتى اضطر ماركس الى دعمها

بجميع قواه . فأيد بلا تحفظ ، « بيان اللجنة المركزية للحرس الوطني » الصادر في ١٨ آذار ١٨٧١ الذي اعلن «ان كادحي باريس ، وسط خيانات الطبقـــات الحاكمة ، وخوَرها ، قد ادركوا ان ساعة انقاذ الموقف قد ازمت ، وعليهم ان يتسلموا مقاليد الشؤون العامة... »

وفي ٣٠ نوار من العام نفسه ، انهى ماركس وضع رسالته الى « كومونة » باريس التي وجه فيها الى الثائرين نصائح سياسية عميقة ، دون ان يتساهل معهم باخفاء نقد اخطائهم...

ولكن بعد فوات الاوان...

وعبر ماركس عن نظرته - من الناحية الاجمـــالية - الى الثورة ، في رسالة مهمة الى كوجلمان (١٢ نيسان ١٨٧١) : « في آخر فصل من كتابي « ١٨ برومار » اوردت ملاحظة تقول بان محاولة الثورة القـادمة في فرنسة ، يجب ان لا تؤدي الى انتقال الآلة البيروقراطية والعسكرية الى ايدٍ جديدة.. وانما يجب ان تؤدي الى تحطيمها؛ وهذا هو الشرط الضروري الاول لجميـع ما ينشب في اوروبة من ثورات شعبية حقاً . وهذا ما حاول ان يفعله رفاقنا الباريسيون الابطال .

« ما اروع المرونة ، والمبادرة التاريخية ، وما اروع القدرة على التضحية التي يتحلى بها هؤلاء الباريسيون !... »

اسهمت تجربة الحرب الاهلية الفرنسية - اذن - اسهاما

جوهرياً في نظرية الدولة. «فقد حاول شعب باريس ان يكتسح السماء» يعني ان يستولي اولاً على سلطة الدولة ، لتطويرها في اتجاه الديموقراطية الشعبية . وانحرافات هذه المحاولة التاريخية واخطاؤها الكثيرة لا تنفي اهميتها .

اما الاخطاء فمردها الى رواسب الايديولوجيات المختلفة (البلانكية ، البرودونية ، الفوضوية ، الباكونينية) ونذكر ، بخاصة ، فكرة تجزئة الدولة والامة الى عدد كبير من الدوائر المستقلة بالسلطة ، فقد كانت فكرة سخيفة . بيد ان ضرورات الموقف حملت الثائرين الباريسيين على اتخاذ طائفة من التدابير البناءة . لقد كانت الكومونة ، من حيث الجوهر والاساس ، « حكومة الطبقة العاملة» (مؤلف ماركس: الحرب الاهلية في فرنسة ، مكتب المنشورات ، باريس ص ٨٠) واضحى القادة السياسيون مندوبين عن المنتجين ، وممثلين لمصالح المنتجين . ولم تكن وظائف السياسيين تهبهم اية ميزة ، ولم تعد تسمح لهم بان يكونوا دعائم الحكم الرأسمالي. ورأى ماركس: « ان القرارات التي اتخذتها الكومونة (كخضوع المندوبين لامكان العزل ، ورقابة الشعب الدائمة على تنفيذ المنهاج الانتخابي واعتباره عقداً ووكالة... الخ...) تؤلف خطوة حاسمة الى الامام ، في اكتشاف الشكل السياسي ، الذي سوف يساعد على تحقيق التحرر الاقتصادي للعمل . »

كانت الكومونة مؤسسة للعمل ، وكانت بذلك مصدر كل

السلطات ، بوصفها تحرراً مباشراً للشعب ، وهي – اذن – مؤسسة **للعمل** ، لا للمناقشات البرلمانية ، يعني انهـا « تنفيذية وتشريعية في آن واحد . » ولقد ارتكزت على الشعب المسلح، لا على قوة خاصة هدفها الارغام، والرقابة ، التي هي من خارج الشعب .

« ان سلطة الدولة الممركزة ، بجميع اجزائهـا واعضائها المنتشرة في كل مكان ، (الجيش الدائم ، والشرطـة ، والبيروقراطية، والاكليروس، والقضاء) وهذه الاعضاء المصنوعة والمكيفة كلهـا وفقـاً لتقسيم العمل تقسيماً منهجياً متراتبـاً Hiérarchique ، تعود بمنابعها الى عهد النظام الملكي المطلق . وكانت البورجوازية الناشئة تستخدم هذه السلطة سلاحـاً فتاكاً في معاركها ضد الاقطاعية !...

ولكن العقبات المتخلفة عن القرون الوسطى ظلت تعرقل نمو هذه السلطة وتطورها ، وجاءت الثورة الفرنسية الكبرى ، فكنست ، بضربة حاسمة ، قوية، جميع تلك القداسات المحنطة، فحررت الصعيـد الاجتماعي بذلك ، واستبعدت منـه آخر العقبات التي تحول دون تكامل البناء الفوقي او الاعلى supers-tructure لصرح **الدولة الحديثة**، الذي بني في عهد الامبراطورية الفرنسية الاولى Le premier Empire وهو نفسه نتيجـة الحروب التي تحالفت فيها اوروبة العتيقة، نصف الاقطاعية، ضد فرنسة المتجددة . وفي ظل العهود التي تلت ، لم تصبح الحكومة

(وهي الموضوعة في رقابة البرلمان – يعني في الرقابة المباشرة التي تقوم بها الطبقات المالكة les classes possédantes) لم تصبح هذه الحكومة القيد القاسي المميت، بما تفرضه من ضرائب ساحقة، وديون « وطنية » . وهذه الحكومة، بمغرياتها التي لا تقاوم – الوظائف والرتب، والحمايات وميادين الاعمال المختلفة– لم تنحصر في كونها العظمة التي تتنازعها الطبقات الحاكمة . وانما تغير طابعها السياسي وفقاً للتغيرات الاقتصادية ، في المجتمع . وكان تقدم الصناعة الحديثة كلما انمى التنازع الطبقي بين رأس المال والعمل ، وزاده احتداماً وقوة ، كانت سلطة الدولة تتخذ ، وتتبنى ، اكثر فأكثر ، خصائص سيطرة الدولة القومية وسلطتها على العمال، فأضحت قوة عامة منظمة هدفها الاسترقاق الاجتماعي ، واضحت آلة استبدادية طبقية . وكان الطابع الاضطهادي الكبتي المحض ، في سلطة الدولة ، اثر كل ثورة تعين مرحلة جديدة في صراع الطبقات، يبرز بروزه الذي يتأكد اكثر فأكثر... (ماركس « الحرب الاهلية في فرنسة ») .

٥ – آخر مؤلفات ماركس

في الثاني والعشرين من نوار ١٨٧٥ انعقد مؤتمر غوتا ، وفيه تقرر توحيد اتجاهيْ الاشتراكية الالمانية (اتجاه « اللاساليين » ، واتجاه «الايزناخيين» وهؤلاء كانوا يشكلون حزباً انبثق عن مؤتمر

ايزناخ عـــام ١٨٦٩) هكذا تألف الحزب الاشتراكي العمالي الالماني الجديد ، وكان يعتمد منهجاً مشوشاً غامضاً عرف باسم « منهج غوتا » ، وكان يستعير بعض صيغه من افكار « لاسال » (وبخاصة ، « القانون النحاسي ») ويستعير بعض الصيغ الاخرى من الاشتراكيين الطوباويين الوهميين ، (وبخاصة : فكرة حق العـــامل بمنتجات عمله) واخيراً كان المنهج يعلن تحقيق « دولة حرة » ، دون ان يلاحظ واضعوه ان هذه الصيغة « البليغة » الجوفاء تتضمن تناقضاً داخلياً : فحيث تكون دولة ، لا يمكن ان تكون الحرية قد هيمنت بعد .

تلقى ماركس نص المنهج ، فقرأه ، وعلق عليه بهوامش كثيرة ، ولكنه لم يشأ ان يقطع صلته بزعمـــاء الحركة العمالية الالمـــانية ، (ليبناخت ، ببيل الخ ..) ولذلك لم ينشر نقده « لمنهج غوتا » .

وبعد وفاة ماركس ، وازاء الانتهازية التي سادت صفوف الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية ، طلب انجلز الى كوتسكي نشر هذه الوثيقة الهامة، في صحيفة «نيوزايت»، وقد جاء فيها :

« بين المجتمع الرأسمالي ، والمجتمع الشيوعي مرحلة وسطية، من التغير الثوري ، يتحول اثناءها المجتمع من صفته الرأسمـالية الى صفته الشيوعية . وثمة مرحلة سياسية تطـــابق هذه المرحلة الثورية ، وتلازمها . » والواقع ان نمو القوى المنتجة الذي بلغته الرأسمالية لا يكون قد هيأ ، بعد ، للمجتمع ، حالة الازدهـار

الانساني التي هي الشيوعية . بل يجب تنظيم هـذا الاقتصـاد ، وتخطيطه ، وانماؤه ، وتطويره : ومرحلة الانتقال تتطلب حتماً من الناحية السياسية ، الديموقراطية البروليتـارية ، يعني السلطة القسرية التي تمارسها البروليتاريا وتفرضهـا (على البورجوازية ، ويجب ان نردد هذا القول هنا ، فانما تُفرض السلطة القسرية على البورجوازية ، وعلى رواسبهـا وبقاياهـا ، وعلى حلفائهـا وشركائها...) ؛ وهذه المرحلة هي ، من الناحية الاقتصادية ، مرحلة الانتقال الى الاشتراكية .

كان منهج الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي الالماني يطالب بان تكون منتوجات العمل بكاملها ملكاً لجميع اعضاء المجتمع ، بالتساوي ، وماركس ينقد هذه الطوباوية الوهمية، ويحدد مبدأه بدقة: **الاشتراكية ، المرحلة الاولى من المجتمع الشيوعي** ، من المستحيل ان يتلقى الذين يعملون ما يعادل نتاج عملهم بكامله . **اولاً** ، لان العمل يفقد ، اكثر فأكثر ، طابعه الخاص ، الفردي البحت، ليصبح ، اكثر فأكثر ، اجتماعياً (وفي كتاب « رأس المال » حلل ماركس ، بدقة ، تقسيم العمل ، وبـيّن ان تقسيم العمل، بعد ان بلغ اقصى درجاته في العمل المانيفاكتوري المجزأ، يميل في الصنـاعة الحديثة الى اتخـاذ اشكال جديدة ، **ويميل** الى تخطي ذاته . **ثانياً** ان قسمـاً من المنتوج الاجتماعي يجب ان ينتقل الى الانتاج الجديد، البسيط، (احلال الآلات والادوات الجديـدة محل الآلات والادوات البـالية) ويجب ان ينتقل

– ايضـاً – من المنتوج الاجتماعي الى الانتاج الجديد الموسع ، (التراكم الاشتراكي ، تزايد القوى المنتجة ونموهـا ، وهذا يعني بالتالي تزايد الادوات والآلات الصناعية ، ونموها) .

ثالثاً، من المحتم إن يُستهلك قسم من هذا الانتاج الاجتماعي في العنـاية بالمرضى ، والشيوخ ، والنسوة الحاملات ، – وفي تربية الاطفال – وفي الجيش ، ما بقي ثمة جيش – وفي النفقات الادارية... الخ...

يحمل المجتمع الاشتراكي في داخله « آثار المجتمع القديم الذي انبثق عنه » وهذا في جميع النواحي ، الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، والفكرية . وما ان يتقرر حق الجميع في المساواة بنيلهم تعويضـــاً عن اعمالهم ، حتى تبرز جميع مظـاهر التباين واللاتساوي في عمــــل الافراد المنتِج ، وتبرز هذه اللامساواة بروزاً واضحاً مكشوفاً . فالقوى ، والمواهب تتباين ويختلف بعضها عن بعض ، وانما تبرز هذه الفروق بروزاً اوضح ، لان حق الجميع في المساواة لمـَّا يرتكزْ على نمو عظيم هائل في القوى المنتجة ، والافراد لما يمتلكوا الا حقوقهم – المتساوية – في التمتع بمنتوجات عملهم ، ونعلم ان هذه الاعمال ليست متساوية في ما بينها . وهذه يعني – اذن – أن الافراد يجب ان ينالوا ما يعادل المنتوج الاجتماعي لعملهم الفردي ، بعد ان ننقص منه ما يحتفظ به المجتمع لحاجاته العامة . وبتعابير أُخرى نقول انه يظل ايضاً ثمة « قيمة زائدة » ، ولكنها اشتراكية ، (يعني ان

هذا التعبير : « القيمة الزائدة » لا ينطبق تماماً على ما يحدث في المجتمع الاشتراكي). « فالمنتوج الزائد » le surproduit ، من عمل الفرد، لا ينتقل الى طبقة المستثمرين، وانما ينتقل مباشرة الى المجموع الاجتماعي المنظم تنظيماً عضوياً . وهذا لا يمنع من ان يظل نمو الفرد، ونمو المجتمع محصورين ، في تلك المرحلة ، داخل بعض الحدود : **فلكل على قدر عمله .**

ففي عهد الاشتراكية ـ اذن ـ وفي عهد «الديموقراطيــة الاشتراكية» يكوّن الحق المتساوي حقاً غير متساو، لعمل غير متساو . وهو لا يعترف باي تمييز طبقي ، لان كل انسان فيه ليس الا عاملاً كسواه ؛ ولكنه يعترف ضمنياً باللامساواة بين مواهب الافراد وبين طاقـــات الافراد وممكناتهم المنتجة ، بوصفهــا امتيازات طبيعية . اذن فصيغة الحقوق تكون هنـــا مؤسسة على اللامساواة ، شأنهـــا في ذلك شأن كل حقوق . وحقوق المساواة هذه ، هي اذن ، دائماً ، من ناحية المبدأ والاساس ، الحقوق البورجوازية ، مع فارق واحد هو ان الحقوق، في عهد الديموقراطية الاشتراكية، قد تخلصت من المنازعة العنيفة ، بين المبدأ والتطبيق العملي، وتخلصت من الفرق الشاسع بينهما . وعندئذ تتميز الديموقراطية بانهـــا **تحقق** فعلاً الحقوق البورجوازية (الديموقراطية) التي كانت تترك المساواة والحرية والعدالة هائمة في سمـــاء التجريد النظري . ويفقد سوق العمل والبضـــائع حقيقته المستقلة التي كانت خارجة عن ارادة البشر

ورقابتهم . وكذلك النقد ، والعملة ، والقرض تفقد طابعها الرأسمالي، اذ كانت « غايات في ذاتها » فتصبح الوسائل التي تتيح مراقبة الاقتصاد الاجتماعي المصمّم المخطط planifieé ، وتوجيهه (اذن ، فلا وجود للازمات في ظل هذا الاقتصاد) ثم تزول عند فقدانها وظائفهـا ، كما تزول الدولة الاشتراكية نفسها ، فالانحراف عن الجوهر الانساني ، والوثنية الاجتماعية تخطاهما النظام الجديد .

وتعبير: « الدولة الشيوعية » – وكثيراً ما يُستعمل – إنما ينطوي على سخافة . فالشيوعية لا يمكن ان تنشأ الا في عهد من الحرية التـامة ، اذن : اثر زوال الدولة . ان المجتمع الشيوعي ، وازدهار الانسان ازدهاراً حراً مؤسساً على الرخاء ووفرة المنتوجات ، يظهران « حين تتلاشى عبودية الافراد في تقسيم العمل، وزوال المناقضة والتباين بين العمل اليدوي والعمل الذهني – وحين ينقطع العمل عن كونه وسيلة خالصة ، ليصبح حاجة من اولى حاجات الحياة – وحين تزداد قوى الانتـاج وتنمو مع نمو الافراد ، في جميع الاتجاهات والحقول ، وحين تتدفق جميع منـابع الغنى الجماعي وتسيل غزيرة ، وحينئذ وحسب يمكن ان يُتخطى الافق التشريعي الحقوقي البورجوازي الضيق ، تخطياً كاملاً تاماً ، ويعيش المجتمع وفقاً لمبدأ : « من كلٍ وفقاً لطاقته ، ولكلٍ وفقاً لحاجاته » .

لم يحاول ماركس ان يتجاوز هذا الحد في وصف الدولة

الاشتراكية ، والمجتمع الشيوعي ؛ وكثيراً ما أخذ هذا الموقف على ماركس . ولكنه كان يعرف حق المعرفة ان كل محاولة لاستباق امور المستقبل البعيد سوف تكون عقيمة ، مجدية ، ملؤها المآخذ ، كأية طوباوية وهمية. لقد كان يرمي الى هدف علمي واضح يخلو من اوهام المثالية ، ويحدد المستقبل تحديداً ايجابياً، يعني يتنبأ علمياً بالمستقبل كما ينتج عن **اتجاهات** الحاضر، في **حركته** الداخلية. ومطالبة ماركس بأن يصف المجتمع الشيوعي وصفاً مفصلاً لا تقل سخافة عن مطالبة عالم الفيزياء بتحديد وضع هذه الحبة من الرمل ، او هذا القلم، كما سيكون بعد مئة عام !

فالفيزيائي يعلم ان للكون قوانين ، وهو يعلم ايضاً ان كل مسألة دقيقة محدودة تأتي في ساعتها المناسبة، والمسألة المطروحة في المستقبل لا تطابق المسألة الفيزيائية الراهنة، وهكذا يعلم ماركس ان كل حالة تاريخية تطرح على بساط البحث مسائلها المحسوسة ؛ وليس المهم ان نحلم مثالياً في مستقبل الانسان ، وانما المهم ان **نعمل ونناضل** لبلوغ هذا المستقبل ، وان يكون بين ايدينا **منهج** او **طريقة** نظرية تتيح لنا تحليل كل وضع ، واكتشاف الحل للمشاكل التي تطرحها .

٦ – سنوات ماركس الاخيرة

تحسنت حال ماركس المادية حين تحول رفيقه انجلز من

عامل بسيط الى شريك في مصنع ابيه (١٨٦٤) ثم غدا انجلز وارثاً يتصرف بنصيبة المشروع (١٨٦٩) .

زوّج ماركس ابنتيه ، احداهما (لورا) من بول لافارج عام ١٨٦٨، والاخرى (جيني) عام ١٨٧٣ من شارل لونجيه.

ولكن المؤسف ان ماركس تهدم بسبب ما قاسى من نضال وحرمان . فألمّ به مرض الكبد ، ثم داء النزلة الشُعَبية ، وهذه الآلام لم تضعف عزيمته ، ولكنها خففت من طاقته على العمل .

كان العمل الذي شرع يعمله ماركس خارقاً ، يتعدى طاقة البشر . وكان ماركس يريد ، وحده، تحقيق عمل فِرَقٍ عدة ، او عمل اجيال عدة : علم الاجتماع ، ومعرفة الانسان في تاريخه، وفي حياته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والنفسية ، والفنية .

لم ينه ماركس كتاب « رأس المال » . وقد وجد انجلز ، اثر وفاة ماركس ، مخطوطات وفيرة – هائلة في وفرتها – واكواماً من الملاحظات والوثائق (وجد طناً من الاحصاءات عن الملكية العقارية وعن الاقتصاد الزراعي في روسيا ، ووجد دراسات في جميع فروع العلوم حتى في الرياضيات...)

وكان ماركس يُعِدُّ كتاب « رأس المال » ليتضمن اربعة اجزاء : انتاج رأس المال ، انتشار رأس المال ، عملية تطور مجموع الرأسمالية ، تاريخ النظريات التي درست رأس المال .

ولم يصدر اثناء حياة المؤلف الا الجزء الاول من الكتاب (انتاج رأس المـــال) . واستطاع فريدريك انجلز ، باعتماده مجموع المخطوطات التي تركها ماركس ، وباتمامه بعض الفصول ، ان يعيد تكوين الجزء الثاني من الكتاب ، وقد صدر عـــام ١٨٨٥ (راجع التمهيد الذي كتبه انجلز، والمنشور في ترجمة موليتور بمطلع الجزء الخامس)

واخيراً صدر الجزء الثالث، بعد ان نقَّحه انجلز واتمَّه معانياً كثيراً من الصعوبات ، وكثيراً من العمل الجاهد الطويل . فلم ينشر هذا الجزء الا عام ١٨٩٤ (راجع « تمهيد » الذي كتبه انجلز في مطلع الجزء التاسع من ترجمة موليتور)

اما تاريخ النظريات التي درست « القيمة الزائدة » فلم يُنشر الا بين سنة ١٩٠٥ و ١٩١٠ بفضل جهود كوتسكي (الترجمة الفرنسية بعنوان « تاريخ المذاهب الاقتصادية »، ثمانية اجزاء).

ونقاد الماركسية ، من ناحية عامة ، وعدد من الماركسيين – لسوء الحظ – لا يعرفون الا الجزء الاول من كتاب « رأس المال » ، ولا يعرفون من هذا الجزء الا الفصول الاولى (في **القيمة**) . غير ان لمؤلف ماركس الكامل وحدة داخلية، والتحليل الماركسي ينتقل من المجرد الى المحسوس . واذا نظرنا الى « القيمة » في ذاتها، معزولة عن سواها من جوانب الرأسمالية، « رأيناها قضية ادنى الى الخرافة » كما يقول ماركس .

كان قانون **القيمة** جوهرياً في البدء (يعني ، تاريخياً ، في عهد تبادل البضائع تبادلاً بسيطاً في العهود القديمة ، والقرون الوسطى ، ايام الرأسمالية التجارية) وبعدئذ انتقل قانون **القيمة** الى الرأسمالية ، بعد ان طرأ عليه التغير ، والتحول . ولم يعد قانون القيمة – اذن – بالنسبة الى الاحداث **المحسوسة** في الرأسمالية (انتشار الرساميل ، ودورتها ، والقرض ، ومعدل الربح الوَسطي ، وتكاليف الانتاج ، وصراع الطبقات الخ . .) لم يعد هذا القانون – اذن – الا تجريدا بعيداً ، رغم انه ظل محتفظاً ، داخل هذه الاحداث الجديدة ، بحقيقة عنصرٍ يكتشفه التحليل ، مجدداً ، وظل محتفظاً بفترة يعود التاريخ الى ادراكها .

ان الذين يجهلون مجموع كتاب « رأس المال » ويكتفون بدراسة « القيمة » ونقدها ، لا يعرفون الماركسية . وقد اوردنا في كتابنا هذا فقرة حاولنا ان نلخص فيها مؤلف ماركس ، وعمله العلمي الضخم ، بكل ما ينطوي عليه من حركة عامة .

نُشرت على آخر سنوات ماركس سحب الحداد والمرض . فتوفيت زوجته في الثاني من كانون الاول سنة ١٨٨٢ ، وابنته جيني في اوائل سنة ١٨٨٣ . وتوفي ماركس عام ١٨٨٣ ايضاً . ودفن في مقبرة « هاينغايت » . والقى انجلز امام ضريح رفيقه خطاباً استخرج منه معنى حياة كارل ماركس ، وكذلك معنى عمله العلمي العظيم : وَحْدَة النظرية ، والعمل .

خاتمة

١ – حاولنا في هذه الدراسة ان نتـــابع نشأة الفكر الماركسي ، وتطوره (واتخذنا اقصر السبل ، ولا شك)

الماركسية، وهي نظرية **الحركة**، كانت وما تزال ، وسوف تكون دائماً النظرية التي هي **في حركة** .

لقد استطعنا ان نبين كيف دخلت اول ابحاث ماركس ، واول اكتشافاته ، واول مظاهر الواقع التي اكتشفها وحللهـا ماركس ، كيف دخلت الى التطور الحي لمذهبه وطريقته ؛ فرأينا كيف اندمجت: الفلسفة بالاقتصاد ، والاقتصاد بالسياسة، وكذلك كيف اندمجت طريقته في دراسة الابنية الفوقية الثقافية والفكرية (التي رسم ماركس خطوطها الاولية فقط)

تحاول العقيدة الماركسية – ايضاً – وتجهد لادراك الواقع الانساني الحقيقي ، في حركته وتعقيد « رسوباته » -- معـــاً –

(ونستخدم كلمة « رسوبات» لتقريب المعنى الى الاذهان) هذه الرسوبات التي تراكم بعضها فوق بعض ، بفعل استمرار التاريخ، واثر بعضهـا في بعض : منذ العلاقة بالطبيعة حتى ارفع درجات الفن واعظمها ازدهاراً .

ومن ناحية ثانية -- وبخاصة — تنتج عن دراسة الماركسية ودراسة ابحـاث ماركس **طريقة للفكر** ، مرتبطة بمذهبه ، ولكنها تبرز من المذهب، بوصفها جانبه العقلاني الكوني الشامل . Uuiversel

ولقد اشرنا الى هـذه الطريقة ، في مقدمة دراستنا ، اشارة بدائية جافية. ثم رايناها تتكون، وتعارك التجارب، وتكتسب دقة وتحديداً ، وتثبت دعائمها . انهـا **الطريقة الديالكتيكية** . ولنذكر هنا ايضاً، مرة اخرى ، بتعاليمها الاساسية الجوهرية: الدعوة الى ادراك الحقيقة الواقعية فيحركتها **واتجاهاتها وميولها** Dans ses tendances — يعني — اذن — في **وحدة** هـــذه الجوانب المختلفة والمتناقضة .

٢ — والماركسية ، وهي العقيدة **المنفتحة** ، لم تنقطع عن النمو منذ وفاة ماركس . وهذا النمو التطوري كان ينطوي في ذاته عـــلى تعميق للمذهب الماركسي ، وتطبيق الطريقة في الوقت نفسه على حقائق جديدة طرأت ، او تركها التحليل جانباً ، بصورة مؤقتة ، وهذا يختلف — طبعاً — عن «مراجعة»

للمبادىء الماركسية ، كما يعبر البعض . ولا يمكن مقارنة نمو الماركسية ، الا بنمو علم من العلوم .

والقارىء الذي يريد تعميق معرفته بالمـــادية يجد دراسات اساسية قيمة في مؤلفـــات انجلز ، خاصة ، (مثلاً من الناحية الفلسفية : كتابه عن « فيورباخ » ، وكتابه « انتي دوهرنج » لدراسة الماركسية في مجموعها) ويجد القارىء كذلك، في مؤلفات ماركس ، توسيع حدود الماركسية ومدّهـا الى حقول جديدة (دراسة مجتمعات مـــا قبل العهد الرأسمالي ، في مؤلف انجلز « اصول الاسرة ، والملكية ، والدولة ») .

٣ ــ ان الدور الذي لعبته الماركسية في المجتمع الحديث، يستحق ، وحده ، دراسة خاصة .

كانت الماركسية في اول عهدها ، « اتجاهاً » بسيطاً ، مثل سائر اتجـاهات الاشتراكية وافكار الطليعة الفكرية الاوروبية (١٨٤٨ - ١٨٧١) ولكن الماركسية فرضت ، شيئاً فشيئاً، نفوذها على الحركة العمالية . ان دمج النظرية بالعمل ، وعلم الاجتماع بصراع الطبقـات ، ولـّد اشكالاً اصيلة حديثـة ، من الفكر والعمل : الاشتراكية البرلمانية (وخصوصـاً منذ ١٨٧١ حتى الثورة الروسية الكبرى) ، تمَّ عمل الاشتراكية البنّاء في روسيا السوفياتية؛ وفي حين كانت الاشتراكية البرلمانية تتدهور وتنحط ، كانت تنشأ حركات « تقدميـــة » أخرى ــ تسمي

نفسها احيانـــاً « ماركسية » او « شيوعية » ، وهي تستلهم الماركسية استلهاماً ، رغم انها ما كانت تخلو من شعور قومي عنيف يحرك مطالبها الاجتماعية ويبررها، وهذه الحركات التقدمية كانت تنشأ في داخل العالم الرأسمالي ، الذي بلغ آخر مرحلة من الشيخوخة .

واعداء الماركسية تجاهلوها ، ثم هاجموها ونقدوهـــا ، ثم حرّفوها متسترين بثياب الماركسيين، (المراجعين les revision - nisies) . واخيراً يزعم اعداء الماركسية اليوم انهم يتخطونها .

وانها لمحاولات مخفقة . لقد فرضت الماركسية نفسها على اولئك الذين تعاموا عنها وتجاهلوها ، ثم ثبتت دعائمهـا في جميع الحقول . ومن المستحيل اليوم ان يزعم انسان انه « مثقف » اذا كان يجهل الماركسية . لقد انتصرت الماركسية على الف خصم وخصم ، يفوق بعضهم بعضاً « مواهب » « وعبقريات » ..

واخيراً، تُعَمّق الماركسية (المادية الديالكتيكية) ذاتهـا بذاتها ، وتتخطى ذاتها بلا انقطاع ، فمن العبث بل من المضحك – اذن – ان يدّعي انسان بانه سوف يتخطاها...

---

٦٠ /٣/ ٥٤

فهرست

صفحة

القسم الثاني

من « البيان الشيوعي » حتى كتاب « رأس المال »

القسم الثالث

رأس المال

« مطبعة قلفاط » شارع بشارة الخوري تلفون ٣٤/٧٠ بيروت



مجموعة اعلام الفكر

تعرض حياة عباقرة الفكر ونظرياتهم وآثارهم

الكتاب	المؤلف
١ - كارل ماركس	تأليف الاستاذ هنري لوفافر
٢ - ابن قتيبة	تأليف الدكتور اسحاق موسى الحسيني
٣ - الامام جعفر الصادق	« الاستاذ عبدالعزيز سيد الاهل
٤ - نيتشه	ترجمة الاستاذ خليل هنداوي
٥ - الامام علي	تأليف الاستاذ رئيف خوري
٦ - برناردشو	« الاستاذ عبداللطيف شراره
٧ - عمر فاخوري	« الاستاذ حسين مروه
٨ - داروين	« الاستاذ بيار كورتاد
٩ - انجلز	ترجمة الاستاذ محمد عيتاني
١٠ - ديكارت	تأليف الاستاذ هنري لوفافر

تطلب هذه الكتب من

وكيل الدار في عموم افريقيا السيد محمد خوجه – تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيد محمود حلمي – بغداد

توزيع شركة فرج الله للمطبوعات – بيروت

الثمن ٣٥٠ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها